من روائع القصص العالمية

٢

نقلتها إلى العربية

حصة إبراهيم العمار

مكتبات ونشر
العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمار، حصة إبراهيم

من روائع القصص العالمية – الجزء الثاني. / حصة إبراهيم العمار – الرياض، ١٤٢٧هـ

٢٣٨ ص، ١٦,٥×٢٤ سم

ردمك: ١ – ٩٧٩ – ٤٠ – ٩٩٦٠

١– القصص القصيرة أ. العنوان

ديوي: ٨٠٨,٨٣ ١٤٢٧/١٨٩١

ردمك: ١ – ٩٧٩ – ٤٠ – ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٧/١٨٩١

الطبعة الأولى

١٤٢٧/٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبات ونشر العبيكان Obeikan Publishers & Booksellers

الرياض – العليا – تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ – الرمز: ١١٥٩٥

هاتف: ٤١٦٠٠١٨/٤٦٥٤٤٢٤ – فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

■ **باكستان:**

● **زبون النساء حَمْد الله:**

- حين يبكي الناي ١٣

● **أحمد نديم قاسمي:**

- إلى رئيس الدولة ٦٥

- إلى سيادة الرئيس ٢٣٣

● **م . آثار طاهر:**

- مفتش المدارس ٩٥

■ **روسيا:**

● **انطوان تشيكوف:**

- الرهان ٢٥

● **روفيم فريرمان:**

- مصرع يون- فا- فو ٤١

■ **فرنسا:**

● **فيلي دي ليسل آدم:**

- بسالة الطبيب ٣٥

● **اندريه موروا:**

- الحارس الوصي ١١٣

■ **كولومبيا:**

● **غابريال ماركيز:**

- نهار بالثزار الرائع ٤٧

■ **السويد:**

● **بير هالسترم:**

- الصقر ٥٧

■ **أمريكا:**

● **بن هيكيت:**

- الروح التائهة ٧٣

● **شيركي جاكسون:**

- تشارلز ٧٩

● **ويليام كارلوس ويليامز:**

- استخدام القوة ١٠٩

● **امبروس بيرس:**

- غرق نفسي ١٢١

● **جيمس تي فاريل:**

- سبق صحفي ١٣٣

● **ويليام أو فلارتي:**

- القناص ١٣٩

● **راي براد بوري:**

- أبداً لن أراك ١٤٥

● **جيمس هانلي:**

- الفراشة ١٥١

- الفراشة ١٥٣

● **جون كولير:**

- الشراب ١٥٩

● **أو هنري:**

- تضحية صحفية ١٦٥

● **أرنست هيكوكس:**

- قضية عرقية ٢٠٩

● **ويليام سارويان:**

- بنت الفلاح ١٨٣

● **فرانسيس ستيغملر:**

- الأجنبي ١٨٧

● **انجيليكا غيبس:**

- الاختبار ١٩٣

● **غراهام جرين:**

- الدليل القاطع ١٩٩

● ريتشارد رايث:

- الرجل الذي كان رجلاً تقريباً ٢١٥

■ ألمانيا:

● هنيريك بول:

- كحلم بغيض ٨٧

■ بريطانيا:

● أوسكار وايلد:

- المليونير النموذج ١٠٣

● سمرست موم

- النملة والجندب ١٢٧

● آرثر موريسون:

- سيمونز... ذاك البوهيمي ١٧١

■ بولندا:

● بولسلاف بروس:

- التلغراف البشري ٢٠٥

■ هولندا:

● إلس ذانتنيف

- كيف اغتنى جدي ١٧٩

المقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

أما بعد.. فإنه ـ ولله الحمد والمنة من قبل ومن بعد ـ بعد النجاح الجمّ للجزء الأول من هذه السلسلة القصصية الشيقة.. الراشحة من أنسجة هذا العالم برمته.. الماتحة من أدق شراييه... قصص عشنا معها أحزان الكون ومباهجه.. أفراحه وأتراحه.. أبحرنا في مجاهل أفريقيا.. ومع رعاة البقر صلنا وجلنا... توغّلنا في تجاويف القارة الأوربية ورأينا الصراع بين الخير والشرّ.. بين الوله والمقت.. وبين المكر والسذاجة في أقاصيص علمت وأمتعت.. واستفاد منها ـ بإذن الله ـ دارسو الأدب الانجليزي بعد إذا قرأوها بلغتهم الأم فيسّرت لهم فهم ما استغلق عليهم فهمه.. ها نحن نجيء لكم بالجزء الثاني ليكمل ما بدأنا.. بنكهة امتزج فيها دفء الشرق وحميميته بصخب الغرب وصقيع مشاعره.. لسوف تدمي القلوب وتُدمِع العيون مأساة الفتى (علي) في قصه (حين يبكي الناء) وسنظل نتردد بين التقطيب والإبتسام في (إلى سيادة الرئيس) حين لنمس رقة البراءة الهشة حدَّ الخطر في نظرة الأم إلى سهولة رفع مظلمتها الحزينة حدّ القهر...!

لسوف نضحك كثيراً حين نرى عاقبة إصرار مراهق على شراء مسدّس تدفع بغلة سيده حياتها ثمناً لحمقه الطفولي في «الرجل الذي كان رجلاً تقريباً» لسوف ننهل من أساطين الأدب والفكر في أقطار شتى من هذه المعمورة ولسوف نرى دماء الغدر تقطر أمام نواظرنا حين يتواطأ جار لـ «يون ـ فا ـ فو» مع أعداء أمته فيُقْتَلُ الأخير ومعه طفل والواشي الذي يندم أبوه أشد الندم بعد إذ دفع غالياً ثمن غدره بجاره. أبحر ـ عزيزي القارئ ـ بين دفتي هذا الكتاب وضفتيه في رحله أثيريه زادها الخيال الضارب في أعماق المحال... وانهل من لذات روائع القصص العالمي رحيقاً مختوماً... ولشدما أنا واثقة من أنك... ستعيد قراءاته مرات... ومرات...

حصة إبراهيم العمار

الإهداء

وطن النجوم أنا هنا ... حدّقْ أتذكر من أنا

أنا من مياهك قطرة ... فاضت جداول من سنا

أنا من ترابك ذرّة ... ماجت مواكب من منى

أنا من طيورك بلبل ... غنّى بمجدك فاغتنى

زعموا سَلَوْتَكَ ليتهم ... نسبوا إليّ الممكنا

فالمرء قد ينسى المسيء ... المفتري والمحسنا

ومرارة الفقر المذلّ ... بلى.. ولذات المنى

لكنه مهما سلى ... هيهات يسلى الموطنا

«إيليا أبو ماضي»

وبعد... أيا حبيب! وكم يلذّ لي أن أناديك بيا حبيبي... أيا وطني! يا حبة القلب ونبض الوجدان أنى كان الزمان والمكان.. أيا تاج السناء وهام الكبرياء... أيا من تتميّز عن بلاد الله قاطبة باحتضان ثراك الطاهر... أغلى المقدسات إليك أهدي مع هذا الكتاب... عسجد روحي وتبر ولائي ودعاء من المولى ـ جلّ في علاه أن تبقى كما كنت وكما أنت دوماً... وطن العزة... والمجد والكرامة... والعطاء.

دمت لي

حصة العمار

حين يبكي الناي

للكاتبة الباكستانية: زبون النساء حمد الله

رغم أن جميع الرؤوس كانت راكعة للعلي القدير، إلا أن اثنين ذاك المساء كانا يحلقان بفكرهما بعيداً عن تلك الأجواء الروحانية، وحتى حينما وقعا ساجدين فقد اكتنفهما ذات الذهول وتشتت الفكر. نظر أحمد إلى أبيه من زاوية عينه وكان التعبير الذي أبصره مفترشاً قسمات ذاك المحيا الكهل، كافياً لأن يعلم منه بأن أباه قد سمع هذه المرة وبأنه لن يغفر أو يتسامح ولذا فإنه رغم كل مابذله للانغماس في بوتقة الخشوع، إلا أنه كان يردد الآيات الكريمة كما يردد الببغاء ما يسمعه... انصب كل تفكيره في أصغر أخوته... وانحصر سمعه في تلك الموسيقى العذبة الرقيقة تنساب من الناي انسياب القطر فوق أكاليل الزهر.

وانتهت الصلاة فتفرق جمع المصلين، وكان من عادة «ولايتي علي» التريث في باحة الجامع ليتجاذب أطراف الحديث مع صحبه حتى يحين موعد العشاء، إلا أنه اليوم لم يفعل ودون أن يحيد ببصره يمنة أو يسرة انتعل على عجل حذاءه وخرج لايلوي على شيء، ذارعاً الأرض الوعرة أمامه منطلقاً بمحاذاة حقول الأرز ومروراً ببركة القرية، اتجه إلى منزله.

وتبع أحمد والده وما إن أصبحا بمعزل عن أي سامع حتى فجَّر «ولايتي علي» غضبه: هل سمعت؟ همس فاحاً كأفعى أرّقها القيظ! وردَّد سؤاله في عنف اهتزت له لحيته البيضاء... غاضبا جداً كان.

وأقسم حانقاً: والله! قال متطلعاً في كدر إلى السماء التي كدرتها رياح الهند الموسمية: سيدفع الليلة ثمن ذلك!

أطبقت كفا «نازو» الصغيرة على ثمرة المانجو الفجة قبل أن تفتحهما وتغلقهما في عصبية وقلق ثانية. كانت تجلس تحت شجرة المانجو منتظرة لما ينيف عن الساعة أوبة أبيها وجدّها. أحست بالوحدة وخالط الخوف فؤادها الصغير بمرور الوقت وتطاول الظلال حولها، ولأنها كانت خائفة، وبحثاً عن شيء من الثقة والاطمئنان فقد التقطت حبة مانجو وبشدة أطبقت عليها أسنانها الصغيرة البيضاء الحادة. لقد هرعت «نازو إلى هذا المكان» حالما سمعت صوت «الناي» وقبل ذلك كانت منهمكة مع قريباتها في لعب طفولي بريء بالدمى.. كنّ يضعن عرائس القطن اللواتي صنعتها أمهاتهن في أسرتهن وعندما انطلق صوت المؤذن عَدَتْ صوب النافذة ولوّحت لأبيها وجدها مودّعة.. قبل أن ينطلقا إلى الصلاة في جامع القرية، بعدها تسلل إلى مسامعها ذاك الصوت الحاني المزعج للناي، في العادة كان ذاك الصوت يستهويها فتترك مابيدها لتتسلق عتبة النافذة فتجلس عليها راميةً ببصرها إلى أشجار النخيل الباسقة مرهفةً السمع... لكن قلبها الصغير قد توقف الآن عن الخفقان أو هو يكاد، وسقطت دميتها من يدها دون اكتراث فتدلت ضفيرتاها المصنوعتان من القنب ـ أما «نازو» فقد همست لنفسها: ـ ستقع مشاكل بالتأكيد ـ وأكملت وهي تشعر بدوار في معدتها ـ مشاكل كثيرة ستحدث لاشك. واتسعت حدقتاها رعباً بعد أن تسلل إلى سمعها صوت المؤذن الجهوري يدعو إلى الصلاة في خشوع وعذوبة وقد امتزج صوته بأنين الناي.

وتسللت من بين صويحباتها فاتجهت صوب المطبخ حيث كان النسوة يعدون طعام العشاء. كانت أمها تحرك شيئاً في القدر وقد احمرت وجنتاها من شدة الحر، فيما التهب فمها بحرارة من نوع آخر.. شطة التهمتها للتو. شكل ذلك لوحة جميلةً للرائي. وانزلقت «نازو» فالتصقت بأمها ثم طفقت ترقب جدتها وهي تصفّي الأرز المسلوق. وولج فجأة تيار عنيف فتح باب المطبخ على مصراعيه فتسللت عبره أصوات المساء. تطرق إلى مسامعهم ـ بادئ ذي بدء ـ صوت الأذان

رائعاً قوياً مجلجلاً، وعقبه ذاك النغم الهادئ الحالم... المنساب من شفة «المزمار» وارتعشت يدا العجوز المسنة وهي تصغي إلى ذاك النغم حتى إنها سكبت كثيراً من الأرز مع الماء، وسارعت بوضع الإناء جانباً قلقةً ثم انحدرت إلى الساحة قبل أن ترهف السمع مصغية في ألم.

وتبعتها «نازو» وظلت ترقبها وأصابعها الهرمة تقلب في أطراف الساري الذي كانت ترتديه «لطفك يارحمن!» قالت باكيةً: «يارحمن لطفك» كررت، فيما تخلل سمعها ثانية صوت الأذان يكدره أنين المزمار ولحقت بها كنتاها بعيد ذلك فالتفتت إليهما:

ـ ماذا عساي أن أفعل؟! ـ تساءلت فيما يشبه النواح ـ

وكررت: ـ ماذا أفعل بذاك الغلام؟.

وقالت أم «نازو» في صوت حاولت أن ينتشي بالسكينة:

ـ ربما لم يكن هو!

ـ أنا متأكدة من أنه ليس هو ـ قالت كنتها الأخرى محاولةً التخفيف عنها. فقطار المدينة الأخير لم يصل بعد.

ـ أجل! ـ قالت المسنة ـ لايمكن أن يكون هو، ربما كان العازف سواه... وأتم المؤذن النداء الرباني... وتلت ذاك ثانية أو اثنتان من الصمت المطبق ثم... سُمع صوت المزمار تارة أخرى.. كانت مفاجأة غير سارة... لاشك في ذلك.... كان الصوت هذه المرة أعلى وأعذب.. وغشتهن سحب الحزن إذ ذاك... كن يدركن في قرارتهن ألا أحد في القرية قاطبة يضاهي «عليَّاً» في روعة العزف ـ فليرحمنا الرحمن جميعاً ـ همست المسنة في قلق مضنٍ لن يغفر له أبوه هذه المرة!.

وخفق قلب «نازو» الصغير بسرعة بين جوانحها وهي تقلب النظر في الملامح المذعورة أمامها.

ـ لقد قلت له ـ قالت المسنة وقد شارفت على البكاء ـ قلت له ألا يضيع وقته في نفخ ذلك المزمار ـ ثم.. ثم أنني قد حذرته من العزف بصوته المنكر في أوقات الصلاة.

ومع كل هذا... ـ غفرانك اللهم. رددت معولةً: إلهي.. اغفر لي أن أنجبت ابناً يتصرف كالكفرة:

ـ لا تكوني قاسيةً عليه إلى هذه الدرجة يا أمي! «عليٌّ» فتى طيب ومؤمن حقّاً!.

ـ أجل ـ قالت الكنة الأخرى ـ إنه رقيق، رفيق، طيب القلب نقيُّه.

ـ فلِمَ إذاً يصرُّ على ذلك ـ ناحت المسنة ـ لمَ يضيّعُ مع ذلك المزمار وقته بدلاً من الالتفات لدروسه كبقية الأولاد... ثم... ما الذي يجعله يختار وقت الأذان للنفخ فيه؟ لِمَ يا ترى رغم أن أباه قد جلده من جرّاء ذلك مرات لا تحصى.

ـ إنه يعتقد أن ذلك نوع من العبادة! قالت «نازو» بطريقة عفوية.. فاستدارت السيدات فجأة ناحيتها في دهشة واستنكار!

ـ لقد قال لي ذلك ـ تابعت «نازو» وعيناها الكبيرتان تتوسطان في هدوء وجهها الصغير ـ والحزن يغشى صوتها الطفولي: لقد قال لي أنه يفعل ذلك لأنه يحب الله كثيراً.

وابتسمت النسوة في طيبة... وقد بدت لهن بكل عذوبة الطفولة وبراءتها:

ـ هيا انطلقي فالعبي مع صويحباتك ياذات الرأس الكبير تحمله أكتاف صغيرة. قالت جدتها قبل أن تقرصها ـ مداعبة ـ في خدها البضّ وسمعت «نازو» كلام جدتها لكنها لم تعد للعب مع صويحباتها بل اتخذت الطريق المؤدية إلى مسجد القرية... كانت السبيل مهجورة في تلك الساعة من الليل وما أنا تطاولت الظلال حتى دبَّ الخوف في قلبها لكنها ظلت تعدو حتى حاذت بركة القرية. عندها.. خفّفت من وقع خطاها واستشعرت قشعريرةَ تمتد على طول عمودها الفقري.. لقد تذكرت ما يروى عن البركة من أن المردة والعفاريت تتخذ منها مقرّاً لها.

وبثَّ مرأى شجرة المانجو المألوف شيئاً من الطمأنينة في تلافيف ذاتها على أنها لم تستطع التوغل وحيدة فاكتفت بالجلوس على صخرة بجانب البركة وآثرت الانتظار. كانت صغيرة السن لكنها سبقت زمنها فكراً ونضجاً... وكانت تخطط لملاقاة جدها الذي تعرف مقدار حبه لها حتى إذا ما أقبل سارعت تلاطفه وتخفف من غلوائه، علَّ شيئاً من غيظ قلبه يزول قبل وصوله إلى البيت.

كانت تجلس هناك... تحت شجرة المانجو بقوامها الصغير فما جاوزت من العمر ستاً لكن ذاك الفؤاد النابض في صدرها كان فؤاد امرأة وبعاطفة المرأة، كانت تسعى لإنقاذ عمها المفضَّل من سورة غضب أبيه! وطفقت تقضم بين الفينة والفينة ثمرة المانجو الفجة كأنما ليفرخ روعها وهي تفكر في عمها الذي تحبه كثيراً كما الحب الذي تهبه بنات العاشرة من العمر لإخوتهن الأكبر سناً.كم كان مختلفاً عن بقية صبية القرية! كان دمث الأخلاق رقيقاً حانياً... لكن الجميع ناصبه العداء، وبخاصة جده.. ذاك الجد الحنون العطوف المحب.. ذاك الذي ماسمعت منه كلمةً جارحة قط... ذاك الذي جلد «عليًّا» مرات لا تحصى.. ودونما شفقة...! وكان المزمار هو السبب دائماً... لم تجد الصغيرة «نازو» تفسيراً لذلك كانت تعشق الطريقة التي يعزف بها «عليٌّ» على الناي.. فيثير كوامن الشجن يهدهده حتى تسيل ألحانه ينبوعاً من النغم السّاجي يرشح عبر خلايا عود القصب ذاك! ـ تلك هي طريقتي في إزجاء آيات الحمد والشكر لله كان غالباً مايقول لها ـ على ماحبانا به من نَعم جمال حقول الأرز ـ روعة انسكاب لجين القمر في دمقس المساء ينسكب على وجنة البركة شلال ضياء، سحر السماوات تصقلها رياح الهند... وطيبة وعذوبة أمثالك من البشر يا «نازو»! لطالما ناجاها في رقة.

لقد أقبلا لاشك.. لابد أنّهما هما! قالت لنفسها وَوَقْعُ الخطى يشتد أكثر فأكثر... وأنشبت أسنانها الحادة الصغيرة في الثمرة كأنما تكبح بها شيئاً من معاناتها قبل أن تقفز بارتياح لما بَصُرتْ بأبيها وجدّها. وجثمت في مكانها الظليل

حتى إذا ماصار على مقربة منها قفزت فجأة محاولة إخافتهما.. وصدما لوهلة، على أنهما أدركا بعد برهة مصدر الصوت فغرقت في ضحك عميقٍ مدوٍّ! وشبكت أصابعها الصغيرة الدافئة في راحة جدها الهائلة وسألته في براءة:

ـ أخفتك جدي؟

وما أن رأى «ولايتي علي» ذاك الجسد الممتلئ الصّغير يهتز ضاحكاً منه حتى تلاشى كل ما كان بقلبه من غيظ وغضب:

ـ أيتها الشقية الصغيرة! قال ضاحكاً قبل أن يقرص أذنها مداعباً: ـ تحاولين إخافة جدِّك هاه؟!

وضحك «أحمد» كذلك.. قهقه عالياً.. لا لمزاح والده الطفولي وإنما لإحساسه بأن ابنته قد استطاعت أن تستلّ سخيمة أبيه وانتشت «نازو» برحيق الانتصار فدست يدها الأخرى في يد والدها وهي تقفز بينهما في سعادة في الطريق إلى المنزل.

عندما وصلوا كان القلق قد بلغ بجدتها كل مبلغ:

ـ أين كنت أيتها الشقية؟

وجدت جدتها منفذاً لكل مخاوفها وغضبها عبر الجسد الصغير القابع أمامها وشعرت «نازو» بالذل والانكسار فحلت أصابعها من يدي أبيها وجدِّها وتمنت لو أن جدَّها انبرى للدفاع عنها.. على أن شيئاً من هذا لم يحدث ما أسرع مانسي الشيخ وجودها!

ـ أما عاد ذاك الوغد الشقي بعد؟ سأل «ولايت علي» بعله في غضب!.

ـ «عليّاً» تقصد؟ سألته بدورها في تجاهل.

ـ ومن سواه يجرؤ على تشويه اسم عائلتنا العريق، من سوى طفلك المدلل! من سواه يجرؤ على عزف الناي أمام المساجد غير عابئ بقدسية المكان والزمان؟

واحمر وجهه ثانية فسرت في العائلة نظرات قلق متبادلة فيما زمجرت السماء منذرة بهبوب عاصفة استوائية أخرى!.

ـ لو لم يكن ابناً لي لأشبعته ضرباً! ـ وتزايد غضبه فتزامن مع غضب السماء ـ تكثرين تدليله... تكثرين تدليله حتى أفسدته.. لقد تساهلت معه في السابق كثيراً.. والله!.. لن يفلت من عقابي هذه المرة. سأضربه حتى يسودّ جلده ويصرخ طالباً الرحمة التي لن ينالها حتى يقسم يميناً مغلظة... أمامي بأنه سيترك ذاك الناي الخبيث... أين هو ـ حوّل دفة الحديث فجأة في شك ـ أتخبئينه عني؟ هل...؟.

ـ لم يعد بعد! ـ قالت زوجته مهدئة ـ أنسيت أنه ذهب إلى المدينة لاستطلاع نتائج القبول!.

ـ لقد عاد بالتأكيد! ألم يجرح عزفه مسامعنا إبان أداء الفريضة في تحدٍّ واضح؟.

ـ ربما.. ربما كان يعزف الناي أثناء عودته من المحطة دون أن يدرك تزامن ذلك مع وقت الصلاة ـ إنه لم يعد بعد.. ردت زوجته في محاولات مخلصة لتهدئته.

على أن «ولايتي علي» كان يذكي نار الغضب أكثر فأكثر:

ـ سأخبرك لِمَ لمْ يعدْ.. لأنه رسب في الامتحان.. هذا هو السبب... ذاك الشرير... حالما يصل سوف.. وغادرت الصغيرة «نازو» المكان وقد غارت سعادتها وأحسّت بقلبها الصغير يهوي إلى أعماقها.. لم تتناول الطعام مع أعمامها بل اتجهت إلى فراشها محاولة أن تنسى أو تتناسى أن عمها المفضل سيواجه تلك الليلة كثيراً من الجَلْدِ المؤلم وموقِّعُ العقاب؟... فكرت في أسى هو جدُّها.. ذاك الحنون الرقيق الذي استحال في أحلامها وحشاً ضارياً.

لاريب أن شرانق الصباح قد تفتحت فقد صاحت الدِّيَكَة، واستيقظت «نازو» على أصوات غريبة.. لكن غرفتها كانت لما تزل غارقةً في ظلام دامس رغم أن الغناء الخارجي كان يضج بقناديل العاصفة تتأرجح في الأيادي ما الذي يحدث؟ تساءلت «نازو» وهي تتأمل الجمع! ثمة جمع كثيف احتشد في الساحة... كانوا. يتحدثون بقلق واهتمام.. ولمحت تعابير الفزع على ملامح أبيها وجدّها.

كان المطر قد توقف عن الهطول للتو.. فيما إسّاقطت بقيةٌ من قطرات.. منزلقة عبر حواف الأسقف.. وانثالت عبر المزاريب بحار من ماء فقد كان المطر غزيراً. ولاحظت «نازو» بأن أحداً لم يهتم بما أحدثه المطر في الملابس من أثر.. ثمة أمر غاية في الأهمية إذاً حدث فأحال مسألةَ ابتلال الملابس أمراً غير ذي بال؟ ما الخطب ياترى؟ تساءلت في براءة.

ـ لا أثر له البتة! سمعت جدتها تصرخ في ألم..صوتها كان غير صوتِها! لقد بحثنا عنه في كل مكان... حتى سطح المنزل.. حرثناه فما عثرنا له على أثر!

ـ إنه هو.. أقول لكم... هو بعينه. قفز إلى أذني «نازو» صوت حلاّق القرية.

ـ هيا إذاً! صاح أبوها بنفاد صبر ـ لا تضع الوقت هيا بنا جميعاً. وشرع في الانحدار صوب الحقول سريعاً فيما تبعه الموكب... والأقدام تغوص في الوحل بين الفينة.. والأخرى... بينما تأرجحت قناديل العاصفة في أيديهم جيئة وذهاباً ناشرةً عبر خطوط الليل دوائر مرعبة راعشة كوهج الحمىّ.

ولاحظت «نازو» بأن جدَّها كان يمشي بخطى متثاقلة وأنفاسه الثقيلة تنبئ عن حزن عميق، على أنه بدا جليًّا أنه كان يبذل قصارى جهده لمواكبة الجمع الزاحف، الأصغر سنًّا. وغافلت نساءَ المنزل فلحقت بجدِّها لما أحسّت بأنها بمأمن من نظراتهن.

ورغم أنها كانت تخشى أن يؤنبها جدها على تركها المنزل إلا أنها تذرعت بالشجاعة ودست أصابعها في كفّه، لقد أرّقها ما أبصرت في عينيه من ألم... أما هو فإنه ما أن شعر بكفها في يده حتى غشيته نشوة... نفخت في روحه شيئاً من العزاء... وأطبق على كفها بحميمية وحب.

ونقت ضفادع في الجوار، فيما شرعت كائناتُ الليل الصغيرة في عزف أعذبِ سيمفونياتها.. بينما كان الموكب يشقّ الطريق الموحل الضيق وظلوا يغذون السير وكأن على رؤوسهم الطير إلى أن أدركت «نازو» بأنهم كانوا يقصدون الشجرة المفضلة «لعليّ»! تلك التي طالما افترش ظلها ليرسل أنغام نايه الرقيقة... والتي علّمها تحتها كيف تعزف تلك المقطوعة السهلة.

وفجأة انطلق حلاق القرية الذي كان يسير خلف والدها.. انطلق كالملدوغ فأمسك بذراع والدها صائحاً ـ هناك. وأشار إلى شجرة عالية ورفع قنديله صوب الشجرة: انظر. صرخ بانفعال، وواحداً إثر آخر شرع الرجال في رفع قناديلهم صوب الشجرة التي أبصرت «نازو» في أعلاها ـ على ضوء القناديل ـ جسماً مألوفاً حبيباً.. قريباً لفؤادها.. وقد تدلى بصورة غريبة من أحد فروعها!

ـ تمعَّن في الوجه ـ صاح الحلاق بإلحاح رافعاً قنديله ـ أما قلت لكم بأنه «عليّ»؟ أما قلت لكم؟! هذا... هذا... نا..

ـ اصمت!.. صه أيها الأحمق! ـ صاح به ممسكاً بكتفيه ـ واستدار الحلاق في نفاذ صبر إلا أن التعابير التي أضاء بها وجه أحمد كانت كافيةً لإسكاته فما كان منه إلا أن أنزل المصباح في خجل.

على أن الجميع كانوا قد تحققوا من هوية الجسد المتدلي.

ونحّى «ولايت علي» «نازو» بشدة قبل أن ينطلق صوب الشجرة، وفي خضم ذلك زلت قدمه فوقع في الوحل.. وعندما استقام واقفاً ثانية كانت ملابسه البراقة دوماً قد تشربت الطين، أما ذقنه البيضاء فقد لوّثها الوحل كذلك:

ـ إنه ابني! ـ صاح بلوعة ـ إنه «علّي» ابني أنزلوه... أنزلوه! وانخرط في بكاءٍ عميق كطفل فقد أمه.

وحوّل الرجال أنظارهم عنه فيما أمسك بعضهم بمنكبيه يواسونه، وتسلّق الحلاق الشجرة فقطع بسكينه الحادة حبل الجسد المعلق، وما أن هوى حتى تلقفته يدا أبيه القويتان لكنه هوى على الأرض رغم ذلك وتدحرج خلسةً ناي انطلق من إحدى يديه.

وتحلق الجميع حول طبيب القرية في قلق.. لكنه هز رأسه في يأس بعيد المعاينة فارتفع نشيج «ولايتي علي» مجدّداً، مقطعاً نياط القلوب حتى فاضت الأعين بالدمع ـ وانحنت «نازو» فالتقطت الناي قبل أن تمسحه بطرف جلبابها. ورآها أبوها لكنه لم يغضب.. بل إن عينيه امتلأتا راحةً واطمئناناً ـ

ـ اذهبي إلى جدك! همس لها قبل أن يلتفت إلى الجمع مصدراً تعليماته.. ثم انحنى واثنان من الرجال على الجسد الجاثم على الأرض فحملوه وساروا تنير لهم الدرب عشرات القناديل. وبدأ الموكب رحلة العودة إلى القرية.

اثنان من صحب «ولايت علي» كانا يسندانه.. فقد كان في حالة يرثى لها من الضعف والوهن.. أمضّه الحزن وجرّحه الأسى والأسف وتدلت يداه فكأنما كان ينوء بحمل جسيم أثقل كاهله.

وتأملته «نازو» مليّاً.. كان منظره والدموع من عينيه.. وبقايا من وحل يلطخ لحيته الكثيفة.. يمزّق نياط القلوب... ولم تحتمل الصغيرة كل ذلك... أحست بالألم يعصر فؤادها حتى خشيت أن يتوقف عن الخفقان... أن ينفجر فيتبدد حطاماً يملأ المكان.. لطالما حدثها «عليّ» أقرب أعمامها إلى قلبها عن تلك القلوب التي تمتلئ هماً وكدراً فتنكسر إلى آلاف الشظايا.. وطلبت البكاء فلم يسعفها! رامته فما وافاها.. ودسّت يدها الدافئة دوماً والتي استحالت راهناً قطعةً من الثلج.. دستها في يد جدها محاولةً أن تخفف عنه.. وسارا سوياً.. وطيلة الوقت كانت عيناها.. المتسعتان، الممتلئتان رعباً من هول مارأت.. تحدقان في الجسد الناحل.. المحمول أمامها... وفيما كان الركب يسير.. كان الجميع يتحدثون بهمس مخافة أن يصل مايقولون إلى أسماع «ولايتي علي».. لكن حديثهم لم يفت سمع «نازو» المرهف الغض:

ـ كان فتى طيبا! قال أحدهم.

ـ أذكى من أنجبت القرية ـ قال مدير المدرسة بحزن جمّ ـ كنت أعلق عليه آمالاً كبيرة.

ـ لكنه رسب ـ سأله أحدهم ـ ألم يكن ذلك سبب انتحاره؟ كان أحمد يرتدي جلباب الصمت.. ظل يقرض شفته السفلى حتى لا تفر من مآقيه الدموع... وتابع المدير وقد تملكته سورة غضب:

ـ «عليّ» يرسب؟ أما قلت أنه أنجب أبناء القرية! لقد ذهبت اليوم معه إلى المدينة لاستطلاع نتائج القبول.. أتعلمون؟ ورفع قنديله لاستطلاع ملامح الجمع أمامه. لقد كان الأول على قائمة المرشحين الناجحين.

ـ فلم إذاً فعل فعلته؟ لم... لم؟

تساءل الجميع في دهشة وذهول مسترقين النظر إلى أخيه أحمد وقد زم في ألم شفتيه، وإلى أبيه «ولايت علي» وهو لما يزل يسكب مُرَّ الدموع!

وكأنما نمت للسؤال أجنحة فإذا هو يحلق فوق رؤوسهم.. وبدا وكأنما كان ينفث سحراً حتى أن وقع خطاهم فوق الأرض الموحلة واهتزاز القناديل جيئةً وذهاباً كان كسؤال يتردد في إلحاح: لِمَ... لِمَ؟!!

وتسربت أنباء الفجيعة.. فاصطف الفلاحون يرمقون الموكب المتهادي بالجثة المغطاة بدثار من الصوف محليّ الصنع جلبه الحلاق معه.. وما أن حاذوا بركة القرية حتى شعّ الفضاء بعبق إلهي.. تردد صوت الأذان عذبا رخيماً ربانياً.. ينير ظلام الدجى.. وتوقفت دموع «ولايتي علي» فلم تعد عيناه تهملان.. ورفع رأسه المنهك الحزين إلى السماء، فقال في خشوع: ـ «إنا لله وإنا إليه راجعون» وردد الجميع ما قال... وهم يسيرون الهوينى باتجاه المنزل. حيث النساء الباكيات الثكالى.

وبخفة.. حرّرت «نازو» يدها من كف جدِّها وانطلقت عائدةً في الاتجاه المعاكس.. وظلت تعدو بخفة... غير عائبةٍ بالوحل وحفر الماء الصغيرة تتزلق فيها قدماها الحافيتين بين الفينة والفينة.. كانت تعدو وصوت الأذان العذب لمايزل يعبق فيحي موات الأمل ويسكب في الدجى أبهى الضياء.. ووصلت مع انتهاء الأذان إلى الشجرة التي قضى عمها نحبه فوقها.. كانت تلهث بشدة فجلست لتلتفظ أنفاسها وتطلعت نحو السماء.. كانت الشمس تفْلقُ الأرضَ بازغةً وظلال الفجر الوردية تضرج خد السماء فتبتسم في خفر، وكان الألم في فؤادها لما يزل يمور ويمور.. ألم ممضّ لا يطاق.. أحست به يكوي أضلعها وخشيت على قلبها أن يتصدع.. لكنها طمأنت في براءةٍ ذاتها:

ـ لم ينفلق في ذروة الصراع راهناً... لاخوف من ذلك الآن! ومدت يدها فنخَّت خصلات شعرها الرطبة عن وجهها ثم... أنعمت النظر في ناي «عليّ» ومدت يدها فأعادت مسحه بذيل فستانها ثانية حتى زال كل أثر للوحل عنه.. وفي خضم ذلك.. انطلقت الدموع من عينيها.. أخيراً.. دموع هادئة ساكنة.. لم تكن غزيرة جارفة.. بل انسابت في صمت ورقة.. وسقطت إحداها على الناي.. ومع انبثاق الدموع.. استشعرت: «نازو» راحة وطمأنينة.. ياللدموع كم تريح.. هي بلسم رباني لا يضاهى ـ ناجت نفسها.

وبحذر.. امتدت يدها الصغيرة فمسحت تلك الدمعة الكبيرة التي تسللت خلسة فتدحرجت على قصبة الناي وقربته من فمها فقبّلته في رقة:

سأتعلم العزف عليه بذات الروعة التي كنت تعزف بها ـ ناجت في هدوء عمها العزيز الراحل.. وسأظل أدعو لك بالمغفرة والرحمة.

ولن أنسى أبداً.. أن صوت الحق تردده الآفاق.. هو أقوى من كل صوت.. وأن قدسية الأذان لا يعلى عليها!

وأدنت «الناي» فوضعته على شفتيها وشرعت تنفخ فيه برقة متناهية... خشية أن تجرح مشاعر جدها!.

الــرهـان

للكاتب الروسي: أنطون تشيكوف «١٨٦٠ـ١٩٠٤»

كانت ليلةَ خريفٍ ليلاءْ. شرع المصرفي العجوز يذرع غرفة مكتبه جيئةً وذهاباً مستعيداً في خياله رجع ذكرى لحفلة أقامها ذات ليلة خريفية منذ خمس عشرة سنة مضت وتولت. يومها كان المكان يعجُّ بجمع غفير من العلماء والباحثين والمثقفين ودار الحديث الماتع ـ فيما دار آنذك حول عقوبة الإعدام فانقسم المدعوون بين معارض ومؤيد وتمنى نفر منهم إبدالها بعقوبة السجن المؤبد:

ـ لا أستطيع أن أوافقكم الرأي في ذلك ـ قال المضيف لم يحكم علي من قبل ـ ولله الحمد ـ على أني لو خيرت بينهما لاخترت عقوبة الإعدام فهي أجدى وأرحم. إن الإعدام يستلّ روحك فوراً، أما السجن المؤبد فيمتص منك رحيق الحياة شيئاً فشيئاً.

ـ كلتاهما تخدمان الغرض ذاته! إلحاقك بأصحاب القبور.

قال أحدهم.

ومن بين المدعوين كان محام شاب لما يتجاوز أسوار الخامسة والعشرين بعد... طلب منه أن يدلي بدلوه فقال:

كلتا العقوبتين في القسوة سواء على أني لو خُيِّرت بينهما لاخترت السجن المؤبد دون تردد... أعتقد أن التعلق بأهداب الحياة هو خير من ظلام اللحود.

ودار ـ على إثر ذلك ـ جدل عميق فقد المصرفي ـ الذي كان آنذاك أنضر شباباً وأكثر تحمساً وميلا إلى الغضب ـ أعصابه على إثره فضرب المنضدة بقبضته بشدة و التفت إلى المحامي الشاب مغضباً قبل أن يصيح به:

ـ هراء و كذب أراهنك ـ بمليوني «روبل» أنك لن تستطيع البقاء في زنزانة حتى ولو لخمس سنوات!

ـ إن كنت تعني ما تقول حقاً فأراهن أن باستطاعتي البقاء لا لخمس سنوات وإنما لخمس عشرة سنة.

ـ خمسة عشر عاماً! قبلت أشهدكم على ذلك يا سادة مليونان عداً و نقداً و أيم الله.

ـ اتفقنا إذاً تراهن بمالك و أراهن بدوري بحريتي!

قال المحامي مبادلاً إياه تحدياً بتحدٍ. وهكذا أبرم ذاك الرهان السخيف... الطائش.. المسعور!

وطرب ليلتها ذلك المصرفي فقد كانت دماؤه تمور بطيش الشباب و هوس التحدي فيما كانت ملايينه لا تعدُّ و لا تحصى

وقال في تهكم:

ـ عد إلى صوابك وثب إلى رشدك قبل فوات الأوان أيها الشاب! إن فقدان مليوني «روبل» سوف لن يضيرني شيئاً أما أنت فستهدر من عمرك ثلاثة أعوام أو أربعة هي أجمل سني حياتك... وأقول ثلاثة أو أربعة لأني على يقين من أنك لن تصمد أكثر من ذلك.... ثم.... ثم تذكر أن السجن التطوعي هو أشد من الإلزامي و أنكى.... أيها الشقي التعيس... إن التفكير في كونك قادراً على مغادرة السجن أنى شئت سيظل هاجساً يطاردك ليل نهار ليسمم حياتك فلا يقر لك تباعاً أي قرار.

تذكر المصرفي العجوز كل ذلك وهو يذرع الغرفة جيئة و ذهاباً فسأل في مرارة نفسه:

ـ أي فائدة تجني من إبرام ذلك الرهان يا ترى؟ يفقد المحامي من عمره خمسة عشر عاماً فيما ينقص من مالي مليونان هل سيقتنع الناس جراء ذلك بجدوى الإعدام؟ وبأنه خير أو شر من عقوبة السجن المؤبد.... كلا... محض هراء ذلك الأمر برمته.... كان ذلك غروراً و كبرياء مني وعشقاً للأصفر الرنان من طرف المحامي!

وطفق المصرفي يجتر الذكريات... مستعيداً ما حدث بعد انتهاء تلك الحفلة المشؤومة فقد تقرر سجن المحامي في حديقة أحد أجنحة قصر المصرفي وفي ظل حراسة مشددة تحت سمع المصرفي ذاته وبصره، كما نص الاتفاق على أن يمنع السجين إبّان ذلك من تجاوز أعتاب المنزل أو رؤية الناس ناهيك عن سماع أصواتهم، كما حرَّم عليه تلقي الصحف والرسائل، وأما ماُ رخّص له به فحيازة أية آلة موسيقية وكذا كتابة الرسائل وتأليف الكتب وأخيراً وليس آخراً فقد أُجيزتْ له المشروبات والتبغ بأنواعه! وأتاحت له تلك الاتفاقية الاتصال الصامت بالعالم الخارجي عبر نافذة صغيرة صُمِّمت خصيصاً لذلك وكان بإمكانه الحصول على كل ما يطلبه ـ ضمن دائرة المسموحات ـ متى أراد وذلك بإرفاق طلب خطي صغير بذلك عبر النافذة.

كانت الاتفاقية المبرمة قد راعت كل صغيرة وكبيرة حتى صيرت من سجنه حبساً انفرادياً بحتاً لمدة خمس عشرة سنه يبدأ من الساعة الثانية عشر ليوم الرابع من شهر نوفمبر عام سبعين وثمانمائة وألف «١٨٧٠» وينتهي الساعة الثانية عشرة من شهر نوفمبر لعام خمسة وثمانين وثمانمائة وألف «١٨٨٥». ونصت الاتفاقية على أن أية محاولة لمخالفة ذلك حتى وإن تمثلت في هروب السجين قبل الموعد المضروب بدقيقتين... ستجعل المصرفي في حلٍّ من دفع المبلغ المتفق عليه.

خلال سنته الأولى في السجن عانى المحامي كثيراً من مآسي الوحدة والملل، بدا ذلك جليّاً عبر ما كان يدونه من مذكرات. وكان صوت البيانو ينساب في هدوء من جناحه ليل نهار. ورفض استقبال التبغ والشراب إذ إن الأخير كما كتب يثير الرغبات... عدو السجين الأكبر. أما التبغ فقد كان دخانه يلوث أجواء

الغرفة. واستمر وصول الكتب ذات الطابع الخفيف إليه... روايات غرامية وقصص حربية وأخرى كوميدية. في السنة ذات الثانية توقف البيانو فلم يعد يُسمع واكتفى السجين بقراءة روائع الأدب العالمي أما في السنة الخامسة فتسلَّل صوت البيانو إلى الأسماع مجدداً وطلبَ السجين بعض المشروبات وقال عنه من راقبه عن كثب بأنه قد أمضى معظم ذلك العام في تناول الطعام والشراب وفي الاسترخاء على أريكته... وما أكثر ما تثاءب وتحدث بغضب إلى نفسه وكان يستيقظ في بعض الأحيان ليلاً فيكتب ويكتب ثم هو يستيقظ في الصباح فيمزّق ما دوّن... وكان يُسمعُ في بعض الأوقات... منتحباً! في النصف الآخر من السنة السادسة، عكف السجين على دراسة اللغات والفلسفة والتاريخ بحماس إلى حدٍّ استعصى معه على المصرفي تزويده بما يطلبه من كتب حول ذلك... وفي بحر أربع سنوات تم ـ بناءً على طلبه ـ شراء ما يقرب من ستمائة مجلد له وفي خضم ذلك الشغف بعث بخطاب إلى المصرفي جاء فيه:

سجاني العزيز:

تصلك أسطري هذه بلغات ست. وإني لآمل أن تعرضها على ذوي الاختصاص من الخبراء فإن أجمعوا على خلوها من أي خطأ. فإني آمل أن تأمر بإطلاق رصاصة أستدل بها على صحة توجهي و بأن جهودي لم تذهب أدراج الرياح. لقد تحدث عباقرة الكون بألسنة شتى لكن اللهب ذاته كان يتأجج في ذواتهم طرّاً. ليتك سيدي تدرك أي سعادة جمة تحتويني بعد أن صار بإمكاني معرفة ما يقولون وفهم ما يكتبون!

وكان للسجين ما أراد. رددت جنبات الحديقة صدى مدوياً لعيارين ناريين أطلقا إنفاذا لتوجيهات المصرفي!

بعد السنة العاشرة عكف السجين على قراءة الكتب الدينية وتاريخ الأديان أما في العامين الأخيرين له في السجن فقد انكب على قراءة كمٍّ هائل من الكتب في شتى فنون المعرفة... شد ما شغف بالعلوم الطبيعية يبحر في خضمها الساحر ثم يعرج على روائع «بايرون» و«شكسبير» وكثيراً ما بعث بطلب خطي

لتزويده بكتب الكيمياء والطب والفلسفة وكان أمره في القراءة عجيباً إذ إن الكتب بالنسبة له شادت قطع الخشب المتناثرة على صفحة اليمّ يهرع إليها الغريق في لهفة من يأمل في النجاة من ذلك البحر اللجي، فيجمعها قطعة قطعة واللهاث يمزق رئتيه.

استعاد المصرفي كل تلك الجزيئات في ذاكرته وفكر:

ـ غداً في الساعة الثانية عشرة سيغادر سجنه وسيكون لزاماً علي أن أفي بعهدي فأدفع له المليونين عندها سأهوي إلى قرار الإفلاس!

وغشت سحابة من الهم والكدر محياه إذ تذكر أنه كان يعد ملايينه فيما مضى من سنيّ عمره أما في حاضره ذاك فقد كان يتساءل بحسرة عما إذا كان عد ديونه قد فاق حساب رصيده!

أضاع القمار والتهور وقاعات البورصة ما جمعه مستدرجاً إياه إلى الخراب والدمار ليحوله بذلك من ثري فخور واثق الخطوة، غير هياب ولا وجل إلى مصرفي عادي يرتعد فرقا لدى كل انخفاض في السوق أو ارتفاع.

ـ «ذلك الرهان المشؤوم»!..... تمتم العجوز ممسكاً برأسه في يأس وألم! ـ لماذا لم يمت ذلك الرجل؟ ما جاوز الأربعين.... لقد بلغ أشده و سيضع يده على كل ما أملك فيتزوج ويضارب بمالي في ردهات البورصة أما أنا فسأظل أرنو إليه في حسد ولهفة متسول مسكين ولسوف تطرق مسمعي ذات الكلمات كل يوم: «أنا مدين لك بما اجتمع لي من ثروة وسعادة دعني أنفحك شيئا!» كلا هذا لا يطاق! ـ قال المصرفي في كمد ـ لن ينقذني من ظلمة الفقر والعار إلا موت السجين!

كان الجميع نياماً عندما دقت الساعة معلنة الثالثة.... وأصاخ المصرفي السمع فما تسلل إلى أذنيه سوى ذلك النحيب المؤلم لأشجار الخريف وقد جمدها الصقيع فهي تئن كلما داعب النسيم مكامن الشجن في أوتارها، عندها هبَّ واقفاً ثم تسلل إلى خزينته فأخرج منها مفتاح السجن الذي ما مسته يد منذ خمسة عشر عاماً ثم ارتدى معطفه وخرج.

كانت الحديقة باردة مظلمة والمطر ينهمر بشدة فيما هبت موجة أقضّت مضاجع الأشجار مجدداً..... وفرك المصرفي عينيه فما تبين في خضم الحلكة شيئاً و لما حاذى جناح السجين هتف باسم الحارس مرتين و لما لم يجب أدرك أنه قد وجد في المطبخ أو الحديقة المغطاة ملجأ من الماء المنهمر.

ـ لو واتتني القدرة على تنفيذ مخططي لاتجهت أصابع الاتهام إلى الحارس دون شك.

وتلمس المصرفي العجوز طريقه في خضم بحر الظلمات حتى ارتقى درجات العتبة المفضية إلى جناح السجين ثم وصل إلى ممر ضيق فأشعل عود ثقاب وألقى على غرفة الحارس نظرة فإذا هي خالية إلا من سرير و موقد... أما الأخَتام الموضوعة على مدخل باب السجين فكانت كما هي منذ وضعت. وعندما خبا وَهجُ عود الثقاب هز الانفعال جسد المصرفي وهو يسترق النظر عبر نافذة السجين الصغيرة .

في غرفة المحامي كانت ثمة شمعة واهنة تحترق ببطء وكان هو جالساً وظهره إلى مسترق النظر. ما بدا منه سوى شعر رأسه ويديه، وعلى المنضدة والكراسي والسجادة انتشرت كتب مقلوبة كثيرة خمس دقائق مرت دون أن يبدي السجين حراكاً! علمته سنوات السجن الطويلة أن يجلس كالتمثال دون حراك. وطرق المصرفي النافذة بإصبعه فلم يحرك السجين ساكناً، عندها فضَّ الأول أختام الباب قبل أن يدير المفتاح في القفل وأحدث القفل الصدئ صرصرة مزعجة ثم سمع صرير الباب وهو يفتح!.. و توقع المصرفي أن يهب السجين من مكانه لفرط المفاجأة... فيصرخ في ذهول لكن دقائق ثلاث مرت دون أن يطرأ على السكون الموغل في تجاويف الغرفة أي تغيير فعقد العزم على الدخول.

أمام المنضدة جلس رجل غريب الهيئة فكأنما ودع منذ أزل عالم البشر كان هيكلاً عظمياً رق جلده حتى شفّ عما تحته أو كاد و كان له شعر طويل أجعد كشعر النساء ولحية مغبرة شعثاء. أما لون وجهه فحاكى صفار التربة فيما غار

خداه. وتأمل ظهره فهاله ما بدا عليه من طول ونحول وتلك اليد التي أسند عليها رأساً مشعراً.. لكم كانت تبعث على البكاء! كان مجرد النظر إليها يحرك في الذات أقسى مشاعر الشفقة والألم.. ووخط الشيب هامته: تسللت خيوط الكفن البيضاء حتى كللت معظمه حتى لم يعد يصدق من يراه أن ذلك الشبح الواهن لما يزل في بحر الأربعين. وتحت اليد المثنية على المنضدة كانت هناك ورقة دُوِّن بها شيء ما.

ـ يا للشرير التعس! إنه الآن يحلّق مع أطياف الكرى حالماً بما سيصنعه فور تلقيه المبلغ المتفق عليه.... ليس لي الآن سوى حمل هذا الجسد شبه الميت لألقي به فوق سريره قبل أن أطبق عليه بيدي ولن تظهر أدق التحقيقات أي أثر لوفاة غير طبيعية ولكن دعني قبل هذا أقرأ ما كتبه هنا!

ورفع الورقة فقرأ التالي:

«غداً.. وفي منتصف الليل تحديداً سأسترد حريتي فأستعيد بذلك نعمة الاختلاط بالناس على أني أرى لزاماً علي ـ قبل أن أغادر غرفتي هذه فأبصر ضياء الشمس ـ أن أخبرك بشيء».

أعلن وأنا بكامل قواي العقلية وبضمير واع مرتاح ـ تحت رقابة من لا تنام عينه جل وعلا ـ بأنني أمقت الحياة والحرية والصحة وكل ما تنعته كتبك قاطبة... بنعيم الوجود!

لقد دأبت ولخمس عشرة سنة خلت على دراسة حياة الإنسان على هذه الأرض.. صحيح أني ما رأيت أرضاً ولا بشراً..

لكني.. في كتبك أبحرت إلى عوالم من خيال.. أثملني فيها رحيق الزهور وشدو الطيور... ردَّدتْ روحي أعذب الأنغام وتوغَّلت في مجاهل الغابات فاصطدت الظباء والغزلان البرية ورأيت النساء نساء فاتنات كسحب الأثير أبدعتها قرائح عباقرة الشعراء... فتيات كن إذا أويت إلى فراشي يزرنني فيسكبن في مسمعي أروع الحكايا فأنتشي لوقعها و يثمل فؤادي للحظات عفيفات.

عبر كتبك ـ سيدي ـ امتطيت قمم الجبال الشاهقة لـ«البروز» و«مونت بلانك» و اكتحلت عيناي في ذراها بمرأى الشمس يتفتق عنها صدر الأرض هناك في آخر العالم فتسكب إبان غروبها صبابة الذهب تطلي بها السماء والمحيط ورؤوس الجبال سمعت هناك في الأعالي دوي الرعد و رأيت ومض البرق يقدّ فؤاد الغيوم كسيف عنترة بن شداد، رأيت غابات خضر وبيادر وحقولاً وجداول وأنهاراً ومدناً... ومست يداي أطراف أجنحة النوارس المبحرة في خضم السماء. في كتبك ـ سيدي ـ سبرت غور بحار لجِّيَّة... صنعت المعجزات أحرقت مدناً عن بكرة أبيها و حررت أقطاراً !.

لقد منحتني كتبك الحكمة كل الحكمة.... إن عبقرية الإنسان وحصاد فكره الفذّ قد اختزل الآن في جمجمتي. وأنا على يقين الآن بأني أفوقكم طرًّا علماً وثقافة وذكاء وحكمة.

على أني الآن أحتقر كل كتبك.أمقت النعيم الدنيوي وحكمة الإنسان فقد أدركت أن كل شيء ما خلا الله زائل باطل.... وأن كل مابنا من نِعَم وما لدينا من متع ما هو إلا سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً... أيقنت ـ سيدي ـ بأنك مهما كنت جميلاً غنياً حكيماً فإن يد الموت لاشك ستمتد إليك لتمحوك عن وجه البسيطة فتتساوى بذلك مع الجرذان النافقة تحت الأرض... عندها لن ينفعك مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

تعساً لكم يا بني آدم... تحسبون الزيف حقيقة وتخالون القبح جمالاً و... تستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

كم أحتقر ما تمجّدون وخير دليل على ذلك هو أني سأتنازل طائعاً مختاراً عن مبلغ الرهان المتفق عليه... ذاك الذي طالما حلمت بأنه المفتاح إلى عوالم السعادة والنعيم... ذاك الذي أمقته الآن فهو لا يساوي في نظري شيئاً... أجل سأحرم نفسي من حق الحصول عليه إذ إني سأغادر هذا المكان قبيل الموعد المضروب بخمس دقائق فأكون بذلك قد خالفت بنود الاتفاقية ويصبح المصرفي في حلٍّ ساعتها من دفع المبلغ المتفق عليه لي.

عندما أنهى المصرفي قراءة ذلك وضع الورقة بهدوء على المنضدة ثم، انحنى فقبَّل في حنان رأس الرجل الغريب وانخرط في بكاء عميق قبل أن يغادر الجناح.

مـــا أحس في أي وقت مـــضى بازدراء ذاتي كـــذلك الذي أحس به آنذاك مطلقاً... حتى يوم مُنِيَ بخسارة فادحة في سوق البورصة... وما أن دخل بيته حتى استلقى على سريره لكن العذاب والدموع والألم لم يسلمه للنوم إلا بعد مضي وقت طويل.

في صبيحة اليوم التالي جاءه الحارس المسكين يعدو وأخبره بأنهم قد بصروا السجين يتسلل من النافذة إلى الحديقة التي لفظته بعد أن عبر بوابتها.

وهرع المصرفي من فوره مع حارسه إلى غرفة السجين فكتب تقريراً بذلك ولتلافي ما قد ينتشر من إشاعات أخذ ورقة التنازل الخطي للسجين من على المنضدة وإبان عودته أقفل عليها باب خزانته.

بسالة الطبيب أو «الغاية تبرر الوسيلة»

للكاتب الفرنسي: فيلي دي ليسل آدم

«القتل من أجل المداواة» «الشعار الرسمي لإحدى المستشفيات»

توشك إحدى المحاكم في لندن على النظر في قضية غاية في الغرابة بطلها طبيب يدعى «هاليندهل» أما حقيقة الأمر فهي على النحو التالي:

في العشرين من شهر مايو الماضي كانت غرفتا الانتظار بعيادة الطبيب الشهير تغصان بالمرضى الذين أمسك كل منهم بتذكرة الدخول بيده.

وفي مدخل العيادة وقف المحاسب مرتدياً معطفاً صوفيا طويلاً.. وشرع يتلقى رسوم العلاج المقررة على كل مراجع! جنيهان يدق عليهما ـ بخفةٍ ـ بمطرقة للتأكد منهما قبل أن تنفرج شفتاه عن تلك العبارة الروتينية «لا بأس».

وفي المكتب الزجاجي الأنيق الذي توشّيه شجيرات كثيرة غرست في أحد الأحواض اليابانية الكبيرة جلس الطبيب الصارم! ملامحه الحادة ما كانت لتتلائم مع ضآلة حجمه وصغر جسمه . أما سكرتيره فجلس غير بعيد عنه يدوِّن وصفات طبية موجزة، فيما وقف إلى جوار الأبواب المتحركة الموشحة بقطيفة حمراء ثبتت بمسامير لها رؤوس ذهبية حاجب عملاق كلف بحمل تلك الأجساد المصدورة إلى صالة الانتظار ثانيةً حالما يلفظها المصعد الفخم فور سماع العبارة المألوفة: ـ المريض التالي ـ!

يلج المرضى البؤساء بنواظر تبعث على الأسى... عيون ندية من أثر الدمع، زجاجية جوفاء لخواء أفئدتهم من عذب الأمل وقد تحلّلوا من ملابسهم العلوية حتى الخصر وألقوا بها على أذرعهم فيتلقون فور دخولهم العيادة فحصاً روتينياً للصدر والظهر، يطرق الطبيب على صدورهم ثم يطلب منهم القيام بعملية شهيق وزفير، يتبع ذلك وصفة سريعة ثم تلك العبارة المعتادة: المريض التالي.

ذلك كان دأبه... وعلى امتداد سنوات ثلاث من التاسعة صباحاً وحتى الثانية عشرة.. وفود من المراجعين تترى... فتلقى ذات الإجراءات إلى أن يلفظها باب العيادة.

على أنه وفي هذا اليوم بالذات... في العشرين من شهر مايو ومع دقات التاسعة تماماً تسلل شبح هيكلي لعملاق عجيب الهيئة، ولج إلى العيادة بعيون زائغة، وخدود غائرة، ونظرات حائرة يائسة سملها القنوط فلا تبصران غير العدم... كان قفصه الصدري يعلو ويهبط تحت قرع سعال شديد يكاد يهشّم أضلاعه... وكان الناظر إليه يعجب من بقائه على قيد الحياة... لم يكن به من أثر لها غير نفس يتردد في اضطراب يمزقه لهاث وإعياء وسعال كسكرات الموت أو هو أشد وأعتى.

كان يحمل فوق ذراعه معطفاً من الفرو الثمين.... وبدا جليّاً أنه كان يقاوم خشية أن يغمى عليه.... فكان يتشبث بأغصان شجيرات الزينة حتى لا يقع، وألقى الطبيب عليه نظرة سريعة ثم شرع في تطبيق ذات الفحص المعتاد. وما إن انتهى حتى صعقه بتشخيصه المؤلم:

ـ ليس باستطاعتي مساعدتك البتة!

ثم استطرد في تذمر واضح: ـ من تحسبني؟ مسجل الوفيات؟... خلال أقل من أسبوع ستبصق آخر خلية في رئتك اليسرى... أما اليمنى فإنها مثقوبة كمنخل!

وكان الحاجب على وشك حمله إلى الخارج حينما ضرب الطبيب الجليل جبهته بكفه فجأة كمن تذكر شيئاً ابتسم في مكر قبل أن يسأله:

ـ أأنت غنيّ؟

ـ أنا مليونير.... بل إني أكثر من ذلك!

رد ذلك المدنف البائس اليائس الذي نفاه المعالج من عالم الأحياء في صلف إلى مجاهل الردى.

ـ حسن جداً إذاً ـ استأنف الطبيب ـ اذهب إلى محطة «فيكتوريا» على الفور ثم خذ قطار الحادية عشرة السريع من هناك إلى «دوفر» ومنها خذ سفينةً إلى «مارسيل».... واحجز غرفة مبيت مزودة بالبخار ثم اتجه إلى «نيس» وهناك حاول أن تعيش على البقلة المائية المعروفة بـ«قرة العين» لمدة ستة أشهر.... «قرة العين» ولا شيء سواها... لا تتناول خبزاً أو فاكهة... أو لحماً أيًّا كان نوعه. واحرص على تناول ملعقة من ماء المطر المعالج باليود كل يومين ولا تنس: «قرة العين» ثم «قرة العين» ولا شيء سوى «قرة العين»... مسحونه في عصارتها! ذلك هو آخر أمل لك... ومع ذلك فدعني أصارحك بأن هذه الوصفة قد بلغت علمي سماعاً فقط! ظلت تطرق أذني لفترة طويلة ومع ذلك فإني لا أصدق منها حرفاً وإنما اقترحت فكرتها عليك لأن حالتك ميؤوس منها... رغم تفاهتها فإني لا أرى ضيراً من تجربتها!... كل شيء في هذا الكون محتمل الحدوث: المريض التالي! ونقل هيكل العملاق المشلول إلى المصعد فيما استمر تواتر المرضى على مكتب الطبيب.

بعد ستة أشهر وفي الثالث من نوفمبر تحديداً.. ومع دقات التاسعة صباحاً... تماماً اهتزت الأرض تحت وقع عنيف لأقدام مارد عملاق صوته كان جهورياً مرعباً رغم نبرة المرح المخامر، صوت قوي مجلجل زلزل أغصان النباتات الاستوائية وجدران الزجاج المحيطة بمكتب الطبيب .

ولج ذلك العملاق كقنبلة بشرية، ينضح صحة وقوة وسعادة وحبوراً ـ تبدى ذلك عبر خديه المتوردين تخال الدم منهما يوشك أن ينثال واخترق طيفه الأنيق الرافل في فرو ثمين معشر المصدورين الراسغين في أغلال البأس والشك والإحباط في عيادة الطبيب «هاليندهل» واقتحم مكتبه دون تذكرة دخول! كان الطبيب على وشك الجلوس حينما صعقه ذلك الاقتحام غير المشروع! وسارع العملاق باحتضان الطبيب ثم أمطر وجنتيه الغائرتين بوابل من الدموع والقبلات... وعاد يقبله مجدداً... بصوت مسموع قبل أن يضعه في كرسيه.. في شبه حالة اختناق من هول المفاجأة وحرارة القبلات التي لم يجد لها تفسيراً.

ـ مليونا فرنك إن أردت! صاح العملاق! أو ثلاث! أنا مدين لك ـ بعد الله ـ في استعادة صحتي... في استرجاع المقدرة على العودة إلى ما كنت عليه من قوة ونضارة... في الاستمتاع بالشمس تسكب عقود تبر على أعتاب الوجود... في التقلب في أحضان العواطف المتأججة بجمال الحياة وعظمتها في ....في كل شيء دون حصر... اطلب أي شيء سمِّه وستجده أمامك!

ـ من هذا المعتوه؟ أخرجوه من هنا! قال الطبيب بضعف بعد ما استرد شيئا من أنفاسه.

ـ كلا لا تفعل! قال العملاق مخاطباً الحارس رامقاً إياه بنظرة جعلته يرتد في ذعر إلى الوراء كمن تلقى ضربة قاصمة!

ـ واقع الأمر هو أن الجميع بمن فيهم أنت ـ يا من أنقذت حياتي ـ تابع العملاق ـ لم يتمكنوا من معرفة من أكون! أنا رجل بقلة «قرة العين».

ذاك المصدور البائس اليائس الذي قصد عيادتك يوماً فأحلته إلى حمية «قرة العين» لستة أشهر أليس هذا بديعاً انظر إلى صنيعك. تأمل هذا! قال ذلك قبل أن يدقَّ على صدره بيديه بقبضتين هائلتين لو طرقتا جمجمة ثور لهشمتاها.

ـ ماذا؟ صرخ الطبيب وهو يهب واقفاً كمن لدغته أفعى... أنت... يا إلهي أنت ذاك المحتضر الذي قمت بـ....

ـ نعم... نعم وألف نعم... أنا هو بعينه ساعة وصولي ليلة البارحة أمرت بصنع تمثال من البرونز لك كما وإني سآمر بوضع آخر لك في ساحة «ويستمنستر» حينما يتوفاك الله.

قال ذلك قبل أن يلقى بنفسه على أريكة ضخمة اهتزت أركانها وأزّت تحت وقع ثقل جسده. وتابع المبِلُّ من دائه في ارتياح وسعادة تبلورت في ابتسامة مشرقة انفرجت عنها شفتاه:

ـ ما أروع الحياة!

وهمس الطبيب إلى السكرتير والحاجب بشيء ما قاما على إثره بمغادرة المكان وألقى «هالبندهل» على مريضه السابق نظرة فاحصة... طويلة تحاكي الثلج برودة.... حدق في وجهه بصمت لدقيقة أو اثنتين ثم قال فجأة:

ـ اسمح لي أن أهشَّ عن جبينك تلك الذبابة!.

وما إن ختم عبارته حتى أخرج من جيبه مسدّسا صغيراً وبسرعة البرق أفرغ منه رصاصة في الصدغ الأيسر للزائر المصعوق!

وهوى العملاق وقد تفرقت شظايا جمجمته وانتشر مخه الهائل على الأرض مزقاً مغطياً مساحة كبيرة من السجادة الفاخرة وظلَّت يداه ترتعشان تلقائياً... لوهلة قبل أن يغيبهما سكون الموت.

وأعمل الطبيب بعد ذلك في ملابس المغدور تمزيقاً حتى بدا صدره للعيان ولم يتردد في إحداث شق طولي عبره بشجاعة متناهية... أحدث ذلك بضربةٍ واحدة من مشرطه العريض!

عندما دخل شرطي عيادة الدكتور «هالبندهل» بعد ربع ساعة وطلب منه مرافقته وجده منكباً على مكتبه في هدوء يحسد عليه فاحصاً عبر عدسة مكبرة رئتين هائلتين وضعهما أمامه في اهتمام . كان نابغة الطب ذاك يحاول استشراف كنه ذلك المفعول السحري لبقلة الماء وما أحدثته من أثر إعجازي في رئتي المتوفى.. عبثاً كان يبحث عن إيضاح مقنع لما حدث!

ـ أيها الشرطي! قال هاباً من مكانه .. لقد شعرت بحاجة ملحّةٍ لقتل ذلك الرجل لأني كنت على يقين بأن إجراء تشريح عاجل لحالته سيكشف لي سراً بالغ الأهمية فيما يتعلق بالانحلال الحاصل لحيوية الجنس البشري وتدهور خلاياه.. والدور الذي تلعبه الأعشاب في الوقاية من كل ذلك وهذا ما جعلني أبادر دون تردد ـ وهذا اعتراف صريح مني بذلك ـ في التضحية بضميري في سبيل واجبي.

وغني عن القول أن سراح ذلك الطبيب الشهير قد أطلق على الفور تقريباً مقابل كفالة شخصية إذ إن حريته كانت أهم من اعتقاله بكثير.

تلك القضية الغريبة ـ كما أسلفت ـ ستُطرح كيما تنظر المحاكم الإنجليزية فيها ونحن على يقين من أن بطل تلك الجريمة السامية لن يواجه عقوبة الإعدام لأن الإنكليز ـ تماماً كما هو الحال مع الفرنسيين ـ قادرون تماماً على استيعاب المفهوم المتلخص في أن:

المحبة المحضة لمستقبل الإنسانية دون أخذ إنسان الحاضر بعين الاعتبار هي ـ في زمننا الحاضر ـ الدافع الوحيد لحتمية تبرير إخلاء سبيل ذوي الشهامة من متطرفي العلم.!

مصرع يونــفا ــ فو

للكاتب الروسي: روفيم فريرمان

«Ruvim Isaievich Fraerman»

أمضى «يونـفا ـ فو» أربعين سنة من عمره بجانب النهر ورغم أن ذلك النهر لم يكن واسعاً مترامي الضفاف إلا أن خرير جريانه كان عالياً يمر بجوار منزل «يونـفا ـ فو» عازفاً سمفونيته المألوفة العذبة تصافح أسماعه فيشعر بأن الدنيا ـ برمتها ـ قد دانت له وغدت ملك يمينه.... ليل نهار كانت مياهه تنساب من أعالي الجبال لتصب في أعماق الوادي المسمى «الأرض الصفراء» حتى المياه إما سرت فيه اكتست ذات اللون الأصفر على أنها كانت كسائر مياه العالم تشع تبراً كلما سقطت فيها صبابات الشمس حتى إذا ما سجى الليل... اتشحت بالسواد.

وكان «يونـفا ـ فو» رجلاً بسيطاً... ذا وجه قاس ويدين خشنتين على أنه كان بإمكانه إنجاز الكثير بهما.. تشكيل آنية من النحاس لا تقل روعة عن تلك التي تباع في سوق المدينة.. وعملُ مشط أنيق من ذلك الخشب الذي عثر في الجبل عليه إلا أن سعادته كانت تتبلور في أسمى معانيها حين ينهمك في زراعة القمح و الأرز وإذا ما شح الحيّز المكاني لذلك حول ضفة النهر أوجد ـبذكائهـ مساحة ملائمة يساويها بطمي يحمله في سلة معه... وكان منزله مبنّيا من الطمي ذاته على أن ذلك كان نقطة تضاف إلى إيجابياته فمسكنه بارد صيفاً... دافئ أوان الشتاء، وكانت تزين مدخله أعمدة حفرها من جذوع الأشجار فيما دأب على رشّ جدرانه الداخلية بماء النهر وغطّاها بطبقة رقيقة... صقيلة.

ولم يكدر صفو سعادته غير غزو بلدته من قبل الدولة المجاورة المعادية. كان المحتل فظاً غليظ القلب... طاغيةً لا يرحم صغيراً أو كبيراً.. أحرق القرى وشرَّد الأهالي.. وقتل المحتلون أباه وولديه فامتلأ قلبه كراهية وحقداً وانضم إلى

المقاتلين في ذرى الجبال حاملاً معه بندقيته التي رغم أنها لم تكن أحسن حالاً من تلك التي صنعها الإنسان لأول مرة على وجه المعمورة إلا أنه سرعان ما أصبح مصدر رعب للعدو.

ـ اسمع «يونفا ـ فو» قال له رئيس جماعة المناضلين ـ غط عملياتك الهجومية وأخفِ نفسك واتجه إلى الضفة الأخرى من النهر حيث يكمن العدو فأنت تعرف المنطقة جيداً أما فيما يختص ببندقيتك فاتركها ـ راهناً ـ معنا!

وهكذا أصبح «يونفا ـ فو» كشّافاً يخفي آثار خطواته، ويغطي جسده بالأغصان، إما سار وتوقف حتى عن الالتقاء بأصدقائه على أن خير عِوض عن ذلك كله أن اسمه شع في الآفاق كمصدر رعب هزّ كيان العدو الذي طغت كراهيته له والرغبة في انتقامهم منه على ما سواها... أمسى شغلهم الشاغل بعد إذ أوقع بهم أفدح الخسائر.. ما مر يوم ما تكبد فيه العدو خسارة أو مُني ـ على يديه ـ بكارثة... قضبان تخرج القطارات المحملة بجنود الغازي عن مسارها... وتحركات يعلم المناضلون بها حتى كأنهم معهم أنى حلّوا أو ارتحلوا واضطر الغازي إلى التخلي عن بعض المناطق حمايةً لخطوط مواصلاته.... ضحّى ـ في سبيل الحفاظ على إحدى الضفتين ـ بالضفة الأخرى ولكن «يونفا ـ فو» لم يدع له فرصة للراحة هناك أيضاً وهذا ما حدا بالغازي إلى الإعلان عن جائزة لمن يقتل «يونفا ـ فو» على أن زمناً طويلاً مر دون أن يتقدم أحد لذلك، لكن جنود الاحتلال قدموا يوماً على زعيمهم الجنرال ـ تاسيمارا ـ بشخص مهم... لم يكن «يونفا ـ فو» بطبيعة الحال بل جاره الطحان الكوري الثري «تسوي نام جاي» ـ ارحم ذلي وبؤسي وفقري سيدي ـ قال للجنرال بمكر غلّفته المسكنة وهو ينحني له ـ لقد تجّرأ «يونفا ـ فو» فقطع العام المنصرم إحدى شجيرات التوت من مزرعتي ولقد سمعت بأنه يزمع الليلة عبور النهر سباحةً قرب أعواد القصب هذه... ولا أعلم شيئاً عن «يونفا ـ فو» غيرذلك، على أني آمل. بتقديمي تلك المعلومة أن أحظى بالجائزة المخصصة لذلك.

ـ أهذا كل ما لديك بخصوص المدعو «يونـفا ـ فو»؟ سأل الجنرال.

ـ هذا في حقيقة الأمر هو كل ما لدي!

ـ فأنت ـ في هذه الحالة لم تقدم ما يؤهلك للحصول على الجائزة ـ إذ إنه قد عبر النهر سباحةً العديد من المرات ولم نستطع اكتشاف ذلك لأنه يسبح دون شك كسمك الجرِّيس ـ لا يهم سوف أمنحك الجائزة إن أخبرتني عن الأشياء التي يفضل «يون فا فو» القيام بها حينما يكون في منزله.

ـ بإمكاني الإجابة على هذا السؤال ـ سارع الطحان بالرد: في الصباح الباكر حينما يكون ظل طاحونتي مستقراً على صفحة الماء يكون «يون فـفو» منهمكاً غالباً في تسوية تربة حقله بمعول.... وهو يهوى إلى جانب ذلك تلقي أمطار الصباح والمساء تنساب فوق رأسه فتسّاقط على كتفيه ووجهه... ويهوى أيضاً حمل الأطفال على منكبيه بحب وحنان ولطالما حمل ابني رغم معارضتي الشديدة لذلك!

ـ أرأيت ـ أنت إذاً تعرف الكثير عنه خلافاً لنفيك ذلك! قال الجنرال بابتسامة صفراء واهنة ـ اذهب إلى الجنود واطلب منهم إحضار طفلك إلى هنا.

ـ وماذا تريدون من ابني؟ قال الطحان بهلع إذ إن تلك الابتسامة الصفراء أمر غريب... رهيب مريب لا يمكن التكهن بما تخفيه! على أن الجنرال ما منحه إجابة أبداً ولأن أنيابه كانت بارزة ومعقوفة كأنياب ابن عرس منتن، فقد تراجع الطحان في هلع منحنياً أمامه في خضوع المشفقين.

بجانب أعواد القصب كان «يونـفا ـ فو» يجلس مختبئاً عن أعين العدو والماء يحيط به من كل صوب ـ كان الماء الدافئ يحتضن صدره وبقية جسده فيما روّح النسيم البليل على وجهه فأنعشه إذ إن المساء كان يؤذن بحلول... كان ساكناً في مكمنه السكون كله حتى أن الطيور الصغيرة كانت تحط على الأغصان القريبة غير شاعرة بوجوده.. ومر الوقت وهو في موضعه لما يزل... يرفع رأسه فيما ندر

كيما يلقي على العدو ـ في الضفة الأخرى ـ نظرةً متأنية ـ وقتها ما كان هناك ثمة جندي بربطة ساق بيضاء في الأفق وأسعده ذلك كان ينَتظِر فقط أن يستقر الضباب على صفحة الماء وتطير غربان العقعق إلى أوكارها أعلى الجبل كيما يخترق كبد الليل فيعبر النهر سباحةً في هدوء... وبقي على سكونه محدقاً في غرنوق طويلٍ حطّ بين أعواد القصب... واغرورقت عيناه بالدموع حين تذكر فجأة وهو الإنسان الرقيق البسيط الدلالة التي يحملها هذا الطائر... وتذكر مقتل أبيه العجوز على يد العدو.... على إنه انتهى إلى الحقيقة التي مؤداها وجوب البكاء على الموتى ومحبة الأحياء كما يراها.

وصافح مسمعه صوت غريب واهن بدا كما لو كان حفيف مجداف أو همس امرأة ما استطاع أن يدرك كنه الصوت وفرق بيديه الطحالب الطافية على سطح النهر كستارة ومد نظرة بعيداً.

ثمة قارب كان يطفو فوق الأمواج وسط النهر... وكان يتأرجح على سطحه كورقة صفصاف في مهب الريح فيما كانت امرأة تحاول حفظ توازنها على القارب دون جدوى وبيدها مجداف تستعين به وقد احتضنت طفلها باليد الأخرى!

ـ المسكينة... ستغرق لا محالة ـ قال ـ يون فا ـ فو ـ ثم نظر حوله عسى أن يكون أحد في طريقه لإنقاذها على أن النهر كان برمته خلو مما سواهما. وبدأت المياه تغمر القارب من كل صوب فيما تشبثت المرأة بطفلها أكثر فأكثر كأنما لتخفيه ـ بسذاجة ـ عن مخالب الموت والصغير يتململ في أحضانها.

ـ أليس ذلك صوت طفل الطحان «تسوي نامجاي»؟ تساءل «يون فا فو» وفجأة مال القارب فسقطت المرأة. وطفلها في النهر!. ولم يجد «يون فا فو» مناصاً من المسارعة إلى أداء الواجب الذي حتمته طيبة قلبه ونبل أخلاقه. شق عباب الماء بكتفيه وقدميه وأوصلته اختراقاتٌ عشر من ذراعيه القويتين إلى حيث يقبع القارب المقلوب المنكوب وعمد إلى الطفل فحمله على كفه الأيمن حتى رفعه عن مستوى الماء ثم صاح بالمرأة طالباً منها أن تتشبث به!.

ـ وسبحت نحوه وهي لا تزال ممسكة بطرف القارب لما تزل وفي تلك اللحظة تماماً استشعر «يونـفا ـ فو» ضربة قاصمة من سيف قصير وعلت صرخات الطفل الذي سقط في الماء حتى عمت أرجاء النهر الأصفر قابلتها صرخة مماثلة أخرى من الضفة الثانية.. كانت صرخة «تسويـنامـجاي» الذي شهد مصرع ابنه. وفيما كانت الدماء تنزف من «يونـفا ـ فو» بغزارة فاقداً الوعي شيئاً فشيئاً والماء يحاصر ذرات رئتيه كان فكره يحلل ما حدث:

ـ «تلك لم تكن امرأةً أبداً... لقد اصطادوني! وقعت في الفخ كعصفور!» وبعد فترة قصيرة جيء به إلى الجنرال جريحاً ينزف.

ـ أهذا هو؟ قال الجنرال «تاسيمارا» مخاطباً الطحان «تسوي نامـجاي».

ـ نعم إنه هو! رد الطحان وعبراته على موت ابنه لا تزال تجلد صدره.

ـ تستحق الجائرة الآن ـ قال الجنرال وعلى شفتيه تراقصت ذات الابتسامة الواهنة الصفراء!.

وقبل أن ـ تؤوب غربان الجبل إلى أوكارها كان «يون فا ـ فو» قد أُعدم أمام جدار منزله فيما كان الجنرال يقول مخاطباً جنده:

ـ اليوم يومنا لا يوم آبائنا ـ لقد اصطدته لأني ارتأيت أن علينا معرفة القيم والأبعاد الكامنة خلف كل شيء في هذا الوجود... ذلك فقط كان دافعي!

وسقط «يون فا ـ فو» ـ وقد حُزّت عنقه ـ على الطمي الأصفر لأرضه.... ذاتُ الطمي الذي شيد به بيته والذي كان كثيراً ما يريح عليه كفيه ورغيفه، وكان وجهه صوب السماء فيما عانقت يداه التراب بعد إذ اعتادتا احتضان المعول.. كان مشهداً أخّاذاً يذيب الحجر ويلهم العبر.

في صبيحة اليوم التالي قذف الجنود بجثة «يون فا ـ فو» في النهر فحملتها رياح هادئة انحدرت من جبل «اين شانيو» صوب التيار دون أن تثير أمواجاً.

وشاع خبر موته حتى سبق الريح فجاء الفلاحون من كل حدب وصوب لاعتراض الجثة التي حملوها عالياً واتجهوا بها صوب الجبل يتبعهم مزيد من المتطوعين للانخراط في صفوف المناضلين، وهناك في أعلى الجبل وفي ركن هادئ.. بين الجداول والخمائل وعبق أشجار الدراق والكرز دفنوا «يون فا ـ فو» وعلى جدار ضريحه دوّنوا بحبر الهند أروع عبارات الرجولة والتضحية... والبطولة.

نهار بالثزار... الرائع

للكاتب الكولومبي الكبير: غابريال ماركيز

تمّ بحمد الله بناء القفص فعلّقه بالثزار ـ بحكم العادة ـ تحت الإفريز، وعندما تناول الجميع طعام الغداء شغلوا به وأجمعوا على كونه أجمل قفص في العالم مما حدا بالكثيرين للتوافد عليه من كل حدب وصوب وهذا ما دعا «بالثزار» إلى إنزاله وإقفال المحلّ!.

ـ ينبغي أن تحلق ـ قالت زوجته «أرسولا» ـ تبدو كراهب!

ـ لا تصح الحلاقة بعد تناول الغداء ـ أجاب

كان شعره قد ترك ينمو لأسبوعين... فغدا قصيراً شائكا كعرف بغل واكتسى ذلك الطابع التعبيري العام... لطفل مذعور... على أن ذلك كان أبعد ما يكون عن الحقيقة إذ إن زواجه من «أرسولا» والذي مضى عليه أربعة أعوام.. أتم بعدها الثلاثين عاماً قد جعل منه إنسانا حذراً... يقظاً لكنه كان ـ عن الذعر ـ أبعد ما يكون!

ولم يبذل في صناعة ذلك القفص جهداً خارقاً إذ إنه اعتاد منذ نعومة أظفاره على تلك المهنة:

ـ فاسترح لوهلةٍ إذاً ـ بذقن كهذه لن يكون باستطاعتك رؤية أحد. إبان خلوده إلى الراحة... كان عليه إن ينهض مرات عدة ليُري الجيران القفص. أما زوجته فما أبدت به كثير اهتمام بل إن استغراقه في صنعه وإهماله لأعمال النجارة قد أغضبها... ولم يتحصّل على كثير من النوم إبان أسبوعيّ بناء القفص بل إنه ظل يتقلب طوال الليل متمتماً بشبه جمل بين الفينة والأخرى... علاوة على إغفاله حلاقة ذقنه. على أن انزعاجها تلاشى مع نشوة الانتهاء من صنع ذلك القفص.

عندما استيقظ «بالثزار» من نوم القيلولة كانت «أرسولا» قد كوت قميصه وبنطاله ووضعتهما قرب سريره أما القفص فحملته إلى طاولة الطعام وظلت تتأمله في صمت.

ـ كم ستطلب ثمناً له؟ سألته.

ـ لست أدري! قال «بالثزار» ـ سأطلب خمسين «بيزو» لأرى إن كانوا على استعداد لدفع عشرين.

ـ اطلب الخمسين ـ قالت «أرسولا» ـ تعبت ما فيه الكفاية وحرمت نفسك ـ لأسبوعين ـ من لذيذ الكرى... كما وأنه قفص كبير ـ أعتقد أنه أكبر قفص رأيته في حياتي.

وشرع يحلق ذقنه.

ـ أتظنين أنهم سيدفعون خمسين «بيزو»؟

ـ ليس هذا في عرف السيد «مونتيل» شيئاً، كما وأن القفص يستحق ذلك من الحكمة أن تطلب ستين «بيزو»!.

بدت حرارة الجو أقل احتمالاً... في ذلك الأسبوع الأول من أبريل.. وزاد في وهجها اللافح... ذاك الصوت المتصل لحشرة «زيز الحصاد»، وعندما أتم «بالثزار» ارتداء ملابسه... فتح باب الفناء التماساً للبرودة فدخل تبعاً... عدد من الأولاد لرؤية القفص، وكانت قد تسللت أخبار ذلك فعقد الدكتور «اوكشافيو جيرالدو» وهو طبيب سعيد في حياته... ضجر من عمله، عقد العزم على شراء القفص فقد كانت زوجته مولعة بالطيور إلى حد كرهت معه قطط الأرض لتلذذها بأكل العصافير... وكانت تشغل فكر زوجها الذي ما إن أتم رؤية آخر مريض حتى اتجه صوب بيت «الثزار» لمعاينة القفص.

ثلة من الناس كانت هناك في منزل «بالثزار» لرؤية القفص الموضوع على الطاولة بشبكته الهائلة وأدواره الثلاثة...كان بديعاً حقاً، خصّصتْ به أماكن عدة لوضع طعام الطيور وشرابها ولعبها... كان في مجمله كهيكل مصغّرٍ لمصنع ثلج هائل. وتأمله الطبيب بدقه ـ دون أن تمسه يده ـ موقناً في قرارة نفسه أنه أجمل مما قيل عنه... بل إنه في واقع الأمر كان أروع بكثير مما تخيله وزوجته.

ـ إنه أبهى من نسج الخيال ـ فكر الطبيب ـ وشرع يبحث بين الجمع المحتشد عن «بالثزار» وما إن رآه حتى قال:

ـ أنت مشروع لمهندس معماري غير عادي.

واحمر وجه «بالثزار» خجلاً:

ـ شكراً أجاب.

ـ هذا صحيح ـ قال الطبيب ـ كان ممتلئاً... رقيقاً... بضّاً كغادة مليحة إبان صباها.. ويداه كانتا ناعمتين رقيقتين كذلك، أما صوته فبدا كصوت راهب يتكلم اللاتينية:

ـ لست في حاجة أصلاً لوضع طيور داخله ـ قال.. مديراً القفص أمام النظارة كما لو كان في مزاد ـ يكفي أن تعلقه على شجرة كي يغني ذاتياً! ووضعه على الطاولة ثانية ثم تأمله وقال:

ـ حسناً سآخذه.

ـ تمت البيعة! قالت «أرسولا».

ـ إنه لابن السيد «مونتيل» قال «بالثزار» ـ طلبيّة خاصة!

وجنح الطبيب إلى اتخاذ موقف مهذّب:

ـ أهو الذي قدم التصميم؟

ـ كلا ـ رد «بالثزار» ـ قال فقط إنه يريد قفصاً كبيراً كهذا لزوج من الطيور الاستوائية!.

ورنا الطبيب إلى القفص:

ـ لكن هذا لا يناسبها! علق الطبيب.

ـ بل إنه الأصلح ـ رد بالثزار مؤكداً وحاذى الطاولة التي وضع القفص عليها فتحلق الأطفال حوله: ـ صمم القفص وفقاً لمقاييس دقيقة تلائمها! ـ قال ناقراً القبّة ببراجمه فانسابت نغمات رنانة:

ـ راعيت في صنعه المتانة والدقة!

ـ إنه يتسع لببغاء ـ علق أحد الأولاد.

ـ هذا صحيح ـ وافقه الصانع «بالثزار».

وأدار الطبيب رأسه:

ـ حسناً لكنه لم يقدم التصميم ـ قال ـ ولم يطلب مواصفات معينة كل ما طلبه كان قفصاً لزوج من الطيور الاستوائية! أليس كذلك؟.

ـ نعم ـ رد «بالثزار».

ـ لا مشكلة هناك إذاً ـ قال الطبيب ـ ليس بالضرورة أن يكون هذا مطابقاً للقفص المطلوب.

ـ بل إنه هو بعينه ـ قال بالثزار في حيرة ـ ولهذا صنعته!

وندت عن الطبيب إشارة نفاد صبر:

ـ بإمكانك بناء قفص آخر ـ قالت «أرسولا» مخاطبة زوجها منقِّلةً بصرها بينه وبين الطبيب الذي سألته: لست في عجلة من أمرك؟

ـ لقد وعدت زوجتي أن أوافيها به هذا المساء ـ قال الطبيب!.

ـ آسف جداً أيها الطبيب ـ قال بالثزار ـ على إنه ليس في مقدوري بيع ما قد بِيع!

وهز الطبيب منكبيه فجفّف حبات من عرق ندّت جبينه ثم شرع يتأمل القفص بنظرات ثاقبةٍ... حيرى كمن يشيّع سفينةً أبحرت للتوِّ في أحضان المجهول.

ـ وكم دفعوا لك ثمناً له؟

ـ وبحث «بالثزار» عن عيني زوجته دون أن يجيب!

ـ ستون «بيزو» ـ قالت.

وظل الطبيب يتأمل القفص متمتماً: إنه جميل جداً... غاية في الحسن واتجه صوب الباب مروِّحاً في نشاط على وجهه بجريدة وندَّت عنه ابتسامة خفيفة وآثار ذلك المشهد تغيض ـ إلى الأبد ـ في أعماق ذاته ـ «مونتيل» غنيٌّ جدًّا ـ قال.

كان «خوزيه مونتيل» في واقع الأمر أقل ثراءً مما يشاع عنه، على أنه ما كان ليتوانى عن القيام بأي شيء يثري ذلك الانطباع ـ وفي منزله القابع هناك... الغني بأنواع شتى من معدات قابلة للبيع ظلّ «مونتيل» غيرُ عابئ بما تردد عن اعتزامه شراء القفص! وخلد بعد هنيهة إلى القيلولة فيما مكثت زوجته المسكونة بهاجس الموت تتقلب على سريرها لساعتين ما داعبها خلالهما نوم، وتسللت إليها أصوات من الخارج ظلت تدنو حتى سمعت أمام بابهم هرج ومرج وفتحت الباب فرأت «بالثزار» متوسطاً الجمع والقفص في يده وقد بدا أنيقاً وسيماً بعد إذ حلق ذقنه وارتدى طقماً أبيض مخلفاً ذاك الانطباع الصادق الذي ينم عن الفقراء إذا ما حاذوا بيوت الأغنياء!.

ـ يا له من رائع ـ قالت زوجة «مونتيل» وقد شع وجهها بهجة وهي تتجه بالزائر صوب الداخل وتابعت ـ هيا إلى البيت قبل أن يحوّل هؤلاء الفناء إلى مدرج كرة قدم!

ـ ولم يكن «بالثزار» غريباً عن ذلك البيت إذ إن صاحبه كثيراً ما استدعاه لمهارته واستقامته كيما يقوم بأعمال نجارة في هذا الموضع أو ذاك. على أن المسكين ما شعر يوماً بالراحة بين الأغنياء وكان كثيراً ما يفكر فيهم... في زوجاتهم القبيحات... كثيرات الجدل... في النكد المستشري بينهم فلا يملك إلا أن يستشعر حيالهم شفقةً لا غبطة عندما ولج.. كان يجر قدميه جرًّا:

ـ هل عاد «بيب»؟ سألها.

ـ كلا أجابت أم الطفل ـ إنه لا يزال في المدرسة.

كان «بالثزار» قد وضع القفص على مائدة الطعام.

ـ على إنه سيعود عما قريب ـ أما السيد «مونتيل» فيستحّم ـ تابعت! لكن السيد «مونتيل» لم يكن في واقع الأمر يستحم إذ إن فضوله لمعرفة ما يجري قد جعله يكتفي بدلك جسده بشيء من الزيوت العطرية فحسب. كان حذراً إلى درجةٍ لا ينام معها والمروحة الكهربائية تعمل حتى لا يمنعه ضجيجها من سماع ما قد يبدر من أصوات!

ـ ما الذي يحدث؟ ـ قال منادياً زوجته.

ـ تعال وشاهد هذه التحفة النادرة ـ صاحت زوجته!.

وخلف نافذة النوم بدا السيد «مونتيل» وقد لف حول جيده فوطةً أنيقة... كان مشعراً بديناً!

ـ ما الأمر؟

ـ إنه قفص «بيب» ـ قال «بالثزار»!.

ورنت زوجته صوبه في شيء من الارتباك!

ـ قفص من؟ سأله «مونتيل»!

ـ إنه قفص «بيب» رد «بالثزار» متجهاً صوب «مونتيل»:

ـ لقد طلبه ابنك!

ولم يحدث وقتها شيء إلا أن «بالثزار» قد أحس ساعتها وكأن أحدهم قد فتح عليه باب دورة المياه فجأةً... وجاء «مونتيل» بثيابه الداخلية فصاح:

ـ «بيب»!

ـ لم يعد بعد ـ همست زوجته دون حراك.

لحظتها... ظهر «بيب»، في الممر... كان في الثانية عشر من عمره... وكأمه كان عاطفيًّا... معقوف الرموش... مثيراً للشفقة.

ـ تعال إلى هنا! ناداه أبوه ـ أأنت من طلب القفص؟

وأرخى الولد رأسه فشده أبوه من شعره مجبراً إياه على النظر إليه مباشرة!

ـ أجبني صاح فيه!

ودون أن ينبس الطفل ببنت شفة.. عض شفته السفلى!

ـ «مونتيل»! ـ همست زوجته ـ وترك السيد «مونتيل» الطفل فالتفت إلى «بالثزار» في سورة غضب:

ـ آسف جدا «بالثزار» على أنه كان يجدر بك استشارتي قبل الشروع في صنع القفص ـ لم يكن غيرك ليتعاقد مع حدث ـ واستعاد وجهه هدوءه وصفاءه إبان حديثه.

وعمد إلى القفص فرفعه ودفع به إلى صانعه:

ـ إليك به! وحاول أن تبيعه لأي كان! ـ قال ـ وأشد ما أتمنى ـ قبل كل شيء ـ ألا تجادلني في ذلك ـ وربّت على ظهر «بالثزار» برفق قبل أن يردف: ـ لقد نصحني الطبيب بالابتعاد عن الانفعال! كان الطفل إبان ذلك يقف تائهاً حائراً ملتاعاً دون حراك فما يرفّ له جفن حتى صوّب «بالثزار» بصره إليه عندها ندّ عنه أنين كالعواء وارتمى على الأرض منتحباً.

ونظر أبوه في برود إليه فيما حاول «بالثزار» التسرية عنه:

ـ دعه يبكي حتى تنفطر كبده وتحمرّ عيناه ـ قال الأب في قسوة فيما كانت الأم تحاول الإمساك برسغيه على أنه ظل يصرخ بأعلى صوته دون دموع.

ـ دعيه! قال زوجها آمراً.

وتأمل «بالثزار» الطفل شأن من يشهد نفوق حيوان مسعور.

كانت الساعة قد حاذت الرابعة... وقتها كانت «أرسولا» تدندن بلحن قديم وهي تقطع البصل شرائح رفيعة!

ـ «بيب»! قال «بالثزار».

ودنا من الطفل مبتسماً.. ثم.. مد يده بالقفص إليه.. وقفز الطفل فاحتضن ذاك القفص الذي كان يوازيه حجماً ثم طفق ينظر عبر أسلاكه إلى «بالثزار» في صمت ـ ما ذرف دمعة واحدة ـ

ـ «بالثزار» ـ قال الأب له ـ لقد طلبت منك للتو أن تأخذ قفصك.

ـ أعده له ـ خاطبت الأم طفلها!

ـ بل احتفظ به ـ قال بالثزار ـ ثم إني في حقيقة الأمر ما صنعته إلا له! وتبعه «خوزيه مونتيل» إلى غرفة المعيشة:

ـ لا تكن أحمق «بالثزار» قال له... معترضاً طريقه ـ خذ قفصك إلى بيتك.. ليس في نيتي أن أدفع لك سنتيماً واحداً ثمناً له!

لا يهم ـ قال «بالثزار» ـ لقد كنت أعتزم إهداءه إياه!

حينما شق «بالثزار» طريقه بين جموع المحتشدين كان «مونتيل» لا يزال يمارس الزعيق وقد احمر شدقاه وبرزت عيناه وبدا واهناً ممتقع اللون!

ـ أحمق ـ أخرج لعبتك التافهة من هنا ـ لم يبق إلاّ أن يأتي من يوزع الأوامر هنا! أبله!

في الخارج لقيه الجمع بترحاب واحتفاء ـ حتى تلك اللحظة كان الاعتقاد السائد لديه أنه ما زاد على أن صنع قفصاً.. هو أجمل ما يكون وقام بإهدائه إلى ابن «مونتيل» كيما يكف عن البكاء.. بأن ما حدث لم يكن بذي شأن على أنه أدرك مع عبارات الاحتفاء به أهمية ما قام به على الصعيد العام فخالجته نشوة جذلى:

ـ إذاً فقد دفعوا لك خمسين «بيزو» ثمناً للقفص؟

ـ بل كان ذلك ستين ـ رد «بالثزار».

ـ إن هذا لهو مما يسجل لك! ما سبقك أحد في استخراج هذا المبلغ من جيب «خوزيه مونتيل» قط ـ ينبغي أن نحتفل بذلك! وغرر الجميع به فشرب حتى ثمل وأثمل من معه وطفق يهذي بمشاريع خيالية يعتزم صنع آلاف من الأقفاص خلالها فيأتيه عائد ضخم أجل ـ ظل يهذي تحت تأثير أم الكبائر ـ سوف أبيع القفص بستين ثم أتحصل على ستين مليون بيزو ريع بيع مليون قفص ـ علينا أن نبيع الكثير للأثرياء قبل أن يموتوا! قال في قمة ثمله ـ جميعهم مرضى ولسوف يموتون إنهم من الإعياء بمكان لا يستطيعون معه تحمل فورة غضب قد تعتريهم ـ ولساعتين ظل «بالثزار» يلقم جهاز الفونوغراف الآلي نقوداً صدحت الموسيقى خلالها دونما انقطاع ودعى الجميع له بالصحة والثراء وطول العمر وبألا يبقى على وجه البسيطة للأغنياء من أثر... على أنهم لما حان وقت الطعام تركوه جميعاً وحيداً.. كسيف البال.

وظلت «أرسولا» تنتظره حتى الثامنة بعد أن أعدت له طبقاً من لحم مقلي مغطى بشرائح البصل. كان أحدهم قد أخبرها بأن زوجها في الحانة يصارع الثمل ويوزع على الجميع جعّةً لكنها لم تصدق إذ إن تاريخه ما شهد مثل ذلك قط.

على أنها وبحلول منتصف الليل اضطرت إلى الخلود إلى النوم أما «بالثزار» فقد رأى نفسه في غرفة مضاءة بها طاولات عدة يحيط بكل منها أربعة مقاعد ويقبع غير بعيد عنها مرقص رحب تخطر عليه طيور السقساق.وجهه كان ملطخاً بأحمر شفاه ولأنه لم يكن قادراً على المشي فقد فكر في الارتماء على السرير... وقتها كان مفلساً تماماً حتى إنه كان قد اضطر إلى رهن ساعته مع وعد بالسداد صبيحة اليوم التالي ـ بعد دقيقة كان ملقى على الرصيف كطائر مفرود الجناحين.. ولاحظ أن أحداً كان يخلع حذاءه فلم يكترث! ما كان يود قطع الاسترسال في أعذب أحلام حياته، أما السيدتان اللتان مرتا به في طريقهما إلى دار العبادة الخامسة فجراً فما جرؤتا على النظر إليه ظناً منهما أنه كان قد فارق الحياة.

الصقر

«The Falcon»

للكاتب السويدي: بير هالسترم per hallstrom

جرت عادة السّير «إنجراند» على الخروج للصيد كل يوم وغالباً ما يكون ذلك وقد لبس قفازه الموشى بالذهب وعليه يتربع صقره الأيسلندي الرائع ذو الأجراس التي تهتز باهتزازه فتبعث موسيقى روحية ساحرة، لاشيء يهزّ وجدان «إنجراند» كرجعها العذب البطولي الشجي، فيعبّ من نسيم الصباح العليل ما يملأ وجدانه ثملاً ونشوةً وزهواً.

وذات يوم اصطاد الصقر طيراً وحطَّ به دامياً في أحد السّباخ حيث أخذه الصياد فذكّاه. على أن الصقر ذاته قد طار بعد ذلك... لِمَ ولى دون رجعة؟ ذاك كان السؤال المحير... أتراه توغل في أعقاب طريدة؟ أتراه فتن بمرأى مياه البحر تعكس عسجد الشمس أم أن سحر السماء الممتدة أمامه زرقاء أزلية... لا حدود لها قد شغفته حباً؟ وعبثاً حاولوا إعادته بكل الأسماء المحببة ما تركوا قمة إلا وتردد فيها صدى لطبول شتى هزت مهاجع السكون، ولطم «إنجراند» شفة كبير الصيادين المرتعشة حتى نضح الدم منها ثم عاد بفم مطبق وعينين مسبلتين ألماً وحزناً على فقدان صقره الذي ما عثر له على أثر.

على أن «رينود» قد عثر عليه بعد إذ علق سيره الجلدي في أكمة ورد برّي.. وجده جاثماً دون حراك وقد كاد الجوع والعطش أن يفتكا به... كان أحد جناحيه عالقاً فيما كان الآخر حراً.. بارزاً في عناد وتحدٍّ وشموخ أما رأسه فمُمتدّ إلى الأمام... عيناه رغم ذلك كله كانتا ثابتتين ومنقاره مشرع فيما يشبه التهديد، وبدا جميلاً وسط غابة من التوت الأحمر كدم قان ـ وحرر «رينود» جناحه الحبيس بيدين أرعشتهما الرهبة والوجل فيما جلجل الجرس المحيط بعنقه

حاملاً شعار السير «إنجراند» وصاح «رينود» في غبطةٍ بعد أن استشعر انتقال ملكية الصقر إليه، ذاك الذي لم يكن يفوقه صقر في عرض صدره وطول جناحيه وذاك الذهب الكبريائي المصهور المنسكب من عينيه الثاقبتين.

ولم يطلع أحداً على نبأ اصطياده إذ إن القانون كان يحمي رياضة النبلاء تلك علاوة على أن ما قام به كان اعتداء واضحاً على حقوق الآخرين إلا أنه أصرّ على الاحتفاظ بالطائر بعد إذ افتتن به. وقرر أن يبني له قفصاً في الغابة، أجل ذاك سيكون أول ما سيفعله في الصباح قبل أن ينفض الصقر عن ريشه ذرات الصقيع، ولسوف ينطلقان عبر الحقول كل يوم حتى يتآلفان موغلين في دفء الآكام والشمس تعلو فوق رأسيهما وتهبط وأفكار محمومة شتى تدور فيها وسوف... سوف لن يحن الطائر أبداً إلى قفاز سيده الموشى بالذهب ولا إلى برقعه المطرز باللآلئ وربطه ثانية ثم عدا صوب النهر فجلب بطة اصطادها بحجر ولما التقطها الصقر أثملت النشوة فؤاد «رينود» إذ إن ذلك كان دليلاً على أن الصقر قد رضي به سيداً جديداً!

وأضحى الطائر ملك يمينه وكان يحني رأسه مصيخاً السمع بعيون ثاقبة متطلعة كلما مزّق سكون الفجر صوت تكسر الأغصان الرقيقة المتجمدة تحت قدمي سيده، وينتفض شامخاً ويهز جناحيه متأهباً للطيران كلما امتدت يد «رينود» إليه... فيهرعان عبر رقاع السباخ المتسعة صوب المجهول.

وحدقت أعينهما. بحدّةٍ في حمرة السماء القانية فيما بدت الآكام و التلال حالكة مدلهمة وكانت أغصان الأشجار الغافية مثقلة بأنواع شتى من الطيور... على أن حلكة السماء سرعان ما خفت وغدت تشع زرقة وعسجداً كما الذهب فأما حواشي الحقول فاكتست ألوانا بديعة فيما حطت بومة فجأة في كبد المجهول تبحث عن ملاذ وشقشقت العصافير في سيمفونية إقلاع نشوى، لكن «رينود» وصقره تباطآ نوعاً إذ إنها لم تكن سوى عصافير صغيرة لا تصلح للصيد.

وهناك تجاه السّباخ كانت طيور السمّن تطلق أصواتاً حادة طائرةً في دوائر واسعة... وتلك كانت الطريدة المناسبة وعلا الصقر في كبد السماء فارداً جناحيه القويين وصدره البارز وبَصُرَ «رينود» به وقد استحال لونه ذهباً لامعاً يخطف الأبصار بعد إذ سكبت عليه ذُكاء صبابتها. وتوقف فكر «رينود» عن العمل فيما أعمى النور الباهر بصره وهو يرقب الصقر محلقاً في أجواز الفضاء أبعد فأبعد، وحجمه يزداد ضآلة في صفحة اللازورد ورنين أجراسه كرجعٍ ساخرٍ لصيحاتِ طائر السمّن التي انتابها الذعر فحلقت في دوائر أكبر ثم خطر لها أن تهوي إلى الخضم تحتها فتخفي في حماقة رؤوسها في أمواج اليم المتكسرة. على أنها ارتأت أن تفرَّ إلى العلياء فتحلق في طبقات من الجو تعيي صيادها وتعجزه عن اللحاق بها. لكنه انقض وبسرعة على واحد منها كان يطير بمعزل... كانت سمّنةً جزلة... تاركاً البقية تطير في حركات حلزونية والرعب يزلزل أفئدتها.

كانت طريدته ـ في واقع الأمر ـ أقوى السرب ولم يكن غير ذاك ليرضي غروره بعد أن حنّ إلى الصيد ثانية واشتاق إلى ملمس الهواء يعبث بأجنحته قوياً ندياً ... علا أكثر فأكثر ثم أشرع مخالبه وهوى كالفولاذ المحموم على طريدته... شيء ما حينها كان هناك في الأعالي على وشك الانقضاض... وقد وازى العصفور حجماً بعد إذ قلصه الارتفاع الشاهق الذي فيه... وضعية جناحيه وجبروت انطلاقه ذلك كله عكس تلك النظرة المتوحشة المنبثقة ـ دون ريب ـ من عينيه وبأن مخالبه كانت كأحد وأشد ما يكون.

وهوى بشدة على رقبة طريدته العاجزة قبل أن يسقط الاثنان كحجر فما تحرك لهما جناح.

وعدا «رينود» نحوهما قطع المستنقع سباحة فخوضاً قبل أن تفيق السمّنة من وقع الصدمة فتقاوم في غمرة اليأس بمنقارها الحاد على أن الصقر عاجلها بالضربة القاضية ثم استدار إلى سيده محدقاً فيه بعينين واسعتين منتظراً أن يقدم القلب له إذ إنه ما كان ليلطخ ريشه بالدم .

وأطلقه «رينود» ثانية لكنه خفق بجناحيه على ارتفاع منخفض ثم عاد بكبرياء باردةٍ فحط ثانية على كتف الفتى الباسم.

بدا واضحاً أن الصقر كان مترفعاً عن الصغير من الطرائد... وسرعان ما كف «رينود» عن محاولة التصقير ثانية، واكتست نظراته ذات الجدية البعيدة المدى المنثالة من عيني الصّقر وأخلص له دون غيره، كرس له جلّ وقته... بدا له كما لو أنه قبس من روحه ذات الأجنحة العريضة المرفرفة كآماله وذات النظرات البعيدة كطموحاته التي لا حدود لها على أن هيامه به كان ينبض ألماً وتوجساً مخافة أن يحلق الطائر عنه بعيداً... بعيداً... ذات يوم وصليل أجراسه يشي بسخرية منه دفينة ثم... يمضي فلا يعود أبد الدهر إليه وتغدو بذلك حياته قفر كصحراء يباب وأمضته أفكار تشاؤمية شتى... ماذا لو لم يعد الطائر يطيع له أمراً... لو أمست نظراته جبال صقيع ليظل يصعقه بعينين تنضح منها اللامبالاة؟! وعجز عن التحديق في الصقر ثانية... جبن عن ذلك فيما اعتصر فؤاده همٌّ مفاده أنه قد لا يقتسم أيام الصفاء معه تارة أخرى فحلق في فضاءات الأحلام مجدداً.

واستلقى على الأرض السبخة ثانية مسنداً رأسه إلى باقة من الخلنج البري الأحمر فيما كانت الغمائم تمر أمام ناظريه زاحفة كأقدار البشر... ثقيلة وخفية حيناً... مركزةً... واضحة الخطوط وهائمة سارحة حيناً آخر والريح تمس منكبه دوماً بكفٍّ خفيفة تنحني لها الغصون الرقيقة وسط الآكام، وطفق يروي لطيره عذب الحكايا مستلقياً لما يزل وجاء الملك «آرثر» ثانيةً من أعالي البحار فتناول سيفه البتار «إكسكليبر» وكان يلمع بزرقة سماء المساء في طقس بارد ونهض فرسانه الإثنا عشر قبل أن تهز الأرض وقع أقدامهم الثقيلة وكان «غاريث» ابن الأمير حاضراً وقد ارتدى حلةً قشيبة تنبض بكل جمال الصبا وإيراق الأحلام الغضة الفتيّة.

وكان «رينود» يقف هناك على حصانه وهو سليل عائلة كريمة كذلك، حينما جثم الصقر على ساعده وقد أرخى النعاس رأسه، فيما لمعت عيناه سعادة واكتست بذهب شمس حكايا البطولة والإقدام.

على أن تلك الغمائم المنساقة كأقدار البشر سرعان ما احلولكت وركب بعضها بعضاً مشكّلةً قوساً عظيماً في لون المداد الأسود المحمل بالنذر الرهيبة تسلك شعاعات الشمس عبر منافذها الضيقة باهتة... حادة كحراب مسمومة... وتخللت منام الصقر أحلام مقضّة عن غضبٍ جريحٍ عاجز فاستيقظ مطلقاً صرخات حادة.

وسرعان ما وقعت أعين خدم السير «إنجراند» على صقره بيد «رينود» فقبض خدم النبلاء عليه واقتادوه إلى القلعة.. وارتجف المسكين حين أخذ الطائر منه... كان الصقر جامداً بادي الكبرياء... شامخاً كعادته لا تبدر منه بادرة... ولم يجلِّ فيما حوله بصره... وعندما دُفع به إلى سيده السير «إنجراند» لم يحاول الأخير أن يربت على صقره المفضل الذي لطالما حنّ إليه بعد إذ استشعر أن يداً ـ غير كريمة ـ قد مسته. وحدج السير «إنجراند» «رينود» بنظرة طويلة صامتة.

وتذكر قسوة ذلك القانون القديم الذي لا زال لحسن حظه سارياً والقاضي بإلزام من يحتفظ بطائرٍ نبيل يحمل سمته بدفع ثنتي عشرة قطعة من الفضة أو يُقتطع من صدره مقدار ست آونسات من اللحم تحت وقع ضربات منقار حاد لطائر صيد بارع جائع!

وأدرك سير «إنجراند» مدى فقر الفتى «رينود» فألقى على صدره الأسمر العاري نظرة فاحصة قبل أن يمد يده فيتحسسه في حركة نمتّ عن برود رهيب، ويبعث خطاب دعوة إلى القلعة المجاورة داعياً قهرمانها وبناته ليحلوا ضيوفاً عليه قبيل الفجر كيما يشهدوا استعراضاً جويا لصقوره على أن يبدأ ذلك الاستعراض بعد القصاص من سارق خطير تم القبض عليه.

وأجال «رينود» من مقر سجنه ناظرين مثقلين حزناً وأسى حدق بهما في أطياف الغمام المنحسر صوب مصب الشمس الغاربة كربيع عمره، فيما أقبل السير «إنجراند» حاملاً الصقر على يده وقد حجب برقع كثيف النور عن عينين أرهقهما جوع أيام ثلاثة.

وأقبلت عربات فخمه تحمل بنات القهرمان... وكن يتبخترن جمالاً وحسناً فيما لمع شعرهن... أصفر في لون الذرة... شلال ذهب ينثال حسناً وجمالاً... وفي كبد السماء لمعت كذلك أنوار بهيجة تماوجت حواشي غمامها بألوان زاهية كأجنحة الفراش وأحاطوا ـ في شبه دائرة ـ بالسجين المقّيد الذي ألقى على الزائرات نظرة طويلة فانبهر بحسنهن واعتصر فؤاده ألم محض مؤداه أنه كان أمامهن يرسف في أغلال الأسر... وردد بينهن بصره فَبَدَوْن كطيورٍ رقيقة قد يفزعها إما أطلق صفيراً حاداً... ثم نقل بصره إلى ملامح الخدم الناطقة بالفضول وحب الاستطلاع ليستقر في نهاية المطاف على تلك السهول السمراء البعيدة الرحبة ينطلق عبرها حتى يكل ويحلم مستلقياً على ثرى بيدائها إلى أن يملّ!

واستشعر ما كان ينتظره من عقاب، على أن الطمأنينة سرعان ما خامرت فؤاده عندما أدرك أن صقره كان الموكل بإيقاع العقوبة عليه باقتطاع جزء من لحم صدره! ضحك في سعادة ونبض قلبه بكل إيقاعات الفخر والكبرياء التي كانت تعتمل في طيات روحه حينما كانت كلها ملك يمينه... الصقر الأيسلندي والنهارات المشمسة والحقول بطيورها المصغية في وجل... والرياح الهامسة تشخلل وريقات أشجار الخريف الصفراء.

لما أن رأى الصقر سماء الحرية ثانية واعتادت على مرأى النور عيناه... تاق إلى الصيد ثانية بعد إذ أمضه جوع ثلاثة أيام مضت حتى قدح الشرر من عينين كالبلور لا تذكران أحداً... على أن «رينود» حاول جاهداً أن يلتقي ببصره فما استطاع ما التقت عيناه بعينيه فابتلتا بدموع الأسى والشجن وحرقة الحرمان! ولو أن ناظري الصقر لمحتا عينيه لقرأتا فيهما كل شيء... شوقه وجرأته ولوعته... ورضاه وعذب المنى ينثال في الأفق البعيد أمامه وقد أسند رأسه إلى خلنج البرية الأرجواني كصفحة السماء الغافية في أحضان أرجوان المساء لكن عيني الصقر ما عكستا غير العدم... وذلك الانتظار المحض لأول طريدة تلوح أمامه بعد إذ أمضه الجوع والترقب... لا يعدل ذلك كله سوى نظرات الفضول من المحيطين بهما وابتسامة التهكم على شفتي السير «إنجراند».

وأحس «رينود» بطرقات الأسى أكثر من ذي قبل ثم استدار مدارياً فرط انفعالاته مطبقاً على هواجسه الدامية أجفانه. وبقي على حالته تلك فيما كان المنادي يتلو تفاصيل الحكم ثانيةً «دزينة قِطَعٍ من فضة أو ست آونسات لحم مما يلي القلب» وبذا يحمي السير «إنجراند» رياضة النبلاء!

ولم يرفع «رينود» رأسه حينما جُرح صدره كيما تغري رائحة الدم الصقر وعندما أنشب الصقر منقاره فيه ما ندت عنه صرخة... ما زاد على أن اهتز جسده قليلاً فلمعت عينا الصقر غضباً ومدَّ جناحيه كأنما سيرفرف ثانية بهما في أجواز السماء.

ومدت بنات القهرمان أعناقهن إلى الأمام وومضة اهتمام تشعُّ من أعينهن فيما جفلت الخيول حينما تسللت رائحة الدم إلى خياشيمها وضربت بحوافرها أرضاً غطاها الصقيع ونسيم الصباح يشرع أغطية سروجها، على أن «رينود» بقي صامتاً فيما رمقه الصيادون بنظرات ترقب بعد إذ طال انتظارهم لصيحات ألم تند عنه كيما يكتموها بضجيج أبواقهم.

كانت ضربة منقار الصقر الأولى قد اخترقت أنسجته الرقيقة وأحسَّ بأن فؤاده يوشك أن يرافق اللحم المقتطع، على أنه قد استشعر بعد ذلك ما يشبه التبلد الحسّي... فقد الإحساس طرًّا وكان مصدر ذلك ما ملأ وجدانه من فيض الرضى... والخدر الدواري... وذاك الشعور بقوة الذات في خضم جحيم التحدي وفيما كان النجيع يتدفق حاراً من صدره العاري والمنقار الحاد يعمل فيه تمزيقاً... أبحر «رينود» في خضم طيف غامر لذيذ بأحضان لازورد أحلامه البهية وفهم ساعتها كل شيء! أدرك المعنى العميق للموت والشرف والكرامة وكيف يوقد ذلك كله شمس قصص البطولات و الخلود الذهبية التي لا تغيب.

عندما تيقن السير «إنجراند» أن الآونسات الست قد استوفيت أعطى إشارة بالنفخ في الأبواق فيما أبعد الصقر المنتشي بمرأى الدم عن «رينود» وعيناه تلمعان ببريق كبرياء صامتة.

وتتالت مراسم الاحتفال تباعاً أما «رينود» فظل ثملاً بحلمه غارقاً في النشوة لما يزل وتركوه مستلقياً وقد توسد باقة من خلنج بري أحمر وأما الصقر فلم يعد إلى ذراع سيده السير«إنجراند» ثانية إذ إنه لم يكن ليشرب أبداً من قدح انطبعت عليه قبلة من شفتي آخر.

إلى رئيس الدولة

للكاتب الباكستاني: أحمد نديم قاسمي.

عندما ولجت المرأة المحل... كان نجيب منهكماً في قراءة أحدث كتاب في الطرائف والمِلحَ... إذ لم يعد لديه ما يشغل باله بعد أن آلت إليه ملكية الدكان الذي كان مخصصاً لخصمه ثم أعيد ثانية له.

وكان ثمة «مشروع» ضحكة توشك أن تفر من فمه المفتوح إثر قراءة إحدى النكات حينما دخلتْ عليه كعادتها... ماسحةً بقسوةٍ أنف رضيعها:

ـ أتوسل إليك! اكتب الخطاب اليوم... ما ذقت البارحة للنوم طعماً... كم أنا بائسة تعسة!

ومن حسن حظها أنه كان يستشعر ذاك النهار نفحة كرم عابرة... ثم إن تلك المرأة قد ساعدت والدته مراراً في طحن القمح والذرة... ورسم لها في خياله صورة أخرى... لم تكن ترتدي فيها تلك الأسمال البالية... ولم يكن شعرها أشعث أغبر كما هي الحال وهي تقف أمامه... وتذكر إلحاحها بأن يكتب لها الخطاب المطلوب... طفقت ترِدُ عليه كل يوم طيلة أسبوع أو ينيف. ولم يكن بدٌّ من تنفيذ رغبتها فاستلّ ورقةً كبيرة وقال لها آمراً: اجلسي!

وافترشت المهد المنسوج من الخيوط وأمطرت الرجل بوابل من الدعوات والابتهالات ثم نزعت الطفل من حضنها فرمت به على أحد جنبيه كما لو كان لفافة من الأسمال... وشرع الصغير في مداعبة الخيوط المنسوجة بيدين متسختين. أما هي فقد اتخذت وضعية أخرى وأمارات الجدية ترتسم على ملامحها وأطبقت كفها في توتر قبل أن تقول له:

اجعلها موجّهة إلى المسؤول الأكبر بالدولة!

ورفع «نجيب» إليها وجهاً ملؤه الدهشة والتعجب! وأحسَّ بكثير من الأسف لأنه وضع كتاب الطرائف جانباً ليسمع ترَّهات كهذه، على أنّ كفَّ المرأة كانت لا تزال مطبقة بإحكام فيما بدت أجفانها كما لو أنها قد اضمحلّت وتلاشت.

وعَلِقَتْ قدما الطفل في شبكة مهده المنسوج فجأةً فلم يجد بُدّا من البكاء... والتفتت إليه أمه الرؤوم... فبادرت بصفعه على قفاه قبل أن تحمله فتلقي به بقسوة في مهده مجدداً، فبدا باطن ساقيه الداكنتين مبقعاً بخدوش ينزف الدم منها:

ـ أيها الـ «....» لِمَ لمْ تمت هناك... في «دهلي» وظللت مقيدة بك كحظي العاثر! تعساً لك!

ـ ومد الصغير ـ بكل براءة الطفولة شفته السفلي متطلعاً إلى قبلة منها على جبينه كيما ينخرط في بكاء عميق لكن آماله خابت فقد التفتت صوب «نجيب» فما كان منه إلا أن زمّ شفتيه في كدر وطفق يداعب خيوط المهد.

وعوداً على بدء... استأنفت المرأة حديثها:

ـ ليكن خطك واضحاً كيما يتمكن المسؤول من قراءته. اكتب له قائلاً بأنه أثناء تأسيس دولة «الباكستان» كنت في «دهلي» بالهند وكان زوجي نادلاً لأحد أغنياء الهند.. كنت أغسل الأطباق في بيت كبير وكنا في نعمة نحسد عليها... كان لدنيا ثلاثة أطفال أصحاء يقطرون جمالاً... ذات يوم أطلت امرأة حديثة عهد بالمدينة عبر السور وقالت: ـ أولئك هم أطفال السيد يا أخيّه! أليس كذلك؟. وتوقفت قليلاً ثم حملت طفلها ففركت باطن قدميه وبقسوة عادت تمسح أنفه وقالت: لقد كان طفلي هذا جميلاً يوماً... غيرته حياة المخيمّ فأصبح كالح اللون أشعث مغبرا!

وفكر الرجل في أعماله المتراكمة جراء إعادة تخصيص المتجر له... ثم عاد بفكره إلى كتاب الطرائف... عليه إكمال قراءة النصف الآخر... تذكر ذلك كله فقال لها في ضجر... مُسْتَحِثًّا إياها على إنهاء ما بدأته:

ـ فلديك ثلاثة أبناء إذاً؟!.

وعادت تلقي برضيعها في مهده على أن قدميه علقتا بالخيوط كذلك فشرع في البكاء من جديد... وحملته بعنف فألقت به على الأرض.

ونظر المسكين إليها في دهشة فأرخى شفته السفلى ورفعها ثانية في خيبة أمل قبل أن يحبوَ على يديه وركبتيه فيخرج من الغرفة.ولم تأبه الأم به! ظلت تحدق في صمت في أعماق اللاشيء قارضةً أظافرها.

ووضع «نجيب» كتاب النوادر ثانية ثم قبض قدمه وبسطها تارة أخرى وبدا في الانزعاج غايةً ... وهو يقول: ـ وماذا تريدين أن أكتب أيضاً؟

وبصقت الأظافر المقروضة ثم استرسلت قائلةً:

ـ اكتب إن شيئاً رهيباً حدث بعد ذلك، إذ كان زوجي قد جاوز عتبة الباب حين هاجمه أحدهم وطعنه بسكين... وقتها كنت أرضع الصغير، فاحتضنت رضيعي وجريت إلى الخارج ولمحت فجأة عشرة أشخاص أو أكثر يعدون خلفي وانحنيت على جثة زوجي لوهلة قبل أن أطلق ساقي للريح متخذة من منزل أحد أصدقائه الهنود ملاذاً وملجأً... وكان وفياً... فخبأني في المطبخ فيما استمرت الجلبة واللغط في الخارج وقتاً ليس بالقصير... وفي المساء جاء صديق زوجي... كان يحمل فانوساً وسكيناً وأخبرني خارج المنزل بأن الهنود يتربصون بكل مسلم يعثرون عليه ليقتلوه شر قتلة وبأن الجيش ـ لحسن الحظ ـ يجمع من نجا منهم داخل القلعة القديمة تمهيداً لترحيلهم إلى «باكستان»... وعندما سار بي في الشارع المهجور باتجاه منزلنا... رأيت زوجي... كان لا يزال ممدداً على الأرض جثة هامدة... إلا أنه كان على ظهره ووجهه نحو السماء. وعندما دخلت فناء الدار بصرت بجثتي ولديَّ! وجه كل منهما كان صوب الآخر فيما انتثرت أمعاؤهما بينهما! أما المنزل فقد سلب منه كل شيء! ولم يستطع «نجيب» كتم ضحكة داهمته فما تمالك ذاته:

ـ هذه بحد ذاتها نكتة! أنت مؤلفة رائعة! ـ قال ذلك واضعاً قلمه... مصفقاً ـ وجه كل منهما كان صوب الآخر فيما انتثرت أمعاؤهما بينهما هه... يا للوصف! رائع... حتى الموت... لم ينج من الوقوف على منصة التهريج! لا يتأتى ذلك إلا لسكان «دهلي» لقد قرأت نوادر التمرد كذلك لكن ذلك مدهش... وعاد يحمل قلمه كيما يستأنف الكتابة.

وامتقع لون المرأة حتى شادى شحوب الموتى وبدت شفتاها نصف المنفرجتين كفوهة بركان... وما كان ثمة دمعة في عينيها على أن نظرتها العاتبة الساخطة كانت كأنما هي قائلة له: أنت من أهل هذه المنطقة!

لا عجب إما بدت لك أمعاء الأطفال المنتثرة من بطونهم العجفاء نكتة رائعة!

وأدار القلم في يده ثم قال:

ـ هم م م ! ذكرت بأن المنزل قد تعرض للسلب!

وكان فمها كمدفع رشاش وهي تقول بانفعال:

أخذني ذلك الهندي الشهم إلى مخيم اللاجئين ثم نقلت مع غيري إلى سيادتكم... نقتات المعاناة والألم، ورياح الظلم تدفعنا في كل اتجاه يبلغنا غايتنا. بعد ثلاثة أشهر، وعندما وصلنا إلى محطة «والتون» تعين أن نمر عبر إحدى المقابر وكان مرأى ذلك غريباً نوعاً... جئنا يحدونا أمل في عيش كريم فإذا بنا نستهل ذلك بالمرور بين اللحود وساكنيها لقد خامرني إحساس داخلي محض بما سيكون، على أنه تحتم أن أعيش من أجل ولدي. وتوقفت فجأة ثم أجالت النظر فيما حولها قبل أن تهب واقفة في ذعر: ـ أين طفلي؟ سألته على أنها ما انتظرت جواباً... غادرت الغرفة من فورها.

وتناول نجيب كتاب الطرائف ثانية... وكان ثمة ضوضاء وضجة بالخارج أعقبه قدوم المرأة تحمل طفلها لتلقيه على الأرض مجدداً كلفافة أسمال.

ـ كان يأكل طنياً! هذا الـ «...» ابن الـ «....»!.

قالت ذلك ثم صفعته على خده... ونظر الرضيع إلى أمه واضعاً يده الصغيرة مكان الصفعة فيما يشبه الاحتجاج... وكأنما نطقت نظراته بـ:

«أأحرم من تناول أي شيء؟! حتى وإن كان طيناً؟!».

هذه المرة لم تتدل شفته السفلى واكتفى بالتحديق في وجه أمه بدهشة من يجهل ما يدور حوله من أحداث طاحنة... ثمة نظرة بائسة يائسة حزينة أطلت من عينيه وكأنما كانت تجأر بالشكوى أن:

«أأحرم من تناول ...!»

وشرعت المرأة تبكي بمرارة ثم حملت الطفل فاحتضنته وألصقته بصدرها ثم قالت بصوت راعش حاد:

ـ سجل لديك سيدي... إنني بائسة محرومة... لم أجد هنا مأوى في حجم مطبخ...صغير لهندي! لقد طاردني الشقاء والنحس طيلة حياتي... حتى القلة القليلة من أقاربي... تخلوا عني وشغلتهم صروف الحياة.

لقد حاولت أن أجد عملاً شريفاً يقيني وابني غائلة الجوع فساعدت في طحن الذرة على أن ذلك النزر اليسير من الدقيق الذي كان يدفع بمثابة أجر لي، لم يكن كافياً لسد رمقي ورضيعي، وعملت بعد ذلك في إحدى المهن المتواضعة قرب إحدى المقابر بيد أن العامل الأصلي عاد فجأة فطردني شر طردة... ذلك الطاغية لقد حمل ابني فدحرجه ككرة من المطاط ليسقط في قبر نصف محفور دعوت الله أن يحرمه من أعز من لديه وأن يصليه نار سقر التي لا تبقي ولا تذر!

ـ اخرسي! ـ قال لها «نجيب» ثم نظر إليها وهي تنوح وقد ضمّت في غضب قبضتها... عيناها كانتا بلا أجفان وجسدها كان يرتعش بانفعال جارف... كورقة تهزها ريح صرصر عاتية ـ وتابع: ـ تحدثي بتؤدة ورفق... يالك من ثرثارة لقد أضعت وقتي وأرهقت فكري وأطرت صوابي... وماذا تريدين أن أكتب أيضاً؟.

ـ ما تبقى سوى القليل يا سيدي! لقد ناشدت الخازن أن يمد لي يد العون لكنه

كان منشغلاً برحلة لصيد الغزلان، ولذا فلم يحفل لسماع شكواي وحاولت بعد ذلك أن ألجأ إلى مسؤول أعلى، بَيْد أن الحراس منعوني من الوصول إلى بابه. أما التسول فلا طاقة لي به...

لقد دأبت أجيال سبعة لعائلتي على التكسب بعرق جباههم فلم أشأ أن ألطخ سمعتنا بعد إذ جنى الدهر علي وكتب لي أن أرتع في حياض البؤس والفاقة! ورفعت المسكينة صوتها وهي تقول: «سيدي المسؤول الأكبر! لم يبق لي إلا أن أقول لك بأنه إذا ما قدر لك أن تأتي إلى هذا المكان فلا تنسني! امنحني ولو ما يعادل مطبخاً صغيراً لهندي. لقد بذلت دم قلبي وضحيت بكل ما أملك في سبيل هذا الاستقلال، ولقد سمعت من نساء رابطة حيّنا بأننا سنكون بعد تحرير أرضنا واستقلالنا عن الهند يداً واحدة في الشدائد، على أني لا أرى الآن شيئاً من ذلك... كلما يممت وجهي صوب قريبٍ قال ببرودة: ـ وماذا بوسعي أن أفعل؟ ما باليد حيلة! وهذا مجمله سيدي ليس له غير معنى واحد: أنك مصدر عوني الوحيد ـ بعد الله جل وعلا ـ وإن لم تردّ على خطابي هذا فسوف أحمل رضيعي وأقطع الفيافي والقفار سيراً على الأقدام حتى ألقى موكبك فأسألك! سوف أسألك...».

ـ عمّ ستسألينه؟ استفسر «نجيب» بعد أن أعيت ثرثرتها المتصلة يراعه ومداده، والشرر يتطاير من عينيه غضباً واستنكاراً كما لو كان هو صاحب الشأن المقصود.

وزاد إحكام المرأة على قبضتها فيما تمددت أوردة عنقها وبرزت، بينما حدق طفلها المتشبث بخصرها فيها بعينين فارغتين ملؤهما الخواء والبؤس.

ـ عم ستسألينه؟ أعاد السؤال!

ـ سأسأله ـ قالت بنبرة «تآمرية» ـ عن نصيبي من استقلاله المجيد.

ـ كلا! لن أكتب ذلك! قال نجيب واضعاً الورقة دافعاً المنضدة بقدمه قبل أن

يستدني كتاب الطرائف والملح مجدداً! ماذا صنعت لكي أغامر بكتابة هذا الخطاب الأهوج فأعرّض للتهلكة نفسي دون ذنب اقترفت.

إن ما أمليتِه عليَّ لهو كافٍ لمنحك حكماً بالسجن المؤبد يا امرأة!.

ـ ماذا .؟! ـ قالت المرأة مرخيةً قبضتها المشدودة بإحكام ـ كان عليك أن تطلعني منذ البداية على عقوبة كتابة ذلك... كيف لبائسة مثلي أن تعرف ذلك؟.

وتقدمتْ فسحبت الخطاب ومزقته نتفاً... ثم حملت طفلها وقالت: يا لي من بائسةٍ تعيسة خلت بأنه يمكن لأمثالي التعبير عما يؤرقهم من آلام وآمال.

وانطلقت مغادرةً المكان لا تلوي على شيء.

الروح التائهة

(The Lost Soul)

للكاتب الأمريكي: بن هيكيت

شارفت فيالق الفجر على نشر أشرعة النور على المدينة الحالمة بعدما أوشكت على طرد جحافل الظلام في معركة أزلية يُشهد لها بالانتصار فيها كل يوم، فيما استند إلى قضبان النافذة رجل جافاه النوم فما ذاق له طعماً، وشرع يتأمل عبر تلك النافذة الصغيرة فلول الليل الواهنة وهي تنسحب في هدوء وانكسار تجرّ أذيال وشاح عفّره ألق الفجر وثقبته نجوم الشتاء!.

وكان معه في الزنزانة شخصان جسيمان، أما وجهاهما فكانا منتفخين في إعياء وقد نمت لهما ذقنان شعثاوان بعد أن شغلهما ما كانا فيه من همٍّ عن كل شيء. وطفقا يرمقان جدران الزنزانة في صبر وصمود ثم التفتا إلى الواقف قرب النافذة واسترقا من فوق كتفه نظرة خجلى ألقياها على أولى خيوط الفجر البيضاء... على أن شخصاً رابعاً دخل فجأة عليهم!

وحياه الرجلان بوقار غير مألوف:

ـ مرحباً أيها الطبيب! قال أحدهما فيما تساءل الآخر:

ـ كم الساعة الآن؟

لم يكن باب الزنزانة مقفلاً فدخل الطبيب الذي تناول من جيب صدريته قلماً فضياً وشرع يدحرجه بين إبهامه وبقية أصابع يده، ثم ضيق عينيه حينما وقعتا على مصباح الزنزانة المتوهج العاري أعلى السقف وبدا غايةً في التوتر:

ـ مرحباً! قال.

والتفت إليه الواقف قبالة النافذة.... كان مبتسماً.

ـ كيف أنت الآن؟ قال الطبيب مواصلاً دحرجة قلمه الفضي. وهز الرجل رأسه بأدب ودود... غريب نوعاً:

ـ لم أنم جيداً! ـ أجابه ـ لا أظن القلق يجدي نفعاً... لكن.... حسناً... لقد كنت أتحدث مع هذين الرجلين الكريمين.... أحاديثهما الشيقة أنقذتني من قبضة الوحدة... يا سيدي أنا في مأزق غريب.... فأنا لا أدري من أكون!

وطرف الطبيب بعينه قبل أن يلتفت إلى الرجلين الجسيمين... بديا مبهمين غامضين كثورين، ثم وضع قلمه قبل أن يخرج حقيبةً جلديةً صغيرةً من جيب معطفه، فتحها والتقط منها سماعته.

ـ إجراء روتيني فحسب! ـ تمتم قائلاً ـ فك أزرار قميصك من فضلك!

ووضع السماعة على صدر الرجل وبعد فترة استماع قال:

ـ مدهش ـ حركة القلب طبيعية جدًّا.

وهز الجسيمان رأسيهما بآلية في آن، واحد. هناك دائماً تقليد معين لهزة الرأس وطريقة النظر إلى ذوي المهن يتّبعها عامة الناس احتراماً وتبجيلاً.

ـ لست أدري من أنا! واصل الرجل الواقف بجوار النافذة حديثه بنبرة عالية نوعاً وهو يعيد ربط إزاره: صحتي ممتازة... على أنه ليس لدي أدنى فكرة عمن أكون. وخلف كلماته لاحت ثانية تلك الابتسامة الحائرة المعتذرة.. الخجلى... حتى اسمي لا أعرفه. ليس عندي شك في أن المسؤولين يجتهدون في معرفة من أكون. إلا أن أعصابي لم تعد تحتمل. من حسن حظي أنني أتمتع بروح الدعابة وإلا... حسناً تخيل أنك قد وجدت نفسك مسجوناً فجأة دون سابق إنذار.. ودون أن تعرف من أنت ولا من أين أتيت... لابد وأن أحدهم قد التقطني وأنا أسير على غير هدى... ماعلينا.. لكني... لكني يا سيدي لا أجد مبرراً لوضع رجل في السجن هكذا... كان بإمكانهم إيداعي مكاناً أكثر احتراماً... المستشفى مثلاً أو أي فندق! لابد وأن عائلتي غاية في القلق عليّ الآن! أتدري أيها الطبيب! لقد دخلت في لعبة تخمين وتحدٍّ مع نفسي لاستشراف كنه من قد أكون...لابد مثلاً وأني متعلم مثقف... وأني ما تعودت أن أكون على السجون ضيفاً..

والتفت الطبيب إلى الرجلين فهزا مناكبهما في حيرة وحرج.

وألقى الطبيب على ساعته نظرة عجلى.

ـ كم الساعة الآن.

تسلل صوت أحد الرجلين في خجل.

وأطلق الواقف إزاء النافذة تنهيدة حرّى، ثم تابع كلامه فيما رفع الطبيب بحركة خفية ساعة معصمة إلى الرجلين كيما يستدلان على الوقت بها ففعلا وهزّا رأسيهما في امتنان.

ـ لقد فتشت كل جيوبي. أتى صوته ثانية ـ لكني لم أعثر على ماقد يدل على هويتي. ماوجدت منديلاً أو مفكرة أو ماسواهما! وإني لألقي على يدي نظرة فأعرف أنهما ليستا يدي عامل لا بدّ وأن...

وتوقف عن الحديث ثم شرع في حكِّ مؤخرة رأسه.

ـ ألا تتذكر مجيئك إلى هنا؟ سأله الطبيب محدقاً فيه النظر.

ـ كلا.. ليس بإمكاني القول بأني أتذكر ذلك ـ أجاب ـ إنني أعي تماماً كل ما يحصل لي راهناً.... أما الماضي!! وأغلق المسكين عينيه إثر ذلك فقطب جبينه. وتخلل حديثه ضحكة تهكم وألم قصيرة قبل أن يتابع:

ـ لا أشك أبداً في نزاهة وكفاءة الشرطة... وإلا لكانوا التقطوا لي صوراً لو كنت متهماً ـ كما كنت أقول لهذين السيدين.

ولأمكن لعائلتي... التعرف على مكاني عن طريق ذلك! لابد... وأني شخص مهم جداً! قال رامقاً الطبيب بنظرة غضب سريعة. وسحب الطبيب نفساً عميقاً قبل أن يسأله ثانية:

ـ ألا تتذكر؟.

ـ لاشيء... البتة... قاطعه الرجل في توتر ـ واستطرد قائلاً: أستميحك عذراً ـ لم أقصد أن أبدو بهذه الحدة ـ لكن وضعي قد سبب لي كل ذلك.. قد أكون شخصاً مهماً جدّاً بيده مصير واعتماد كثير من الناس.. لابد وأن حالتي الراهة تندرج تحت تسمية اصطلاحية طبية متعارف عليها.. لا أستطيع تذكر مسمى حالتي.. أيها الطبيب.... الأمر غاية في الغرابة!

قال الرجل ذلك ومن بين القضبان طفق يرسل نظرات تائهة حيرى... مطارداً أولى شعاعات الصباح الوضاءة.. رامقاً الأفق بنواظر يتأرجح فيها الأمل والألم واليقين والشك وتابع ـ

ـ لا أدري لِم يبدو الأمر لي مضحكاً أحياناً ـ قال مطلقاً ضحكة قصيرة ساخرة ـ حقيقة الأمر المؤلمة هو أنني قد أضعت روحي.. تاهت وغابت في مهامه المجهول.. أو أنني قد وضعتها في مكان آخر ثم نسيته ـ يبدو ذلك جليّاً ـ لابد وأني أنتمي إلى طائفة الظرفاء. لأن ما أنا فيه يدفعني إلى الضحك.. وشر البليّة مايضحك.. إنني على يقين من أن الآلاف كانوا سيشدّون شعورهم في إحباط وغضب لو أنهم أضاعوا أرواحهم أما أنا فـ.. ولانت ملامحه ثانية قبل أن يبتسم... فتتطور ابتسامته إلى ضحكة قصيرة.

ـ والله «إنه لصباح جميل! قال متمتماً فيما يشبه الذهول وهو يرنو إلى العالم الخارجي عبر قضبان النافذة مجدداً ـ أيها الطبيب ـ قال قبل أن يتجه صوبه فيما كان هو يرمقه بهدوء، والقلم الفضي يروح ويجيء بين إبهامه وبقية أصابع يده.. لما يزل: ـ

ـ لو أنني أستطيع استعادة اسمي ـ أيها الطيب ـ من أنا؟ من...

ـ اسمك هو.. قال الطبيب وما أتم جملته...! توقف بعد أن طرقت سمعه أصوات وقع أقدام عبر الردهة.. ودنت تلك الخطى. ثم ولج الزنزانة فريق من ستة رجال... ووقف الرجلان الجسيمان ثم هزا سيقانهما ـ وازداد قلق الطبيب... توجه إلى المجموعة القادمة وطفق يتبادل معهم حديثاً مقتضباً خافتاً.

ـ لا تقرأوها.. ذلك سيعقد الأمر أكثر أيها المأمور الرجل مصاب بفقدان الذاكرة.. لن تجديه استعادة ذاكرته نفعاً، بل إن ذلك سيزيد في مآسيه. دعوه يمضي على تلك الحال.

ـ حسناً ولكنه سيتكتشف الحقيقة عاجلاً! رد المأمور.

ـ لا أظن ذلك وعلى أي حال فسوف تحكمون وثاقة قبل أن تصل الحقيقة إليه و..

ـ حسناً. قال المأمور داسًّا ورقةً مطوية في جيبه ـ هيا:

ـ إلى الداخل! قال الطبيب لهم. ثم اتجه إلى الرجل الواقف إلى جوار النافذة.. والذي هز رأسه في طيبة وسكون وأمسك الطبيب بيده ثم قاده إلى حيث تقف زمرة القادمين فطوقوه من كل جهة.. وقف اثنان إلى كل جانب واثنان خلفه بينما وقف الرجلان الجسيمان أمامه أما الطبيب فكان لا يزال ممسكاً بيده، محدقاً في وجهه:

ـ المسألة ومافيها. قال الرجل المحاط بسياج بشري في حماس واندفاع كما لو أن دواراً كان يأرجح كلماته:

ـ ليس لدي أدنى علم بمن أكون على أنكم إن تحليتم بالصبر فقد يتعرف أحد أفراد عائلتي عليّ ـ يؤسفني أن أكون مصدر إزعاج لكم. أهذا أحد رجال الدين؟ أين تأخذونني... أرجوكم... لابد وأن أعرف يا إلهي!

ـ لم تكن هناك ثمة إجابة. في صمت.. اقتاد الرجال السيد «جيمس هارتلي» إلى حبل المشنقة. وفي عنبر الموت الطويل الكئيب جلس أكثر من مائة متفرج بانتظار وقائع إعدام ذلك المخلوق المشهور بـ «مقصلة الشيطان» والذي قام قبل أشهر بقتل زوجته وطفليه نياماً!

وولجت الجماعة إلى منصة المشنقة عبر باب مفتوح. وأعقبت ذلك فوضى عمت أرجاء المكان كان مصدرها جمهور النظارة... وأمام تلك الملامح الصاخبة برز فجأة محيّاه المذهول وشرع يرمق الناس في حيرة ووجوم.. فاغراً فاه، كان

كمن يهمُّ بإطلاق صرخة مدوّية... أما عيناه فكانتا زائغتين تدوران بذهول في محجريهما كنجم أضاع الطريق إلى نطاق الجاذبية. وشهق في فزع وحرقة بعد أن أحكم حول عنقه حبل أصفر لامع.

وتقدم رجل فألبسه رداء فضفاضاً فيما تقدم آخر نحوه بقلنسوةٍ بيضاء، وفجأة ندت عن ذلك الوجه الهلع صرخة عظيمة.....

واخترقت أجواء العنبر المثقلة بالدخان ثلاث كلمات كانت مشحونةً بكمٍّ هائل من الحزن والعذاب والنحيب حدًّا وقف معه المأمور متسمِّراً في مكانه! والقلنسوةٍ البيضاء في يده لما تزل.

ـ لست ذلك الشخص.. صرخ الرجل كالمسعور ـ أنا لست هو! ووقف المتفرجون وقد احتبست أنفاسهم محدقين فيه!.

بعد برهة.. كانت ثمة لفافة تدور وتتأرجح. في نهاية حبل أصفر طويل!.

تشارلز

للكاتب الأمريكي: شيرلي جاكسون Shirley Jackson

حينما التحق ابني «لوري» بالروضة تنكّر لبناطيله القطنية الفضفاضة واستبدلها ببنطال من الجينز الأزرق. ذي حزام.

ظللت أرنو إليه وهو يغادر المنزل في أول صبحية له في الروضة بصحبة ابنة الجيران الأكبر منه سناً... ودار شريط حياتي أمام ناظري... أتأمل تفاصيله بعين الخيال فإذا بي أكتشف أني أودِّع حقبةً من حياتي لن تعود. تأملت صغيري ذا اللثغة المحببة والصوت البلبلي... ذلك الذي استحال فجأة إلى صبي محدد السمات والشخصية والذي انطلق غير عابئ بشيء دون أن يتوقف عند المنعطف ليلوح لي مودّعاً!

وعاد إلى البيت كما ذهب... صفق الباب فيما رمى على الأرض بقبعته قبل أن يصرخ متسائلاً: ـ أما من أحد بالمنزل؟!

وعلى الغداء خاطب أباه بوقاحة وزاد على ذلك بأن سكب حليب شقيقته الصغرى وأشار إلى أن مُدِّرسته قد نبهت أن علينا ألا نجعل الله عرضة لأيماننا ولو كنا صادقين.

ـ كيف كانت الدراسة اليوم ـ سألته بنمطية متناهية.

ـ لا بأس ـ قال.

ـ هل تعلمت شيئاً؟ سأله أبوه.

ونظر «لوري» إلى أبيه في برود قبل أن يجيب: «لم أتعلم شيئاً»!

ـ أي شيء! سألته ـ ما تعلمت أي شيء؟.

ـ صفع المدرس اليوم طالباً على كفله. قال «لوري» و هو يضع شيئاً من المربى والزبدة على شريحة خبز «لأنه كان مشاكساً وقحاً». أكمل وفوه يمتلئ بما فيه.

ـ ماذا فعل، من ذاك المشاغب؟ ـ سألته.

وفكر «لوري» مليّاً ثم قال: «تشارلز» ـ لقد كان وقحاً ضربته المعلمة ثم جعلته يقف في زاوية الفصل ـ كان غاية في الوقاحة!

ـ ماذا فعل ليستحق ذلك؟ سألته مجدّداً!

على أنه تناول قطعة «بسكويت» ثم انزلق عن كرسيه بخفة ومضى وسؤال أبيه لا يزال معلقاً في غياهب الانتظار دون جدوى:

ـ اسمع.. أيها الشاب... هيه... تمهل!

ولا حياة لمن تنادي!

حالما جمعتنا مائدة الطعام في اليوم التالي... شرع ـ «لوري» فور جلوسه في سرد ملاحظاته ومرئياته:

ـ «تشارلز» كان سيئاً اليوم أيضاً ـ وابتسم ابتسامةً عريضة قبل أن يقول:

ـ لقد ضرب «تشارلز» المعلمة اليوم.

ـ يا إلهي! لابد وأنه قد تلقى جزاء رادعاً ثانية!

ـ بكل تأكيد! قال «لوري» ـ انظر إلى أعلى ـ قال لأبيه فجأة

ـ ماذا؟ قال أبوه رافعاً نظره إلى أعلى.

ـ انظر إلى أسفل ـ قال «لوري» انظر إلى سبابتي...

يالك من مغفل ـ قال لأبيه في وقاحة واسترسل في ضحك عميق.

ـ لماذا ضرب «تشارلز» المعلمة؟ سألته بسرعة.

ـ لأنها حاولت إرغامه على استعمال الألوان الزيتية الحمراء! قال «لوري» ـ فيما كان يفضل استخدام الألوان الخضراء ولذا ضربها فما كان منها إلا أن ألهبت كفله ضرباً ثم جعلته يقف في زاوية الفصل وأمرت الجميع بعدم اللعب معه لكن أحداً لم ينفذ ذلك.

في اليوم الثالث ـ وكان يوم الأربعاء من الأسبوع الأول ـ أطلق «تشارلز» طرف الأرجوحة على رأس فتاة صغيرة فأدماه فاستشاطت المعلمة غضباً وحرمته من اللعب طوال وقت «الفسحة». أما يوم الخميس فقد عاد «تشارلز» إلى الوقوف في زاوية الفصل خلال درس قراءة القصص لأنه ظل يطرق الأرض بقدميه. وحينما شرع في إلقاء الطباشير يوم الجمعة حرم من مزايا العناية بالسبّورة!

وعندما حلّ السبت كان القلق قد استبدَّ بي فكاشفت زوجي:

ـ أتظن أن مرحلة الروضة تشكل حالة من عدم الاستقرار لـ «لوري»؟ ألم تلاحظ ما آل إليه من فظاظة وسوقية تعابير وألفاظ؟ ثم ألا ترى أن ذلك الملقب بـ «تشارلز» هو من رفاق السوء أخشى أن يكون له تأثير سيئ على «لوري».

ـ لا تثريب عليه ـ قال زوجي مطمئناً إياي ـ ما أكثر أشباه «تشارلز» في حياتنا سيقابل «لوري»! أمثاله إن عاجلاً أو آجلاً.

يوم الإثنين عاد «لوري» إلى البيت متأخراً.... وقد ملئت بالأخبار جعبته: ـ

ـ «تشارلز» ـ صرخ «لوري» بأعلى صوته قبل أن يصل إلى حيث كنت أنتظره بقلق ـ «تشارلز» كان مشاغباً اليوم.

ـ هلمّ إلى الداخل ـ قلت له ـ الغداء في انتظارك.

ـ أتدرين ما فعل «تشارلز» اليوم؟ ـ سأل بإلحاح وهو يتبعني ـ لقد ظل يصرخ إلى حد اضطر معه مدرس المرحلة الابتدائية لإيفاد طالب ليبلغ المعلمة بضرورة إسكاته ـ وهذا ما حدا بالمعلمة إلى إبقائه في الفصل بعد انتهاء اليوم الدراسي عقاباً له..

ـ ماذا فعل؟ سألته.

ـ لقد ظل قابعاً في مكانه... قال «لوري» ذلك ثم تسلق كرسيه وقال مخاطباً والده:

ـ مرحباً أبي.. يامنفضة الغبار العتيقة!

ـ لقد أجبر «تشارلز» على البقاء بعد انتهاء الحصص اليوم. ومكث معه بقية الطلبة للتندر عليه. قلت لزوجي.

ـ ماشكل «تشارلز» هذا؟ سأله أبوه ـ وما هو اسم عائلته؟

ـ إنه أكبر مني ـ وليس لديه ممسحة، كما وأنه ولا يرتدي معطفاً أبداً.

مساء الإثنين كان موعد عقد مجلس الآباء والمعلمين ولم يمنعني من حضور ذلك سوى مرض طفلتي ـ لكم كنت متلهفة للقاء والدة «تشارلز».

أما يوم الثلاثاء فقد فاجأنا «لوري» حينما قال:

ـ اليوم جاء شخص لزيارة معلمتنا.

ـ والدة «تشارلز» مافي ذلك شك ـ قلت وزوجي بصوت واحد.

ـ كلا! رد «لوري» بسخرية وازدراء ـ هو رجل جاء ليعلمنا كيف نؤدي التمرينات الرياضية.. جعلنا نلمس أصابع أقدامنا بأطراف أصابع أيدينا...انظرا! وانزلق من كرسيه فانحنى متمثلاً ذلك ـ وأتبع «لوري» ذلك باعتلاء كرسيه ثانية وقال وهو يلتقط شوكته لم يؤدِّ «تشارلز» تلك التمارين.

ـ لا بأس ـ قلت بلطف ـ فهو إذاً لم يرغب في أدائها؟

ـ كلا.. عاد تشارلز إلى المشاركة فحرم من المشاركة مع بقية التلاميذ.

ـ شاغب ثانيةً؟ سألته.

ـ لقد ركل صديق المعلمة! ـ قال «لوري» ـ حينما طلب منه أن يلمس أصابع قدميه.

ـ ماذا تظنهم فاعلين بـ «تشارلز»؟ سأله أبوه!

وهز لوري منكبيه في شيء من اللامبالاة قبل أن يجيب:

ـ سيفصل من المدرسة فيما أظنّ:

يوما الأربعاء والخميس مرا كسابق الأيام. علا صراخ «تشارلز» في حصة قراءة القصص وضرب ولداً في بطنه فأبكاه. وأجبر على البقاء بعد نهاية اليوم الدراسي فمكث معه بقية الأولاد للفرجة والتندر؟

وبحلول الأسبوع الثالث من التحاق «لوري» بالروضة أصبح مدرسة مشاغبة متكاملة. حتى إن زوجي ـ حينما رآه يسحب عربة مليئةً بالتراب فتتسخ من جراء ذلك أرضية المطبخ ويَعْلَق مرفقه بسلك الهاتف ليقع ساحباً معه منفضة السجائر وآنية الزهور.. يرى زوجي كل ذلك فيردد في حرقة:

ـ يبدو تأثير «تشارلز» جليًّا.

في الأسبوع الثالث والرابع حدث «لتشارلز» ما يشبه الثورة الإصلاحية، تغير إلى الأحسن:

ـ لقد كان «تشارلز» منضبطاً اليوم حتى إن المعلمة قد أعطته تفاحة.

ـ ماذا؟ سألت في دهشة فيما تساءل زوجي بدوره:

ـ أتقصد «تشارلز» ذاته؟

ـ أجل ـ لقد قام بتوزيع الألوان الزيتية كما قام بجمع الكراسات لاحقاً فعينته المعلمة «عريفاً» للفصل.

ـ ماذا حدث؟ تساءلت غير مصدقة.

ـ عينته مساعداً لها... هذا كل ما في الأمر ـ قال هازًّا منكبيه.

ـ أيمكن أن يكون ما قاله عن «تشارلز» صحيحاً؟ سألت زوجي تلك الليلة أيمكن لشيء كهذا أن يحدث؟.

ـ ويأتيك بالأخبار من لن تزّود ـ رد ساخراً ـ لابد وأنه يخطط لعمل ما ويبدو أن زوجي كان واهماً إذ إن «تشارلز» كان غاية في الأدب والتعاون طيلة أسبوع كامل.. ولم يمكث أحد في المدرسة بعد انتهاء الحصص.

ـ سيعقد مجلس أولياء الأمور والمدرسين الأسبوع القادم ـ قلت لزوجي ذات مساء ـ وسأحرص على الالتقاء بوالدة «تشارلز».

ـ اسأليها عما حدث له فغيّره!

يوم الجمعة من الأسبوع ذاته عاد كل شيء إلى طبيعته.

ـ أتدرون ما فعل «تشارلز» اليوم؟ قال «لوري» في انفعال.

طلب من إحدى الصغيرات أن تردّد كلمة معينة مرتين بصوت مسموع فغسلت المعلمة فمها بالصابون! أما «تشارلز» فقد ضحك كثيراً.

ـ وماذا كانت تلك الكلمة ـ سأله أبوه في شيء من عدم الحكمة ـ فما كان من «لوري» إلا أن همس له بها.

ـ هل طلب «تشارلز» منها أن تقول ذلك؟

ـ لقد رددتها مرتين ـ قال «لوري» ـ امتثالاً لأمر «تشارلز».

ـ وماذا حدث «لتشارلز»؟

ـ لا شيء! لقد كان يوزع الألوان الزيتية.

يوم الإثنين ترك «تشارلز» الفتاة الصغيرة وردد الكلمة ذاتها ثلاث مرات أو أربعاً وكان فمه يغسل بالصابون في كل مرّة وزاد على ذلك بأن ألقى بالطباشير في نزق!

ـ حاولي أن تتحدثي إلى والدة «تشارلز» قال زوجي وأنا أودعه لحضور مجلس أولياء الأمور والمدرسين:

ـ أرجو أن أراها هناك ـ قلت له:

ـ ستأتي لاشك في ذلك. وهل يعقد اجتماع دون أم «تشارلز» قال مازحاً.

إبان الاجتماع ظللت أحدق في ملامح المحاضرات.. أستشرف محيا والدة «تشارلز» ولم أر وجهاً هدّه الإعياء والضنى.. لم تقف أم للاعتذار عما سببه ابنها من إزعاج وشغب لم يرد لـ «تشارلز» أي ذكر فواعجبي ـ قلت يومها لنفسي.

بعيد الاجتماع آثرت لقاء معلمة «لوري».. كانت تحمل صينية تحوي قدحاً من الشاي وقطعة من كعك الشوكولا فيما كنت أحمل صينية تحوي قدح شاي وقطعة من كعك حلوى الخطمي:

ـ كم أنا مشتاقة للقائك ـ قلت لها معرّفة بنفسي ـ أنا والدة «لوري».

ـ نحن جميعاً مهتمون «بلوري» ـ قالت.

ـ إنه مغرم بالروضة فهو يتحدث عنها طيلة الوقت.

ـ لقد واجهتنا بعض الصعوبات في التأقلم معه بادئ الأمر... قالت معلمته في هدوء ـ لكنه الآن قد تغير كثيراً ـ إنه عريف الفصل الآن.

وهو أكثر انضباطاً من ذي قبل إلا من تقلبات مزاجية بين الفينة والأخرى!

ـ من عادة «لوري» أن يتأقلم سريعاً ـ قلت ـ لابد وأنه متأثر «بتشارلز».

ـ «تشارلز»؟

ـ أجل ـ قلت ضاحكةً ـ لاريب وأنك مشغولة طوال الوقت بوجود «تشارلز» هنا.

ـ «تشارلز»؟ ـ أعادت التساؤل. ليس لدينا أحد بهذا الاسم هنا.

كحلم.... بغيض

للكاتب الألماني: هنريك بول Heinrich Boll

كنا تلك الليلة قد دعونا عائلة «الزومبن» لتناول العشاء وهم ـ إحقاقاً للحق ـ غاية في اللطف. تعرفنا بهم عن طريق والد زوجتي ذاك الذي ما فتئ مذ تزوجت ابنته يعرفنا بأناس لهم نفوذ فأفيد في مجال العمل منهم. ولم يكن السيد «زومبن» ليشذَّ عن تلك القاعدة فهو رئيس لجنة للتقاعد في مشاريع الإسكان الضخمة، فيما كان عملي ـ لحسن الطالع ـ في مجال حفريات المباني.

أعصابي ليلتها كانت مشدودة على أن بعلتي «بيرثا» هدأت من روعي: إن مجرد حضوره الليلة ـ قالت ـ لهو حدث واعد بحد ذاته، حاول فقط أن تمحور الحديث في مسألة العقد، فغداً ـ كما تعلم ـ هو موعد تقديم العروض.

وصوبت نظري عبر شبكة ستائر باب الزجاج الأمامي ـ منتظراً قدوم الضيف المرتقب ثم أشعلت لفافة رميت بعقبها بعد وهلة على الأرض فدست بقدمي عليه قبل أن أدفع به تحت حصيرة الأرجل... واتجهت بعد ذلك إلى دورة المياه فاتخذت لي خلف نافذتها موقعاً رحت من خلاله أفكر في السبب الذي دفع بالسيد «زومبن» إلى قبول دعوتنا لايمكن أن تكون لهفته على تناول العشاء معنا الباعث لذلك... كما وأن كوني أحد أصحاب عروض الغد ستسبب له ذات الحرج المضطرم في جوانحي، فيا له من موقف لا أحسد عليه ـ قلت في نفسي ـ.

وانساب تفكيري في ردهات عقد الغد ـ كان كبيراً غاية ـ وإن فزت به فلسوف أحصد عشرين ألف «مارك» أنا في أشد الحاجة إليها. كانت زوجتي «بيرثا» قد أعدت لي ملابس السهرة؛ معطفاً داكن اللون وبنطالاً أخف لوناً بدرجة وياقة رسمية... كان ذلك ما تعلمته من أسرتها... وكذا كانت بارعة في

كيفية التعامل مع الزوار... ماذا يقدم لهم ومتى وكيفية صنع الحلويات. إن من نعم المولى على المرء أن يحظى بزوجة كهذه. على أني استشعرت أن «بيرثا» كانت متوترة كذلك إذ إنها حين وضعت على منكبيّ يديها، مسّت أصابعها عنقي وكانت باردةً... نديةً نوعاً:

ـ سيكون كل شيء على مايرام ـ قالت ـ ولسوف تظفر بالعقد بإذن الله!

ـ يا إلهي ـ قلت ـ أقسم أني في حاجة ماسة لهذا المبلغ.

وتكدر محياها بسحب العتب:

«ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ولو كنتم صادقين» «لا تدخل ذلك في المسائل الدنيوية».

وتوقفت سيارة داكنة أمام بيتنا لم أتبين نوعها على أنها بدت إيطالية الصنع.

ـ هوّن عليك ـ همست «بيرثا» دعه يقرع الجرس ثم انتظر ثانيتين قبل أن تفتح لهم وئيد الخطى.

وتأملت السيد «زومبن» وهو يصعد الدرجات الموصلة إلى الباب.كان طويلاً رشيقاً بعوارض قد وخطها المشيب... ذاك النوع الذي كان الطراز المفضل للفتيات منذ خمسين عاماً. أما السيدة «زومبن» فمن تلك الفئة الطويلة السمراء التي تذكرني بالليمون. واستشفيت من الانطباع المرتسم على وجه الرجل أن الدعوة كانت مصدر ملل رهيب لهما كذلك!

ودق الجرس، فانتظرت ثانية وأخرى قبل أن أتهادى على مهل لأفتح لهما:

ـ مرحباً ـ قلت ـ كم نحن سعداء بحضوركما!

وتجولنا إثر ذلك في أرجاء بيتنا الذي رغبا في رؤيته... حاملين كؤوس الشراب معنا أما «بيرثا» فلزمت المطبخ عاصرةً بعض المايونيز على عدد من المقبلات التي صنعتها ببراعة على هيئات مختلفة.

وهنأنا الضيوف على جمال بيتنا وأناقته ثم تبادلا ابتسامةً عريضة حينما وقع بصرهما على درج مكتبي الكبير... ذاك الذي بدا لي أيضاً ضخماً ساعتها. وأبدى السيد «زومبن» إعجابه ببعض التحف والهدايا التي ازدان البيت بها. وحين عدنا من جولتنا الاستطلاعية كانت «بيرثا» قد وضعت الطعام على المائدة بشكل طبيعي بديع، وتناولناه في جو مريح بهيج. ثم تحدثنا عن الأفلام والكتب والانتخابات الراهنة وأبدى السيد «زومبن» إعجابه بتشكيلة الأجبان، أما زوجته فامتدحت القهوة والفطائر. وعرجنا على صور زفافنا فاستعرضناها معهما... على الساحل البريطاني وصور الحمير الإسبانية ومشاهد حديثة للدار البيضاء.

وتناولنا شيئاً من العصير بعد ذلك، وعندما قمت لإحضار صورنا أيام الخطوبة أومأت «بيرثا» لي فعدلت عن ذلك ولدقيقتين ران صمت عميق... إذ إننا كنا قد استنفذنا كل المواضيع المطروحة على ساحة النقاش. وفكرنا جميعاً بمسألة العقد إذ إنه لم يتبقّ سواه. فكرت في العشرين ألفاً مجدداً فيما نظر السيد «زومبن» إلى ساعته وقال:

ـ علينا ـ لسوء الحظ ـ أن نذهب فقد ناهزت الساعة العاشرة. كانت أمسيةً ماتعةً حقاً. وعلقت زوجته قائلة:

ـ سررنا بزيارتكم ونتمنى أن تردوا الزيارة قريباً.

ـ يسعدنا ذلك ـ قالت زوجتي ـ ثم مضينا ندردش ثانيةً لنصف دقيقة أخرى ونحن في فلك العقد لما نزل ندور. وشعرت بأن السيد «زومبن» كان ينتظر مبادرتي بالانتحاء به جانباً والدخول في صلب الموضوع بيد أنيّ لم أفعل. وودعناهما، ثم فتحت للسيدة باب السيارة، وعندما عدت قالت زوجتي بلطف:

ـ ما بالك قد أغفلت مسألة العقد؟!

وفي حيرة أجبت:

ـ عدمت طريقة أفتح بها الموضوع.

ـ اسمع! ـ قالت بصوت هادئ ـ كان بإمكانك استجلاب أي ذريعة لتنتحي به في مكتبك جانباً فتناقشان ذلك. لقد رأيت مقدار اهتمامه بالفن وكان بإمكانك أن تقول له: لدي تحفة تعود إلى القرن الثامن عشر إنها في غرفة المكتب. دعني أُرك إياها وعندها...

ولم أقل شيئاً أما هي فأطلقت تنهيدة حرّى ثم ربطت مئزر المطبخ فتبعتها إليه، ووضعنا بقية المقبلات في الثلاجة ثم زحفت على الأرض باحثاً عن غطاء علبة «المايونيز»، وأعدت المشروبات إلى البراد وأحصيت بعدها المتبقي من لفافات التبغ، ما دخّن غير واحدة، وأفرغت منفضة السجائر ثم أكلت قطعة حلوى وفتحت غطاء الإبريق بحثاً عن شيء من القهوة وعندما عدت إلى المطبخ ثانيةً كانت «بيرثا» تقف هناك ممسكةً بمفاتيح السيارة:

ـ ما الأمر؟ سألتها.

ـ علينا بطبيعة الحال أن نذهب إلى هناك ـ قالت ـ

ـ إلى أين؟

ـ إلى منزل عائلة «الزومبن» بالطبع! ماذا تظن!

ـ تجاوزت الساعة العاشرة والنصف!

ـ لا يهم. سنذهب حتى لو كان الوقت منتصف الليل ـ تتعلق المسألة بعشرين ألف مارك يا عزيزي. واتجهت إلى الحمام فمسحت الأحمر عن شفتيها قبل أن تعيد طلاءهما وتجدد وضع بقية المساحيق على وجهها...

كانت المقاهي مضاءةً في وسط المدينة والناس في صخب بعد إذ افترشوا المقاعد الخارجية. فأما الأنوار اللامعة لأعمدة الشوارع فكانت تنعكس على آنية البوظة والثلج الموضوعة على الطاولات خارجاً وشجعتني «بيرثا» بابتسامة حينما وصلنا منزل «الزومبن» على أنها فضّلت الانتظار في السيارة، وضغطت على

الجرس فهالتني السرعة التي فتح بها الباب لم يبد على وجه السيدة «زومبن» أي أثر للدهشة وهي تراني ماثلاً أمامها وكانت ترتدي رداء منزلياً طرزته أزهار صفراء فذكرتني بالليمون أكثر من أي وقت مضى:

ـ أستميحك عذراً ـ قلت ـ أرغب في رؤية السيد «زومبن»!

ـ لقد خرج ثانية ولسوف يعود بعد نصف ساعة.

في الردهة لمحت الكثير من التماثيل الثمينة:

ـ حسناً ـ قلت ـ أعود إذاً بعد نصف ساعة إن سمحتِ..

كانت «بيرثا» قد ابتاعت صحيفة مسائية انهمكت بين سحب الدخان في قراءتها وعندما جلست بجانبها قالت:

ـ كان بإمكانك تسوية الأمر معها!

ـ وكيف عرفت أن زوجها كان خارج المنزل؟؟

ـ لأني أعرف أنه يلعب الشطرنج بنادي «جافل»، ديدنه ليلة الخميس من كل أسبوع.

ـ كان بإمكانك إطلاعي على ذلك آنفاً ـ قلت في حسرة.

ـ أرجوك حاول أن تفهم ـ قالت «بيرثا» ثانيةً الجريدة ـ أرغب في مساعدتك أريد أن تكتشف بنفسك كيفية التعامل مع هذه الأشياء ـ كان بإمكاني الاتصال بوالدي ليتولى إنجاز كل شيء في غمضة عين على أني أريدك أن تحصل على العقد بنفسك.

ـ حسناً ـ قلت ـ فماذا نفعل ـ هل ننتظر عودته بعد نصف ساعة أم نذهب فنسوي الأمر معها عاجلاً؟

ـ بل أني أرى أنّ من الأفضل أن نصعد إلى هناك على الفور ـ ردت «بيرثا» ونزلنا من السيارة فاتجهنا إلى المصعد سوّياً:

ـ تقوم الحياة ـ قالت «بيرثا» على سلسلة من التنازلات والحلول الوسط؛ ولم تندهش السيدة «زومبن» حينما رأتنا بل حيتنا وتقدمتنا إلى مكتب زوجها ثم قدمت لنا شراباً وقبل أن أدخل في صلب موضوع العقد دفعت إليّ بملف أصفر كتب عليه «مشروع الإسكان الخاص بمنطقة شجر التَّنوُّب»... ونظرت في دهشة إلى زوجتي والسيدة «زومبن» فإذا بهما تبتسمان. ودفعت إليّ بملف آخر. افتحه قالت السيدة «زومبن» وفتحته فوجدت بداخله ملفاً آخر ورديّ اللون وعليه قرأت «مشروع الإسكان الخاص بمنطقة شجر التّنوب ـ أعمال الحفر» وفتحته فرأيت المبلغ الذي تقدمت به وقد تصدّر جميع العروض وبجانبه كتب أحدهم بقلم أحمر ـ أقل العروض ـ

وشعرت بسعادة جمةّ تتدفق مع نبض شراييني ولمع في خاطري مبلغ العشرين ألفاً!.

ـ والله أني لا أصدق ـ وهذه المرة نسيت «بيرثا» أن تؤنبني على ذلك وأغلقت الملف في هدوء.

ـ فلنحتفل بهذه المناسبة! قالت السيدة «زومبن» قبل أن تدير كؤوس العصير مجدداً ونهضت فقلت:

ـ قد أبدو فظاً لكني آمل أن تقدري رغبتنا في العودة إلى المنزل الآن!

ـ أفهم ذلك تماماً ـ ردت السيدة «زومبن» ـ على أن هناك أمراً صغيراً ينبغي إنهاؤه ـ وأخذت الملف فقلبت أوراقه ثم قالت: يتضمن عرضك مبلغاً أقل بثلاثين «بفنّج» للمتر المربع عن صاحب العرض التالي لك وأقترح أن ترفع عرضك بمبلغ خمسة عشر،وبذا ستظل الأقل سعراً وستتمكن من توفير أربعة آلاف وخمسمائة فرنك ـ هيا! بادر إلى ذلك ـ وأخرجت «بيرثا» من حقيبة يدها قلماً دفعت به إليّ، على أن الطوفان بداخلي أعاق ذلك! ودفعت بالملف إلى «بيرثا» ثم راقبتها تغير المبلغ بخط ثابت وتعيد الملف إلى السيدة «زومبن» والتي ما أن تلقفته حتى قالت لي:

ـ أخرج الآن دفتر الشيكات واكتب لي شيكاً بمبلغ ثلاثة آلاف فرنك ويجب أن يكون قابلاً للصرف ومجيّراً من قبلك!

كنت المعني بذلك لكن «بيرثا» سارعت بإخراج دفتر شيكاتنا وكتبت لها ما أرادت!

ـ ليس لدينا ما يغطي ذلك المبلغ ـ قلت بصوت منخفض!

ـ عندما تصرف الدفعة الأولى سيكون هناك ما يغطيه فلا تقلق! قالت السيدة «زومبن»!

ربما كنت قد فشلت في استيعاب ما كان يحدث آنذاك فعندما هبط المصعد عبّرت «بيرثا» عن غامر سعادتها أما أنا فلم أنبس ببنت شفة! واختارت «بيرثا» طريقاً مغايراً للعودة فمررنا بمناطق سكنية هادئة ورأيت الشرفات وقد أشرقت فيها الأنوار وجلس بها كثير من الناس يحتسون شراباً... منعشاً كانت ليلة صيف صافية سهر فيها القمر وتلألأت الأنجم.

ـ أظن أن الشيك كان للسيد «زومبن» قلت في هدوء، وبنفس الرقة أجابت: ـ بالطبع له:

وشرعت أتأمل أصابعها السمراء القصيرة على المقود... واثقة هادئة كانت، فجالت بفكري خواطر غريبة شتى... إنها ذات الأصابع التي توقع الشيكات وتعصر «المايونيز» على أني ما أحسست بشديد ألفة تجاهها! ذاك المساء ما ساعدت «بيرثا» في وضع السيارة بالمرآب، ولا في غسل الصحون بل صببت عصيراً صعدت به إلى مكتبي وجلست على المنضدة التي بدت حتى لي... غاية في الضخامة.. كنت أحاول استشراف كنه شيء ما... شيء غامض مجهول ... واتجهت إلى غرفة النوم وهناك ألقيت نظرة على إحدى التحف النفيسة على أني لم أدرك كنه ذلك الشيء.

وقطع رنين الهاتف تيار أفكاري وما رفعت السماعة حتى فوجئت بالسيد «زومبن»:

ـ لقد وقعت زوجتك في خطأ طفيف فقد رفعت السعر إلى خمس وعشرين بدلاً من خمسة عشر.

وفكرت لثانية ثم أجبته:

ـ لم يكن ذلك خطأ فقد طلبت أنا منها ذلك.

وبعد صمت دام ثانيتين قال ضاحكاً:

ـ إذا فقد تباحثتما في كافة الاحتمالات المطروحة.

ـ نعم ـ أجبته.

ـ حسناً فأعدّ إذاً شيكاً آخر بألف فرنك!

ـ بل بخمسمائة ـ قلت ـ وفكرت... أنه كحلم سيئ... ككابوس، أجل ذاك هو.

ثمانمائة ـ جاءني صوته ـ وقلت بدوري ضاحكاً ـ ستمائة!

وكنت أعلم ـ دون سابق تجربة ـ أنه سيقول سبعمائة وخمسين وعندما قال ذلك قلت نعم ووضعت السماعة.

لم تكن الساعة قد ناهزت منتصف الليل عندما ركبت السيارة لأعطي السيد «زومبن» الشيك المطلوب ـ كان وحيداً حينما وصلت وضحك وأنا أناوله الشيك المطويّ... وعندما سرت تجاه البيت وئيداً أدهشني أن «بيرثا» لم تكن هناك... لم تأت إليّ عندما ذهبت إلى غرفة المكتب ولم أرها عندما ذهبت إلى الثلاجة لشرب كأس من الحليب البارد وكنت أعلم ما يدور ببالها كانت تقول لنفسها: دعيه يفهم كل شيء بنفسه ويعتمد على ذاته على أني لم أفهم أبداً... كان استيعاب ذلك كله وراء حدود الخيال!

مفتش المدارس

للكاتب الباكستاني: م آثار طاهر

استفسر المفتش من فلاّح كان يحمل محراثه إلى سقيفة نجّارٍ أسفل الشارع عن المدرسة.

ـ آه... أجل هنا مدرسة في مكان ما... وأعتقد أنها خارج القرية. وأشار بإصبع مشققة طلاها الغبار إلى الطريق الطالع من القرية.

كانت الشوارع مليئة بالمطبات والطين و تسرب إليها كثير من المياه النازحة من البيوت الطينية... فيما اتشحت أخرى سلمت من الماء ـ بالغبار ـ وانتهت تلك الشوارع فجأة حيث بدأت الحقول فما كان من المفتش إلا أن سار عبر درب رطب بين حقلين. وعلى بعدٍ بصر بسائق دراجة متجهاً ناحيته وما أن اقترب منه حتى توقف سائق الدراجة ونزل عنها قبل أن يقف باحترام له:

ـ أين المدرسة ؟

ـ المدرسة؟

ـ أجل!

أترى شجرة الشيشام تلك ـ قال الدراج ـ مشيراً إلى شجرة بعيدة ـ إنها تحتها.

ـ هل بإمكانك أن تأتي معي فتريني إياها؟

وغمرت القروي موجة زهو إذ إنه قدر له أن يمدّ يد العون إلى سيد جليل من المدينة وأعلن على الفور موافقته. وشعر بالفخار يكلل هامته تارة أخرى، إذ تخيل نفسه ومدير المدرسة وطلابها أو أي عابر قروي ينظرون إليه وهو بصحبة ذلك الباشا... شأنه لاشك سيعلو في قريتهم الغافية... وأحس لذلك بشيء من العجب والتيه انتفخ لهما صدره... وسارا سوياً.

ـ إنه رجل رائع يا سيدي «المدير أعني» ـ وهو يعمل بجد ودأب، ولم يجب مفتش المدارس ـ لقد أضحت عملية البحث عن المدارس عبر القطاعات استنزافاً لصبره وجلده ـ في المدن القذرة والأقاليم النائية والمراكز المثقلة بالدخان والغبار وفي القرى النائية حيث الطرقات ضيقة لا يمكن لسيارته «الجيب» أن تسير عبرها... والوضع الكئيب لذلك كله كم يبعث الحزن في النفوس... ويمتاح الإحباط والألم... كان عليه أن يعتاد ذلك عبر سنوات عمله الثلاث... لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة... فكل مدرسة كانت منبع وجع محض... نقص المؤن... لامبالاة الناس ـ تسيّب الطلبة وعتوّ المعلمين كان ذاك كثيراً جداً. ثم... ما الذي بوسعه أن يعمل؟ توصيات وتوصيات ترفضها إدارة التخطيط والتنمية تلك التي تخطط قليلاً وتطور أقل من القليل!.

ومر بحقول محروثة وأخرى قد اخضلّت بخضرة القمح البكر ـ وتجمعت المياه في أحد المواضع مشكلةً مستنقعاً تجمعت المياه فيه فركدت، فيما كانت الحشرات تطير فوقه أو تزحف على سطحه وعندما دنيا منها ارتفعت فجأة وقد علا طنينها... وروّح مفتش المدارس على وجهه طارداً إياها فيما كان الفلاح يسير دافعاً دراجته بخطوات واسعة رشيقة وأجراسها تهتك أستار السكون. كان حذاؤه ـ الذي ذهب لونه ـ مرقعاً في أماكن عدة فيما كانت رقعة الكعب تودّع موضعها في حرقة، ووجد المفتش صعوبة في السير بمحاذاته... ومرا بحقل ذرة في أكوازها لما تزل، وخلف الحقل سمقت شجرة «الشيشام» ! كانت شجرة ظليلة على حافة حقل حرث منتظراً طور نثر البذور، إلا أن أحداً لم يكن هناك... واستاء الريفي:

ـ لقد كانت المدرسة هنا ـ أنا متأكد من ذلك ـ قبل حرث الأرض على أقل تقدير!

ـ ثم؟

ـ لابد وأنها انتقلت إلى موقع آخر!

ـ ولكن... المبنى...؟

ـ المبنى؟!

أليس هناك مبنى؟

ـ كلا سيدي ـ لا مبنى هناك البتة، إن الناظر ينقلها معه ـ وأنى ذهب ارتحلت معه. وأبصر الريفي فلاحاً يحمل مجرفة على بعد حقول عدة، بعد أن أعيتهما الحيلة:

ـ هيه.. أنت ـ صاح فيه.

وتوقف الجسد المحني عن الجرف قبل أن يعتدل. كانت الشمس ساقطةً في عينيه فظللهما بيديه ونظر إليهما:

ـ أين المدرسة يا صاح ـ هنا أستاذ من المدينة ليراها.

ـ مدرسة؟ إن الأولاد بجانب حقل القصب، لقد رأيتهم على ما أظن متجهين إليه هذا الصباح ـ صاح الفلاح مجيباً.

كان حقل القصب كثيفاً غنياً بالمحصول فيما امتدت سيقان النبات في شموخ... وقد اصطبغت ببقع رمادية الاخضرار... وحمراء داكنة وغابت ذراها في رقصة نشوى متمايلة مع هزات النسيم. وفي الجهة الأخرى كانت هناك حقول عديدة قد حرثت وآن بذارها. ونظرا حولهما... لم يكن هناك أحد.

ـ لقد ذكر حقل القصب! قال الريفي في دهشة.

ـ أجل ـ قال المفتش ـ بات الأمر مملاً.

ـ ر بما كانت في الناحية الأخرى!

ـ اسمع! اذهب أنت وتحرّ عن ذلك ـ وعندما تجد المدرسة أخبرني ـ قال مفتش المدارس ماسحاً حاجبه.

وطرح الريفي دراجته جانباً وانطلق يبحث عن المدرسة المفقودة.

أما مفتش المدرسة فقد جلس مجيلاً بصره في الأرض السمراء والمحصول الماثل أمامه... في الاخضرار الممتد أمام ناظريه باهياً زاهياً... وقد تفاوتت درجاته وظلاله حتى إذا ما لامس طرف السماء كان في أوهاها.

ولم تكن ثمة غيمة في السماء... نعقت بضع بومات في أشجار بعيدة وحلّقت بعض الحِدَأ عالياً في كسل فيما عبرت فوقه عصافير جذلى مترنمة.

وسمع فجأة صياحاً عالياً ولما التفت حوله أبصر الريفي يعدو في اتجاهه وهو يومئ له، ونهض مفتش المدارس ـ فأحس تشنجاً في عضلاته لقد كان بلا لياقة... وهو يعرف ذلك جيداً ـ وراح يلوم نفسه ـ لابد وأن يفعل شيئاً فيما يختص بذلك! إنه يجلس في مكتبه، ويجلس في سيارته الجيب ثم ينهي ذلك السياق الطويل من الجلوس... بالجلوس في الكرسي الوحيد في المدارس التي يزورها.

ـ لقد وجدتها! قال الريفي الطيب باسماً متهللاً وهو يتقدمه كي يريه ضالّته!.

على أن مفتش المدارس تردد لوهلة ـ قد يتعرض للسرقة في ذلك الحقل الكثيف ولا شاهد هناك... وأخذ طريقه بعد لأي، ورؤوس القصب الخضراء تجرّح يديه ووجهه. وثنى ذراعيه فوق رأسه، لكنه تعثر مرات عدة لصلابة الأرض تحته وتبع السيقان المهتزة المفعمة بالضجيج حتى وصل إلى وسط الحقل وهناك... وفي بقعة قصّت أعواد القصب فيها فبدت ملساء، جلس أربعون طالباً القرفصاء على الأرض الجرداء... لم يكن تحتهم بساط يقيهم صلابة الأرض تحتهم... كان الهدوء يلفهم برداء يبعث الراحة في النفوس بدا ذلك جلياً لمفتش المدارس الذي قارن ذلك بصخب عيدان القصب إبّان توجهه إليهم.

واهتزت الرؤوس جماعياً في محاولة لحفظ جداول الضرب فيما انحنى قسم منهم على ألواحهم يستذكرون ما دوّن فيها... ووضعت بعض الألواح تحت الشمس كيما يجفّ مدادها الرطب. وجلس مسنّ يحمل عصا على كرسي مهلهل

متداعٍ... واهن... رمّم مرات عدة ودعّمت أطرافه بشرائح حديدية ثبتت فيه بمسامير أما ظهر الكرسي فقد ثبت بألواح ركبت على إطاره الأصلي... ذاك الكرسي الذي نسج وظهره ـ إبان ازدهاره ـ بالرَّوطان «أسل الهند» قد سمّر الآن بخليط من ألواح شتى.

ونهض معلم الصبيان فجأة وقدمه تبحث عن فردة حذائه:

ـ وقوف! صاح المرشد آمراً بالإنجليزية. وهب التلاميذ وقوفاً... ماسحين ما علق بظهورهم من غبار. واستغرق المعلم بعض الوقت كيما يتمالك نفسه فقد أذهله حضور المفتش، ونفض الغبار عن الكرسي الذي ترأس به طلبته، بقطعة قماش كانت فوق كتفه قبل أن يقدم المقعد للمفتش. ووقف الريفي منتظراً إشارة ما لكن المفتش شكره فاختفى كما جاء.

ـ حضور ـ احترام ـ حضور. صاح المعلم!.

ـ إذاً فهذه هي المدرسة ؟ قال المفتش مجيلاً بصره فيما حوله وقد قطب جبينه ـ وابتلع المعلم ريقه بصوت مسموع:

ـ نعم سيدي.

ـ وما الذي تدرّس لهم؟ وسمعه المفتش يزدرد ريقه بصعوبة ثانيةً:

ـ إني أدرسهم الأردو والحساب والإنجليزية والكتابة سيدي.

ـ من الكتب المقررة؟.

ـ من المقررات سيدي.

قال ذلك قبل أن يسلم المفتش مجموعة من الكتب المغبرة الرثة كانت تحت رجل الكرسي.

وجال المفتش بإصبعه عبر مقرر «الأردو» ثم توقف عند أحد فصوله وأمر طالباً أن يقرأ.

ونهض الصبي لكنه سرعان ما دلف في ردهات الارتباك والصمت!

ـ سيدي هذا كتاب للصف الرابع وهو طالب في الثاني!

ـ كم فصلاً لديك هنا ؟

ـ ستة سيدي ـ من الفصل الأول حتى السادس.

ـ وتبين للمفتش أن ما خاله مجموعة واحدة كانت في الواقع ستّاً!

ـ هذا هو الفصل الرابع سيدي! قال المعلم مشيراً بعصاه.

ـ اقرأ أنت ـ قال المفتش آمراً أحدهم.

ونهض الصبي فشرع يقرأ ـ كانت قراءته واضحة عالية النبرات.

لم يخطئ البتة، كما لم يتتأتأ.

وبدا جلياً أن المعلم قد استردّ كثيراً من ثقته بنفسه تبعاً لذلك.

ـ اسأل فصلاً آخر سيدي ـ قال المعلم بحماس!.

وطلب المفتش من الفصل الثاني إجراء بعض عمليات الجمع فأتمها معظمهم بطريقة صحيحة. وقرأ طالبان من الفصل الأول الحروف الأبجدية دون خطأ بالطريقة الإيقاعية التي ساعدت على إجادتها صمًّا، وهم يتأرجحون في أماكنهم إلى الأمام والخلف، وتلا طالب من الصف السادس نشيداً بالإنجليزية بادئاً ومنتهياً على النسق الإيقاعي ذاته، وفكر المفتش... إنْ كان يحفظه عن ظهر قلب فشيء رائع... أو كان ضمن المقرر وهو ما يشك فيه فذاك أروع وعلى أي حال فقد كان المستوى الذي لحظه، فوق ما يُتوقع من طلبة المرحلة الابتدائية في المناطق الواقعة ضمن نطاقه حقاً... إنّ هذا المعلم يستحق ما اكتسبه من سمعة كالذهب.

ونهض مفتش المدارس وقد أثلج ما رآه صدره وسُمِعَ لكرسيه صرير فيما بدا المعلم مبتهجاً باشًّا مسروراً.

ـ وقوف/ صاح المرشد. بدا صوته أعلى من ذي قبل ـ وخرج مفتش المدارس أما المعلم فتبعه حاملاً عصاه. ستتحدث القرية وما جاورها عن ذاك الحدث أياماً عدة... وتنفس مفتش المدارس الصعداء حال خروجه من الحقل:

ـ لماذا تتنقل بمدرستك على هذا النحو ـ أليس بوسعك استئجار غرفة؟

ـ أستأجر سيدي؟!!!

ـ حسناً... لم لا تفعل؟

ـ كلاً لا أحد يرضى أن يعطينا غرفةً واحدة سيدي ـ إنهم لا يريدون مدرسة هنا ـ لقد أوضحوا ذلك مراتٍ عدّة ـ إذ إن كثيراً منهم يرون في التعلم مضيعة لأوقات الأولاد الذين يعتقدون بأن عليهم إزجاء الوقت في عمل نافع مفيد بدلاً من اللهو الدراسيّ! وبأنه حريٌّ بهم أن يساعدوا آباءهم في الحقول ورعي الماشية ـ لكن السيد «شادري علي محمد» الزعيم... هو الوحيد الذي ينظر إلينا بعين التفهم والعطف يا سيدي. إنه يدرك الأهمية القصوى للتعليم ـ إنه لا يستطيع تأمين غرفةٍ لنا أو حتى قطعة أرض لكنه منحنا ظل شجرة الشيشام التي يملكها لنتفيأه طوال الموسم حتى حل أوان حرث أرضها، وها نحن هذا الموسم نستخدم حقل القصب الذي يملكه.

ـ جميل أن قام بإخلاء وسط الحقل وإعداده لكم.

ـ نعم سيدي جميل أن يسمح لنا بتنظيف وسط الحقل ـ لقد قمت والأولاد بجني القصب في هذه البقعة سيدي ـ واستغرق العمل منا أياماً ثلاثة ـ حتى طلبة الفصل الأول عملوا معنا بكل دأب من الثامنة صباحاً حتى صلاة المغرب وبعدها كان لزاماً أن نتوقف عن العمل لحلول الظلام. وكنا نربط المحصول في حزَم نحملها على عربة السيد «شادري» التي كانت تجرها العجول. لقد قال السيد «شادري» بأن علينا أن نثمِّن التعليم ونقدّره فكانت تلك هي الطريقة

الوحيدة لإثبات ذلك. وخلع معلم الصبيان عمامته البيضاء فبدا أعلى رأسه وقد توسطت بقعة صلعاء شعره المطليّ بالحناء... كانت ثمة دموع تترقرق في مقلتيه... وتغير صوته لوهلة فبدا أجشًّا بعض الشيء متهدّجاً.

ـ لقد فقدت شعري لكثرة ما حملت على رأسي من رزم القصب. واعتمر عمّته ثانية ثم نظر إلى البعيد مشيحاً ببصره... وشرعا يمشيان جنباً إلى جنب... مفتش المدارس ومعلم الصبيان الذي كان يسير في خطى غير مستقيمة.

ـ سيدي! فقط لو كان لدنيا غرفة... غرفة واحدة فقط!.. قال المعلم في نبرات هادئة، فإن لم تكن غرفة فقطعة صغيرة من الأرض وسوف نبنيها... الأولاد وأنا... قد يستغرق الأمر فصلاً كاملاً... لكننا سننجز ذلك إن شاء الله.

ومضى مفتش المدارس في طريقه قُدما... دون أن ينبس ببنت شفة.

ـ أعلم سيدي أني قد أكون مغالياً بطلب رقعة أرض وبأنه لا أحد يرغب في وجود مدرسة هنا ولكني أرحب بإعطائنا أرضاً في أي مكان كان. هناك أرض في الناحية المهجورة من القرية سوف أكون سعيداً بإنشاء مدرسةٍ هناك سيدي هذا أفضل من....

لكن مراقب المدارس كان يلوذ بالصمت! صمت مطبق رهيب! يكاد يرى الاقتراح يرفض... هو واثق من ذلك إذ إن الحكومة لم تكن تسمح بتخصيص أرض لمدرسة ابتدائية... كان على الناس أن يقوموا بتأمين ذلك، فكيف سيتغير ذلك الآن؟ القانون هو القانون... وتنهّد في حسرة... قطعة أرض صغيرة... ثم؟... كم من المعلمين كانوا بمثل إخلاصه وتفانيه! كم منهم كان يهتم بذلك وكم منهم كان بإمكانه مواجهة لامبالاة كهذه... كلا لم يستطع استرجاع حالة واحدة طيلة سني عمله الثلاث... وركب سيارته الجيب فرد سلام المعلم البشوش بإيماءة من يده قبل أن تنهب عربته الطريق.... لم يستطع... كلا لم يستطع مواجهة نظرات الرجل المتوسلة.

المليونير النموذج

للكاتب البريطاني: لأوسكار وايلد

إن لم يكن الشخص غنيًا وذا مال فلا حاجة له بأن يكون وسيماً، إن الرومانسية هي من حقوق الغني وهي قصر عليه دون الفقير، الذي يتحتم عليه أن يكون عمليًا وعاديًا، ومن الأفضل للمرء أن يكون ذا دخل ثابت من أن يكون ساحراً خلاباً، تلك هي الحقائق الثابتة للحياة الحديثة وذلك ما لم يلحظه «هيوي ارسكاين»... مسكين أنت «يا هيوي»... إن علينا في حقيقة الأمر أن نعترف بأنه لم يكن ذا أهمية عظمى فهو لم يقم بعمل رائع أو خلافه طوال حياته... على أنه كان بهيَّ الطلعة... ذا شعر فاحم ناعم يهدهده النسيم إذا ما هب... وذا ملامح أحسن الخالق صنعها... إضافة إلى تميزه بعينين رماديتين وكان محبوباً لدى الجميع... بارعاً في كل شيء عدا تحصيل المال. ورث عن أبيه سيفه الشهير ومجموعة من المجلدات، فعلق الأول ونسق الكتب بجانب أخرى على أحد الأرفف وظل يعيش على مائتى جنيه في العام... هي كل ما سمحت له به عمة عجوز وهو في حقيقة الأمر قد بذل غاية جهده وجرب كل الأعمال. بدأ بسوق تبادل الأسهم وبقي فيها ستة أشهر ولكن ما تفعل نحلة وسط ثيران ودببة. وعمل في تجارة الشاي بعد ذلك وسرعان ما ملّ... ثم كرس نفسه للمتاجرة في الشراب ففشل وانتهى به المطاف إلى لا شيء وعاد كما كان... رجلاً وسيماً يسر الناظرين و... دون عمل. ومما زاد الأمر صعوبة أنه كان غارقاً في حب «لورا مرتون» وهي ابنة كولونيل متقاعد أضاع صبره ورباطة جأشه في الهند ولم يعثر عليهما ثانية.

وبادلته «لورا» حبًا بحب وكان مستعدًا أن يعمل من أجلها كل ما يمكن عمله... كانا سويًا أجمل وأنسب اثنين في لندن، ورغم أن الكولونيل كان شغوفاً بابنته إلا أنه لم يكن ليسمح بأن تذكر الخطوبة أمامه.

عد إلي يا بنيَّ متى ما استطعت أن تجمع عشرة آلاف جنيه... عندها سوف نرى ما يمكن عمله. هذا ما اعتاد الكولونيل أن يقوله لـ«هيوي» فتكسو سحب الكآبة فؤاده ويلجأ إلى «لورا» طالباً مشورتها.

وذات صباح عندما كان في طريقه إلى منتزه «هولندا» حيث تقطن عائلة «المرتون» توقف لزيارة صديق حميم له هو الرسام «آلن تريفور» ولم يكن ينجو من تلك المهنة تلك الأيام إلا القليل، إلا أن «تريفور» كان فناناً كذلك والفنانون هم الندرة. وقد كان «آلن» فظاً في تعامله وله وجه غطاه الكلف ولحية شعثاء حمراء على أنه كان متى ما أمسك بالريشة أستاذاً حقاً مما جعل الجميع يتهافتون على شراء لوحاته، وكان بحكم طبيعته كفنان متذوق لجمال الخُلُق مشدوداً إلى «هيوي» وهو قد اعتاد أن يردد، أن معرفة الفنانين يجب أن تقتصر على من حباهم الله جمال الروح ورجاحة العقل، وهم دون سواهم ملاك الحق في أن يحكموا العالم. ولقد زاد إعجابه وتقديره لـ«هيوي» بعد أن لمس فيه روحاً خلابة متوثبة ونفساً كريمة متزنة مما جعله يخلع عليه ميزة الدخول إلى مرسمه أنى شاء.

عندما دلف «هيوي» إلى المرسم، رأى آلن يضع اللمسات الأخيرة على لوحة لمتسول وكانت لوحة رائعة أما المتسول نفسه فكان واقفاً على منصة مرفوعة في زاوية من المرسم.... رجل ملأته الحياة حكمة ووقاراً وتغضن وجهه حتى بدا كورقة مجعدة فيما ارتسمت على محياه أقسى آيات التعاسة والشقاء وعلى كتفه علقت أسمال بالية لمعطف لطخته البقع والدموع، أما حذاؤه فكان في كل موضع منه رتق، وكان يتكئ على عكاز غليظة فيما امتدت يده الأخرى بالقبعة أملاً في شيء من كرم المحسنين.

ـ ياله من نموذج مدهش! همس «هيوي» مصافحاً صديقه.

ـ نموذج مذهل؟ ـ صرخ الرسام بأعلى صوته ـ ربما كان الأمر كذلك فأنت لا تجد الكثير من أمثاله في أيامنا هذه ولو كان «رامبرانت» هنا لعمل منه تحفة نادرة!

ـ يا له من رجل مسكين ـ قال هيوي ـ كم يبدو تعيساً ـ أظن أنكم معشر الرسامين ترون رأسماله يكمن في تعابير وجهه.

ـ بالطبع! لا أخالك تتوقع أن يبدو المتسولون سعداء أليس كذلك؟

ـ وكم يتقاضى النموذج منهم ليقف أمامك ـ سأل «هيوي» بعد أن استقر في مقعد مريح.

ـ شلناً في الساعة.

ـ وبكم ستبيع صورتك هذه يا «آلن»؟

ـ مقابل هذه... أحصل على ألفين.

ـ ألفا جنيه؟ أظن أن من حق النموذج أن يحصل على نسبة من ذلك ـ قال «هيوي» ضاحكاً: أنهم يتعبون مثلكم تماماً.

ـ هراء... محض هراء! انظر كم من الوقت نمضيه بين الألوان وقوفاً طوال اليوم من السهل عليك أن تقول ذلك يا هيوي لكني أؤكد لك بأن الفن قد يبلغ أحياناً مرتبة العمل اليدوي على أنه يستحسن أن تتوقف عن الثرثرة قليلاً فأنا جد مشغول... دخن سيجارة والزم الصمت.

ودلف الخادم بعد وهلة فأبلغ «آلن» بأن عامل البرواز يود التحدث إليه.

ـ لا تهرب يا «هيوي»، سأعود بعد دقيقة واحدة، وانتهز المتسول العجوز الفرصة ليرتاح قليلاً على مقعد خشبي كان خلفه ـ وبدا بائساً... وحيداً... كئيباً إلى حد أحس «هيوي» معه بشفقة عليه جارفة... وتحسَّس جيبه ليرى ما معه من مال فوجد عملة معدنية وجنيهاً ذهبياً. يا له من عجوز مسكين! ما من شك في أنه أكثر مني احتياجاً له ولكن ذلك يعني أنه لن يمكنني كراء مركبة ليومين. سأضطر إلى السير مشياً واتجه إلى العجوز فوضع الجنيه الذهبي في يده.

جفل العجوز قبل أن ترتسم ابتسامة واهنة على شفتيه الذابلتين.

ـ شكراً سيدي ـ قال ـ شكراً.

وعاد «آلن تريفور» فاستأذن «هيوي» خارجاً وقد تضرج وجهه خجلاً من جراء ما قام به... نال من «لورا» بعد ذلك شيئاً من التأنيب ثم عاد إلى منزله مشياً على الأقدام.

في تلك الليلة التقى «هيوي» بـ «آلن تريفور» في النادي فجلسا يتجاذبان أطراف الحديث.

ـ حسن يا «آلن» هل أنهيت رسم اللوحة؟ قال هيوي مشعلاً سيجارة.

ـ نعم يا بني وبروزتها أيضاً ـ رد «تريفور» وبالمناسبة فقد سجلت اليوم فتحاً كبيراً.

ذاك النموذج العجوز الذي رأيته ممتن لك غاية الامتنان ولقد اضطررت إلى إخباره بكل شيء عنك من أنت وأين تعيش ـ وعن دخلك وآمالك وتطلعاتك.

ـ يا عزيزي «آلن» ـ سأجده بانتظاري إذاً لدى عودتي إلى البيت ـ لكن لا بد وأنك تمزح ـ يا للمسكين! كم بودي عمل شيء من أجله. إني لأظن أن بلوغ شخص من التعاسة مبلغه هو أمر مريع، لدي أكوام من الملابس القديمة أتظنه يريد شيئاً منها؟.

أسماله البالية تكاد تهوي مزقاً!

ـ لكنه يبدو رائعاً فيها. قال «آلان» ـ لن أرسمه في حلة قشيبة أو بزة مهيبة مهما كلّف الأمر. إن ما تسميه أسمالاً هو بالنسبة لي ضرب من الرومانسية الفريدة وما يبدو لك فقراً مدقعاً هو في نظري موضوع فريد لتحفة رائعة على أني سأبلغه بعرضك.

ـ حقاً إنكم بلا قلوب معشر الرسامين!

ـ قلب الفنان يكمن في رأسه ـ «رد آلان» وعلاوة على ذلك فإن عملنا هو إدراك كنه العالم لا إصلاحه ـ قل لي الآن، كيف «لورا»؟ لقد أبدى ذلك النموذج اهتماماً بها!.

ـ لا أخالك تعني أنك قد تحدثت إليه عنها؟ قال «هيوي» وقد أحمر غضباً.

ـ ذاك المتسول كما تنعته هو أحد أغنى أغنياء «أوروبا» إن باستطاعته شراء «لندن» بكاملها دون أن يكلفه ذلك كل ثروته. إن لديه بيتاً في كل عاصمة وهو يأكل في آنية الذهب كما وأن بإمكانه أن يمنع روسيا من دخول الحرب متى أراد.

ـ ما الذي تعنيه بربك؟ سأله «هيوي» متعجباً!

ـ ما أعنيه! ـ رد «آلان» هو أن ذاك المتسول العجوز الذي رأيته اليوم في مرسمي ليس سوى البارون «هاوسبرغ» إنه من أعز أصدقائي وغالباً ما يبتاع لوحاتي وما شابه ذلك ولقد منحني الشهر الماضي إذناً بأن أرسمه كمتسول ويجدر بي أن أعترف بأنه كان رائعاً في أسماله أو «أسمالي» بتعبير أصح فتلك هي بزة قديمة كنت قد ابتعتها من أسبانيا.

ـ البارون «هاوسبرغ»! ـ يا إلهي! لقد نفحته جنيهاً ذهبياً ـ قال «هيوي» قبل أن يهوي برعب على أحد المقاعد.

ـ منحته جنيهاً ذهبياً؟ ـ صرخ «آلان تريفور» قبل أن ينفجر ضاحكاً ـ أي بني لا أخالك ترى جنيهك ثانية.

ـ أظن أنه كان يجدر بك أن تخبرني يا آلان! قال «هيوي» عابساً مقطب الجبين ـ بدلاً من جعلي أتصرف أمامه كأبله!!

ـ حسناً! بداية يا «هيوي» فإنه لم يكن ليخطر ببالي البتة أنك قد تدور موزعاً صدقاتك بهذه الرعونة... قد أبرر عطفك على نموذج ما... لكن أن تمنح عجوزاً قبيحاً جنيهاً من الذهب فذلك ما لم يدر بخلدي علاوة على أن شيئاً من الكدر كان يشوب مزاجي اليوم وعندما جئت لم أكن متأكداً من أن البارون «هاوسبرغ» كان يود ذكر اسمه وهو في تلك الأسمال البالية على الإطلاق! لقد كان اليوم في أحسن مزاج وعندما ذهبت ظل يغالب الضحك فاركاً يديه المجعدتين ـ لم أستطع إدراك كنه رغبته الملحة في معرفة كل شيء عنك على أن العجب قد بطل الآن وسيقوم باستثمار جنيهك يا «هيوي» دافعاً لك الأرباح كل ستة أشهر وستكون له قصة رائعة يرويها بعد العشاء.

ـ يا لي من منحوس شرير ـ دمدم «هيوي» متذمراً ـ إن خير ما أفعله هو أن أخلد إلى النوم ـ وأرجو ـ عزيزي «آلن» ـ أن لا تطلع أحداً على ما جرى. سيتعين علي أن أداري عن الملأ وجهي!

ـ هراء إن ما فعلته يعكس إلى أقصى حد خلجات نفسك الخيرة يا «هيوي» لا تهرب أشعل لفافة أخرى وحدثني عن «لورا» بالقدر الذي يحلو لك. على أن «هيوي» لم يتوقف وتابع المسير إلى منزله في موكب من الأحزان فيما خلف «آلان» وراءه... غارقاً في نوبات من الضحك.

على مائدة الإفطار صباحاً أتاه الخادم ببطاقة كتب عليها ـ السيد جوستاف نوديف ـ من طرف البارون «هاوسبرغ».

ـ أظنه أتى معتذراً ـ قال «هيوي» لنفسه قبل أن يأمر خادمه بالسماح للزائر بالدخول ودخل عليه كهل مهيب... قد وخطت شعره كف المشيب ويلبس نظارة ذهبية وقال في لكنة فرنسية هادئة بعض الشيء.

ـ هل السيد «ارسكاين» هو من أحظى بشرف التحدث إليه؟

وحياه «هيوي ارسكاين» فتابع ـ أنا قادم من طرف البارون «هاوسبرغ»... إن البارون...

ـ إني أهيب بك سيدي أن تنقل إليه صادق اعتذاري ـ تمتم «هيوي».

ـ إن البارون ـ قال الرجل مبتسماً ـ قد كلفني بإيصال هذه الرسالة إليك. وقدم له مظروفاً مغلفاً كتب عليه من الخارج: هدية زفاف إلى «هيوي» و«لورا» من متسول عجوز وداخله كانت حوالة بعشرة آلاف جنيه.

وعندما تزوجا كان «آلان تريفور» هو شاهد العريس فيما ألقى البارون كلمة مؤثرة.

يندر وجود النموذج المليونير هذه الأيام... على أن المليونير النموذجيّ أندر من ذلك بكثير.

استخدام القوة

للكاتب الأمريكي: وليام كارلوس ويليامز

كانوا مرضى جداً بالنسبة لي وكل ما كان لدي عندهم هو الاسم «أولسون» أرجوك تعال بأسرع ما يمكن فابنتي مريضة جداً. عندما وصلت كانت الأم في استقبالي... سيدة ضخمة... رهيبة غاية في النظافة والاعتذار ولم تزد على أن قالت: ـ أهذا هو الطبيب؟ ثم أدخلتني. وفي الجهة الخلفية من المنزل أضافت... معذرة لأننا نبقيها في المطبخ حيث الدفء فالمكان رطب أحياناً كانت الطفلة جالسة في حضن والدها قرب طاولة المطبخ، مرتدية زيها كاملاً ولقد حاول الأب أن ينهض إلا أنني أشرت إليه بألا يفعل وخلعت معطفي ثم بدأت أتفحص الأمر.

لاحظت أنهم كانوا جميعاً في غاية القلق... كانوا يديمون النظر إليّ بشك وانعدام ثقة. وكالعادة ففي مثل هذه الأحوال لم يكونوا ليدلوا إلي بأي معلومات أكثر مما يتحتم عليهم وكان علي أنا أن أخبرهم فهم يدفعون لي ثلاثة دولارات لهذا. كانت الطفلة ترمقني بنظرات ثابتة باردة... خالية من أي تعبير لم تتحرك... وبدت هادئة في داخلها... طفلة صغيرة... شديدة الجاذبية... قوية كعجل إلا أن وجهها كان متوهجاً وكانت تتنفس بسرعة... ولاحظت ارتفاعاً في حرارتها... كان شعرها أشقر... رائع الجمال كأولئك الأطفال الذين توضع صورهم على كتيبات الدعايات وزوايا الفوتوغرافيا.

ـ معها حمى منذ ثلاثة أيام! استهل الأب: ـ ولاندري من أين جاءت. لقد أعطتها زوجتي بعض الأشياء... تعرف ما أعني... كما يفعل الناس إلا أن ذلك لم يُجدِ نفعاً... الكثير من الأطفال مرضى هذه الأيام لذا استدعيناك لفحصها وإخبارنا عما بها... وكما يفعل الأطباء غالبا فقد بدأت بسؤال تجريبي كنقطة انطلاق:

ـ هل شكت من ألم في الحلق؟ وأجاب الوالدان معاً: كلا كلا حلقها لا يؤلمها.. هل يؤلمك حلقك؟ «سألت الأم الطفلة» إلا أنها لم تجب كما لم ترفع ناظريها عني.

ـ هل ألقيت نظرة على حلقها؟ ـ حاولت «ردّت الأم» لكن لم أتمكن من ذلك. لقد اكتشفت حالات «دفتريا» خلال هذا الشهر في المدرسة التي تذهب إليها هذه الطفلة وكان يبدو جلياً أننا جميعاً مهتمون بهذا الأمر على الرغم من أن أياً منا لم يتحدث عنه ـ حسناً «قلت»... يجدر بنا أن نلقي نظرة على الحلق أولاً ابتسمت محاولاً أن أبدو في أفضل حالات مهنتي وقلت للطفلة بعد أن تحريت عن اسمها: هيا تعالي! قلت ملاطفاً فقط افتحي فمك ودعيني أنظر... ـ إنه رجل لطيف «قالت الأم» انظري كم هو لطيف معك... هيا... افعلي ما يأمرك به... سوف لن يؤذيك. وصررت على أسناني بامتعاض... فقط لو توقفوا عن استعمال كلمة «يؤذي» فلربما استطعت أن أصل إلى نتيجة، على أني لم أسمح للضيق أن يعكر صفوي فدنوت من الطفلة ثانية ببطء وهدوء... وحالما حركت مقعدي دانيا منها قليلاً أطلقت يديها تجاه عيني بحركة قط غريزية مفاجئة... وكادت أن تصل إليهما وهي حقا قد أطاحت بنظارتي في الهواء لتسقط على أرضية المطبخ دون أن تنكسر لحسن الحظ!! وكاد كلا الوالدين أن يختبئ داخل نفسه حرجاً واعتذاراً ـ أيتها الفتاة السيئة... أمسكتها أمها وهزتها بيد واحدة بعنف... انظري إلى ما فعلت بهذا الرجل الطيب... بالله عليكم! «صرخت» لا تلقبوني بالرجل الطيب أمامها... إنني هنا لأنها قد تكون مصابة بالدفتريا وقد تموت من جراء لكن ذلك لا يهمها... اسمعي... سوف نلقي نظرة على حلقك... أنت كبيرة إلى حد تعين معه ما أقول... هل تفتحينه بنفسك أم نفعل ذلك عنوة؟ لا حركة البتة! حتى تعابيرها لم تتغير فقط تسارعت أنفاسها أكثر فأكثر. عندها.. بدأت المعركة! كان عليّ أن أجري فحصاً حلقياً لضمان سلامتها... إلا أنني بدأت فأخبرت والديها أن الأمر متروك لهما وشرحت لهما الخطر المحدق على أنني أضفت بأنني لن أصر على الكشف طالما تحملا مغبة ذلك!

ـ إن لم تفعلي ما يقوله الطبيب فسوف تذهبين إلى المستشفى!

ـ حقاً؟!! ابتسمت لنفسي... لقد وقعت في غرام تلك الصغيرة المتوحشة أما أبواها فكانا جديرين بالازدراء... خلال ما تلى من صراع ازداد خضوعاً وخنوعاً وانهياراً في الوقت الذي علت فيه الطفلة إلى مراتب من الغضب الدامي نشأ عن رعبها مني... ولقد بذل الأب جهده... وكان رجلا كبير الجسم إلا أن كونها ابنته إضافة إلى خجله من تصرفها وخوفه من أن يصيبها أذى كل ذلك جعله يرخي قبضته حولها في ذات اللحظة العصبية التي أوشكت أن أحقق فيها النجاح، وددت لو قتلته! إلا أن رعبه أيضاً من أن تكون مصابة بالدفتيريا جعله يطلب مني أن أكمل رغم أنه كان على حافة الإغماء فيما كانت الأم تروح خلفنا وتغدو خافضة يديها... رافعة إياهما في قلق من شر مرتقب.

ـ ضعها في حضنك وامسك بكلتا يديها! «قلت آمراً» على إنه ما أن فعل حتى أطلقت البنت صرخة مدوية... إياك! أنت تؤلمني ـ اترك يدي ـ دعهما قلت لك! وأضافت صارخة برعب وهلع: توقف! توقف ـ أتظن أن بإمكانها احتمال ذلك أيها الطبيب!

ـ اخرجي من هنا! «قال زوجها»... أتريدين أن تموت ابنتك بالدفتيريا؟.

ـ هيا... امسك بالطفلة قلت للأب، عندها أمسكت رأسها بيسراي محاولاً أن أضع ضاغط اللسان بين أسنانها فقوبلت بأسنان مطبقة دون أمل، على أن غضباً شديداً سرعان ما اجتاحني أيضاً نحو الطفلة. وحاولت أن أسيطر على نفسي فما استطعت... أعرف كيف أعرض الحلق للفحص كما أنني كنت أبذل غاية جهدي وعندما تمكنت أخيراً من وضع الملعقة الخشبية خلف آخر ضرس وأوشكت أن أدخل طرفها في تجويف الحلق فتحت للحظة فاها وقبل أن أتمكن من رؤية شيء أطبقت أسنانها عليها بشدة فأحالتها فتاتاً قبل أن أتمكن من إخراجها ثانية.

ـ ألست خجلة من نفسك؟ «صرخت بها الأم»... أن تتصرفي هكذا أمام الطبيب؟!!

ـ احضري لي ملعقة بمقبض أملس من أي نوع كان! «قلت للأم» سنتابع العملية... كان فم الطفلة يدمي وبدا لسانها مجروحاً، كما كانت تطلق صرخات هستيرية طويلة... لربما كان من الأفضل لو أنني ذهبت وعدت بعد ساعة أو أكثر... ذلك لا شك كان أفضل... إلا أنني رأيت طفلتين على الأقل قد توفيتا في سرير الإهمال... وفي حالات كهذه! ولشعوري بضرورة إجراء الفحص عاجلاً أو آجلاً شرعت مرة أخرى.

لكن أسوأ ما في الأمر هو أنني تخطيت حدود المعقول... كنت سأقطّع الطفلة بين يدي إرباً خلال نوبة غضبي... مستمتعاً بذلك... أجل... كانت مهاجمتها متعة أحسستها في توهج وجه تلك الصغيرة! لا بد وإنها محصنة ضد مكرها!... قد يقول الشخص لنفسه في أوقات كهذه ويجب أن يحُمى الآخرون منها. تلك ضرورة اجتماعية... وتلك الأشياء جميعها صحيحة إلا أن الغضب الأعمى والإحساس بخجل الكبار الناجم عن الرغبة في إرخاء الطاقة العضلية كل ذلك شكل العامل المؤثر، وعلى المرء أن يستمر حتى النهاية. وفي هجوم أخير غير عادل أحكمت القبضة على رقبة الطفلة وفكّها و أدخلت الملعقة المعدنية الثقيلة إلى حلقها حتى انسد فمها... وهنا وضح الأمر... كان الغشاء يغطي كلتا اللوزتين.. لقد حاربت بشجاعة كيما تمنعني من اكتشاف سرها... ظلت تخفي أمر احتقان حلقها عن والديها لثلاثة أيام كما ظلت تكذب عليهما فقط كي تهرب من نتيجة كهذه... أما وقد انكشف كل ذلك فقد كانت غاضبة جداً، كانت في موقف الدفاع سابقاً إلا أنه وبعد أن حدث ما حدث فقد هجمت محاولة الإفلات من حضن أبيها لتطير نحوي ودموع الهزيمة تعمي ناظريها...

الحارس الوصي

للكاتب الفرنسي: أندريه موروا andre maurois

١٨٨٥-١٩٦٧

حينما انتقلت روح «جين بيرتو» إلى بارئها ـ وكانت في الثلاثين من عمرها ظننّا جميعاً بأن مهنة «فيكتور بيرتو» قد انتهت إلى الأبد. وكان له من الصفات ما يؤهله للتربع في ساحة النجاحات السياسية فقد كان جاداً في عمله... وخطيباً مفوّهاً بزّ أقرانه وأبناء جيله. على أن خاصته والمقربين لديه ـ أمثالي ـ ممن شاركوه مقاعد الدراسة وفترة الخدمة العسكرية كانوا يدركون أن به نقاط ضعف تقف حجر عثرة في طريق تسنّمه منصب رجل دولة. كان يمكن تخيله وقد انتخب نائباً في البرلمان... وصوته الجهوري يزمجر بمفرقعاته اللفظية المعتادة بمجلس البرلمان على أننا لم نستطع ـ على الإطلاق ـ تخيله وقد ترأس الوزارة وعمل بانسجام مع رفاقه أو أنه قد... كسب احترام الأمة، إذ وازت إخفاقاته نجاحاته شهرةً وصيتاً.

وكان به ميل إلى النساء غريب... ميل تؤطره ثقة لا حدود لها في قدرته الفائقة على التأثير عليهن! وعندما يحتدم الجدل والنقاش بينه وصحبه كانت تحجب عينيه غمامة سوداء من فرط الثقة بنفسه وبصحة ما يقول حداً يجعله عاجزاً عن رؤية مزاياهم، وعلاوة على ذلك كله فقد كانت تجتاحه بين الفينة والأخرى نوبات هياج تقصي عنه أقرب الناس إليه ممن يحتاجهم غاية. ما كانت له سلطة على أعصابه فنفر منه الكثير. ذاك كله هو ما حملني على الاعتقاد ـ جازماً ـ بمحدودية ما قد يحرزه من نجاح على الصعيد السياسي إلى أن تزوج الآنسة «جين»! ولست أدري كيف تعرف عليها... بل... كيف راقت له إذ إنهما كانا

على طرفيّ نقيض. كانت هادئة... وكان هو ناري المزاج صعب المراس، كانت صامتة كتوماً فيما كان ثرثاراً مهذاراً وكانت معتدلة الآراء فيما كان متشدداً... متسامحة متساهلة فيما كان حاد المزاج. ورغم ذلك كله فقد أخذت على نفسها عهداً بتغيير ذلك كله... بكبح جماحه وتبديل طباعه ورغم أن حظها من الجمال كان أقل من غيرها بكثير إلا أن ذاتها كانت تنضح بسحر لا يقاوم، بصحة يانعة تبدت جليّة في تورّد خديها وإشراق عينيها ببريق لا يبدو جلياً لغير المرضى ممن أطفأ الوهن وهجه في مقلهم، وكانت لها ابتسامة مرحة صادقة. على أني أرى لزاماً علي الاعتراف بأني ما كنت أتوقع أن يكتشف «بيرتو» فيها تلك الفضائل ناهيك عن تقديرها والاعتراف بها طرًّا. ويبدو أني كنت مخطئاً إذ إنه منذ أن تم زواجهما... لم يفترقا يوماً... كانت تعمل معه وتصحبه إلى قاعة البرلمان كل يوم... وكانت ترافقه إبان جولاته في الدائرة الانتخابية لتسدي له النصح ـ في نهاية المطاف ـ بأسلوب حكيم ما أثار استياءه أو جرح كبرياءه يوماً.

وقاده زواجه الناجح إلى تسنّم مناصب عليا داخل دائرته ولم يعد ذوو الشأن يقولون عنه: «بيرتو»؟ أجل إنه ذكي لمّاح ومتحدث عظيم لكنه لا يعدو كونه شخصاً غريب الأطوار.

تبدل ذلك كله فنابت عنه عبارة: «بيرتو»؟ أجل إنه صغير السن نوعاً لكنه شخصية سياسية واعدة لاشك!.

وكانت نوبات الغضب تعاوده أحياناً على أن كلمة من «جين» ولمسة حانية تمرّ بها عليه... كانت كفيلة بكبح جماح غضبه وإعادته إلى جادة الهدوء والاطمئنان ثانية، ولم يعد «بيرتو» ذاك الفتى اللعوب... أحال روافد حبه وإخلاصه إلى نهر زوجته العظيم.

على أنّ ذلك الكم الهائل من النجاح وحسن الطالع قد تغير حينما ماتت «جين». وأتذكر أنني كنت عائداً من المقبرة مع الروائي «برتراند شميدت» وكان من أصدقاء الزوجين الخلّص حينما قال:

«لقد صنعت منه ما هو عليه الآن... ولا أخال حياته بعدها إلا منحدرة إلى الحضيض... ستبدي لنا الأيام ما كنا جاهلين. وتركت «بيرتو» يداوي جراحه بضعة أشهر مؤكداً له كتابةً بأني هناك إما احتاجني يوماً... وحينما انعقد البرلمان ثانيةً في شهر أكتوبر كان «بيرتو» من بين من حضر من الأعضاء. وحيّاه رفاقه بعطف ظاهر على أنه سرعان ما بدا صعب المراس عنيداً كما كان. وتوج ذلك عبوس تمخّض عما قاساه من مرارة الفراق والحرمان... على أن علاقتي به كانت عادية بل أني اعتدت أن أتناول وإياه طعام العشاء مرة أو اثنتين كل شهر... وكان يعاملني بودّ يشوبه بعض العبوس والتجهم المقبول نوعاً... تطور. حتى خامرته سخرية طفيفة قرأت في ثناياها أهمية الأمن والتحصن الذاتي.

وبحلول شهر ديسمبر... عيّنه «برايند» والذي كان مكلفاً بتشكيل مجلس وزراء جديد على منصب المدير العام للبريد وحينما ذهبت لتهنئته فور ظهور اسمه لم يكن في أحسن حالاته.

ـ وفّر التهاني! قال لي بجفاء ـ ما حضرت سوى اجتماعين اثنين وقد أقدم استقالتي قريباً. لقد خضت معارك دامية مع المالية والأشغال العامة... وعلى أي حال فإن هذه الوزارة كساحة حرب... والكل مسؤول هنا عداي! المدير العام.

وتوقعت لعدة أيام ـ بعد ذلك اللقاء المشحون ـ أن يرد نبأ استقالته على أن ذلك لم يحدث... وحينما التقيت «برتراند شميدت» بعد ذلك كان «فيكتور» ـ غني عن القول ـ محور حديثنا: قال لي:

ـ أسمعت عن تجربته المذهلة؟ فيما يختص بالرسالة التي وصلته؟

ـ أي رسالة تعني؟

ـ آه... يا له من موضوع رائع لرواية مثيرة! لا أدري إن كان قد نما إلى علمك بأن «بيرتو» ـ ذاك الغرّ... قليل الخبرة قد استحال أثناء إحدى الجلسات وحشاً كاسراً وحينما تجرأ وأهان المسكين «شيرون» أمام الجميع كان «برايند» على

وشك إقالته على أن انقلاباً مسرحياً مثيراً قد حدث إذ إن بطلنا المتصلب صعب المراس «فيكتور» قد انقلب رأساً على عقب! لقد توجه إلى خصمه فاعتذر منه بحرارة وحميمية وندم إلى الحد الذي حدا «بشيرون» إلى الاعتذار له شخصياً من «برايند» فعاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل هبوب العاصفة!

وكيف تفسر هذا التحول الغريب في شخصيته؟ سألته وبدد دهشتي حين أجاب:

ـ لقد شرح لي «فيكتور» بنفسه كل شيء فقال بأنه بعد حادثة الشحار بيوم كان يهم بمغادرة المنزل حين ناوله سكرتيره خطاباً خاصاً ألقى عليه نظرةً ارتعدت لها فرائصه. كان الخطاب قد وصل للتّو وتمعن في الخط الذي كتب به فخامره مزيج من مشاعر شتى تصطرع فيه الدهشة والمفاجأة والعاطفة والرعب حين عرف فيه خط زوجته الراحلة «جين» وفتح الظرف بيدين مرتجفتين فتأكد بما لا يدع مجالاً للشك أنه... منها! الفقيدة الراحلة تلك التي زرعت فؤاده ورداً ورياحين ثم غابت فأجدبت بيادر الأمل في ذاته. لقد قرأ علي «فيكتور» ما دونته له ورغم أني لم أحفظ ما قرأ من صفحات عن ظهر قلب إلا أني كروائي أستطيع أن أبلور ذلك معيداً صياغته كيما يأتي على النحو التالي:

أيا أعز من لي:

لابد وأنك ـ بادئ ذي بدء ـ ستكابد من القلق والريبة ضروباً شتى إبان تلقيك رسالتي هذه... ولتكن واثقاً تمام الثقة يا حبيبي بأني لم أبعثها لك من طيات القبر فاهنأ بالاً ودع خوفك يفرخ.

قبل أن أدخل المستوصف. ماكنت ـ لما اعتراني من وهن وألم ـ جازمةً بنجاح العملية ولذا فقد اتجه تفكيري إليك بطبيعة الحال شرعت أتأمل فيما كان وما سيكون إن لم تكتب لي النجاة شدّما استشعر دخيلة ذاتك يا عزيزي... إنني أعرفك أكثر مما تعرف ذاتك... وهذا مصدر خوفي عليك... لست معك على قدم المساواة في الطاقات والقدرات إلا أني كنت دوماً بمثابة الكوابح لك إما

شارفت على مايوجب التوقف، وكما تعلم يا توأم روحي فإنه لابد للمحارب من استراحة وقلت لذاتي... ليس هناك مايمكن أن يفرق بيننا... حتى وإن افترقنا فستظل روحي تحوم حولك وإن وارى جسدي سديم القبور. ولذا فقد كتبت لك هذه الرسالة التي سأودعها لدى أحد الأصدقاء مرفقة معها تعليمات بأن تسلم لك إما غدرت بك الأيام وحدث ما توقعت.

لسوف تجد بين طيات هذه الرسالة... وفي تلك المواقف بالذات ما كنت سأقوله لك شخصياً لو كنت حية وإن أكبر دليل على صدق توقعاتي لهو وجود هذه الرسالة الآن بين يديك، أقبل الان فاضطجع إلى جانبي يا منية الروح... احضن يدي بين راحتيك وأرح رأسك على منكبي ثم أصخ السمع لما سأقول كما اعتدنا يوم كنا في رياض السعادة نجول و...

ـ ألفّقت هذا يا «برتراند»؟ سألته فجأة بين مصدق ومكذب.

ـ حتى وإن لم تقل هي ذات الكلمات فإني ما زدت على أن صورت أفكارها... زوجته «جين» أعني! لقد شهدت مزاياه ورزاياه... وقاسمته أفراحه وأتراحه وعلمته الكرم والاعتدال والصراحة.

ـ أهذا ما دعاه إلى زيارة «شيرون»؟

ـ وهذا ما جعله يعتذر منه كذلك!

عندما التقيت بـ«بيرتو» بعد أسبوع أكد على صحة ما قاله «شميدت» الروائي لي وبين لي والوجد في مقلتيه يلمع بوهج الآهات و المواجع أن «جين» كانت تحوم حوله... تداعبه بذكرياتها الرقيقة الحانية... فتؤثر بشدة... ملغية كثيراً من خطوط الوهم والتخبط في سياساته قاطبةً... وخيل إلي أني ألمح ذاك الغلاف السميك الذي يختبئ داخله والذي نسجت خيوطه من ألياف السخرية واللامبالاة... ينهار فجأة... ويتلاشى في أعطاف المجهول.

وما خاب ظني إذ إن الكثيرين قد علقوا بعد ذلك على ماتركته الرسالة في ذاته من بصمات تشرق نوراً وأنساً وأماناً واطمئناناً وسارت الأمور لعدة أشهر بما اشتهاه «فيكتور بيرتو» فأصلح كثيراً من الأوضاع في دائرة البريد ولهجت فرنسا بالثناء على إنجازاته حتى توسط نجمة كبد السماء.

وعندما سقطت حكومة «برايند» سافر «بيرتو» في رحلة استجمام إلى المغرب وهناك تعرف على «دورا بيرغمان» وأسَرَتْه بسحرها! كانت شاعرة تهوى استكشاف بلاد العالم متنكرة بزي كشافة عربية عبر شمال أفريقيا فأثارت الكثير من الجدل. ورغم أن أياً منا لم يكن يحبذ بقاء الشاب «بيرتو» دون زواج إلا أننا أبدينا كثيراً من التحفظ إزاء ميله للآنسة «دورا» الجميلة الموهوبة... السيئة السمعة في الوقت ذاته... إذ إن سيرتها الذاتية لم تكن ـ مع شديد الأسف ـ مبعثاً لكثير من الثقة... بل أنه قد تردد بأنها كانت عميلة لدولة أجنبية... وإذاً فإنه لم يكن هناك أشد منها خطراً على حياته ومستقبله المهني.

وعندما عاد معها إلى باريس حاول البعض إسداء النصح له بضرورة الابتعاد عنها على أن ذلك قد أثبت صحة المثل القائل بأنك إما نصحت صديقاً بالابتعاد عن امرأة ما فسينتهي الأمر بك إلى فقدان ذلك الصديق دون أن تمس للمرأة شعرة... وهكذا فقد أبقاني «فيكتور بيرتو» وأبقى «برتراند شميدت» خارج نطاق دائرة حياته ونفى معنا كثيراً ممن حاولوا نصحه كذلك! وغاب في خضم علاقته بـ «دورا»، حتى تردد صدى ذلك داخل الدوائر البرلمانية وعرّض بذلك حياته العلمية لأضرار جسيمة.

وقلت لـ «برتراند» ذات مساء: إن الأمل الوحيد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه هو أن تصل «فيكتور» رسالة من «جين» تحذره فيها من مغبة تماديه في علاقته تلك فتفتح عينيه على ما يحيط به من مخاطر إذ إنه لا يأبه لنصح غيرها.

ـ أنا واثق أن رسالتها تلك ستأتي إليه قريباً إذ إن «جين» كانت تعرف مدى ولعه بالنساء ومغبة ذلك فيما يتعلق بوظيفته. ليس هناك فتنة أشد من ذلك كما تعلم!.

ورغم ما أبديته من تهكم وسخرية حول ما أفاد به «شميدت» من أن الرسالة ستصل فقد أثبتت الأيام اليام صحة توقعاته! كم كانت سعادتنا غامرة حينما غادر «فيكتور» «باريس» إلى مقاطعته على عجل. ما أخبر أحداً أو ترك رسالة بل اتجه إلى منزله الريفي قرب «مونتيليمار» فدفن نفسه فيه.

وتبعته «دورا» فرفض أن يراها وأصرّت... وتوسلت إليه بدموعها وابتسامتها فما استكان أو لان... ثم هي ترفع رايتها البيضاء وتمضي جارّة أذيال الخيبة والهزيمة ورددت الصحف بعد ذلك أنها بصدد مغادرة البلاد في رحلة طويلة لاستكشاف «ريو دي أورو» فتنفسنا الصعداء إذ إننا أيقنا بنجاة «فيكتور» الذي عاد إلى باريس وأبدى سروراً جماً لمرآي.

وأخبرني رفيقي لاحقاً عن الرسالة الثانية التي وصلته بعد أن اخترقت طيات اللحود! وجدها «فيكتور» في بريد الصباح ونصحته إما تعرض لموجة عاطفية يوماً أن يغادر على الفور إلى مكان آخر اتقاءً لشر ذلك ـ:

ـ اعلم يا حبيبي ـ كتبت له بنبض قلبها ـ أدرك حق الإدراك بأنك إن قابلتها ثانية فستقع بين براثنها... وستعرض كرامتك وشرفك وكبرياءك لمخاطر جمة... ولسوف تكون الغلبة في النهاية لذكائك وحيطتك... ستتدبر نصيحتي فتدرك أي خطر كان يتهددك فلا تتردد... اطو الرسالة من فورك وضعها في جيبك... أعدّ حقيبتك واتجه صوب «دروم» في الحال. ورضخ الزوج الملتاع لذلك:

ـ إلى هذا الحد يا رفاقي وصلت ثقتي بحكمة زوجتي! قال، على أني تساءلت عما إذا كان سيبقى محصناً ضد النكبات طيلة حياته بتأثير من تلك المرأة التي رحلت عن دنيانا إلى غير رجعة؟ هل قلت طيلة حياته؟!

أكون إذاً قد جانبت الصواب إذ إن الأرمل الذي كان يستعجل الزواج ثانية قد تلقى من زوجته الراحلة خطاباً ثالثاً يبارك مسعاه.

وأخبرني «برتراند شميدت» بأن «بيرتو» قد شعر مرة ـ إبان تسنمه منصب وزير وكان ذلك عام ١٩٣٦ بتأنيب الضمير لتفكيره في الزواج ثانية... وظل ينتظر إشارة من حارسي الوصي... ممثلة في رسالة إرشادية من «جين» وحين لم يصله رد... توكل على الله وتزوج وبذلك قضى على حياته المهنية كرجل سياسة.

على أن «بيرتو» الذي كان يحكم مملكته العائلية الصغيرة في بلدته مع زوجته الثانية لم يكن بائساً تعيساً!.

بل أنه عاش معها حياة متوازنة لتظل تفاجئه بطفل بين الفينة والأخرى وربما كان ذلك الفأل الحسن هو ماتمنته له مستشارته الغائبة بين طيات الثرى.

غرق نفسي

للكاتب الأمريكي: امبروس بيرس

١٨٤٢ ـ ١٩١٤

في صيف ١٨٧٤ كنت في مهمة عمل في مدينة «ليفر بول» تتعلق بشركة «بنسون وجاريت التجارية» ومقرها نيويورك.

أما فيما يتعلق بي فأنا «ويليام جاريت» وشريكي هو «زيناس برونسون» الذي لقي حتفه العام المنصرم بعد انهيار مؤسستنا إذ إن فؤاد المسكين لم يتحمل الامتياح من مستنقع الذل والحاجة بعد أن ظل يرفل في أردية الترف ردحاً من الزمن.

ما أن أنهيت مهمتي حتى غشاني الوهن والإرهاق من كل جانب فارتأيت أن خير ما يزيل ذلك هو ملازمة البحر في رحلة استجمام طويلة عبر طريق العودة أعبُّ خلالها نسائم الماء والسماء... ويبحر خيالي في زرقة الكون تحيط بي من كل جانب لا يجترح أديمها سوى أسراب النوارس واللقلاق تحلق في آفاق المدى زرافات ووحداناً، وهي تشدو بأعذب الأنغام... رأيت في ذلك كله شفاءً لروحي مما اعتراها من كلل ووهن، ولذا فإني ـ بدلاً من العودة على ظهر إحدى باخرات الركاب الفارهة قد حجزت على متن السفينة الإنجليزية «مورو» والتي لم تكن تتمتع بمزايا خاصة تنعم بها على ركابها الذين لم يزيدوا على اثنين: محدثكم وشابة تصحبها وصيفة زنجية في منتصف العمر. ولما أبديت للوصيفة تعجبي من مرافقتها لها ـ على غير عادة النساء الإنجليزيات ـ أفادت بأن سيدتها الجميلة كانت ابنة لرجل، وزوجته من «كارولاينا الجنوبية» وقد توفيا في يوم واحد بمنزل والد الشابة في «ديفونشير» وكان ما قالته حدثاً غير عادي بالنسبة

لي وخصوصاً حينما علمت عبر ما تلى من حديث معها بأن اسم الرجل هو «ويليام جاريت» وكذا كان اسمى! كنت على علم بأن فرعاً من عائلتي قد استوطن «كارولاينا الجنوبية» فأما التفاصيل التاريخية لذلك فقد عُمّيت عليّ!. في الخامس عشر من شهر «يونيو» أبحرت بنا السفينة «مورو» من مصب نهر «مرسي» وكان على ظهرها بضائع كثيرة قيّمة ابتعتها سابقاً... ولأسابيع عدة تهادت السفينة بنا الهوينى في أحضان بحر هادئ رخاء... أنسام رقراقة عليلة وسماء صافية بلون الفيروز لا تحجبها سحب أو غيوم. أما الربان وكان مدعاة للإعجاب لا أكثر ـ فقد حبانا باليسير من صحبته الا ما كان حول مائدته.

وتوطدت علاقتي بالشابة «جانيت هارفورد» كنا دائماً ـ تقريباً ـ معاً ولما كنت أتمتع بفكر استبطاني يعشق الغوص في دخائل الغير واستشراف بواطنهم فقد جنحت في الغالب إلى محاولة تحليل وتحديد ذلك الشعور الجديد الغريب... الذي سكب في ذاتي ميلاً خفياً هادئاً هادراً غالباً ما دفعني إلى البحث عنها... على أن محاولتي تلك كانت بلا جدوى إذ إني قد توصلت على الأقل إلى قناعة مؤادها أن ذلك ما كان حبّاً!.

ولما أكدت ذلك لنفسي ولأني كنت على يقين من صدقها وإخلاص مشاعرها فقد تجرأت ذات مساء «وأذكر أن ذلك كان في الثالث من شهر يوليو» وسألتها ـ ضاحكاً ـ عما إذا كان في مقدورها مساعدتي على تبديد ما ساورني من شك نفسيّ!.

وبدت ـ لوهله ـ صامتة قد أشاحت بوجهها عني. فداخلني خوف من أن أكون قد تجاوزت حدود اللباقة معها.. وأنني كنت فظاً غليظ القلب على أنها نظرت إليّ فجأة فسمرّت نظرتها علي كأنما اتصلت مقلتاها بعيني عبر جسر من الفولاذ!

بدت كما لو كانت ترنو إليّ ـ لا بتينك العينين ـ ولكن من خلالهما... وعبر مسافة بعيدة بعيدة خلفهما... ولمحت وجوهاً عديدة لنساء ورجال وأطفال بتعابير مألوفة متلاشية... مضمحلة وقد اجتمعت حولها تحاول جاهدة ـ في لهفة

رقيقة دفاقة ـ النظر إليّ عبر حدقتي تلك الشابة. وتلاشت أمام ـ رؤاي ـ المعالم طرّاً! السفينة والمحيط الكبير... وصفحة السماء! ما وعيت شيئاً سوى تلك الأشكال البشرية تبحر في خضمّ ذلك المشهد الرائع الأخاذ، أما ماعدا ذلك فلا.

عندها خيم الظلام عليّ فجأة وعبره وكمن اعتادت عيناه على الرؤية وسط ضبابية عتمةٍ مطبقة... لاح لي مرأى الصاري والشراع وأرجاء السفينة ثانية كانت السيدة «هارفورد» مغمضة العينين وقد استلقت على كرسيها... بدت نائمة وكتابها المفتوح ملقى على حجرها... ودفعتني قوة خفيه لست أدري كنهها إلى إلقاء نظرة على أعلى الصفحة. كان الكتاب نسخةً من تلك المطبوعة النادرة الغريبة: «تأملات دينكر» أما سبّابة الشابة فقد استقرت عند عبارةٍ عن خفايا الروح واستنساخ الأرواح. وفجأة هبت الآنسة «هارفورد» واقفةً تتخللها رجفة خفيفة... كانت الشمس قد غابت في لجة المحيط بعد أن واراها الأفق وتلطخ الحدّ الفاصل بين الماء والسماء بحمرة النجيع المنساب من كبد ذكاء لما تلقت ـ في فؤادها طعنة المساء... على أن الجو ما كان بارداً... ولم تكن هناك ثمة نسمة أو غمامة في السماء ورغم ذلك لم يكن هناك أي أثر للنجوم.

وفجأة علت أصوات لأقدام متسارعة واستدعى أحدُ أفراد الطاقم ـ من أسفل المركب ـ ربّانها الذي ألقى نظرة على مقياس الضغط الجوي قبل أن يصرخ: يا إلهي!.

بعد ساعة تلاشى أمام ناظري خيال الشابة «جانيت هارفورد» يحجبه الظلام والرذاذ... وانتزعته مني تلك الدوامة الرهيبة التي أحدثها غرق السفينة أما أنا فقد غبت عن الوعي على حبال الصاري الطافي الذي ربطت نفسي إليه.

فتحت عينّي على ضوء مصباح فوجدت نفسي في سرير يحيط به الأثاث المعتاد لغرفة خاصة على متن إحدى البواخر.

وعلى أريكة مقابله جلس رجل ـ بنصف ملابسه استعداداً للنوم ـ يقرأ كتاباً. وعرفت فيه صديقي «جوردون دويل»... ذاك الذي التقيت به يوم الإبحار حينما كان على وشك ركوب سفينة «سيتي أوف براغ» والتي حاول جاهداً إقناعي بمرافقته للإبحار على متنها كذلك.

بعد دقائق تمتمت باسمه فما زاد على أن قال ـ حسناً ـ دون أن يحيد عن الكتاب بنظره.

ـ «دويل» ـ قلت ثانيةً ـ هل أنقذوها؟.

وتلطّف فألقى نظرة عليّ وتبسم لاهياً إذ إنه خالني أسبح في لجج النوم لما أزل!

ـ أنقذوها؟!! من تقصد؟

ـ «جانيت هارفورد»!

وتبدل لهوه فجأةً فاستحال ذهولاً ودهشة وطفق يحدق بصمت فيّ.

ـ «ستخبرني لا حقاً ـ تابعت ـ نعم ستخبرني فيما بعد.

بعد دقيقة سألته: أي سفينةٍ هذه؟.

وحدق «دويل» ثانيةً فيّ قبل أن يقول:

«إنها الباخرة» سيتي أوف براغ «المتجهة» من «ليفر بول» إلى «نيويورك»... وهي معطلة منذ ثلاثة أسابيع لكسر أصاب أحد أعمدتها، أما ركابها فاثنان: السيد «جوردون دويل» ومغفل آخر يدعى السيد: «ويليام جاريت». سافر هذان الراكبان المميزان سوياً لكنهما على وشك الانفصال وذلك أن الأول قد بيّت النية على إلقاء الثاني في عرض المحيط! ـ قال مازحاً ـ.

وانتصبت واقفاً:

ـ «أتعني أني كنت على ظهر هذه السفينة لثلاثة أسابيع خلت؟»

ـ أجل... تقريباً إذ إن اليوم هو الثالث من شهر «يوليو»!

ـ أوقعتُ فريسةً للمرض؟

ـ بل إنك كنت في كامل صحتك واتزانك كمنصب القدر الثلاثي وكنت دقيقاً فيما يختص بمواعيد الوجبات!

ـ يا إلهي! ـ ندت عني شهقة مفاجئة ـ الأمر محير... هناك لغز ما يا «دويل» ـ أرجوك دع المزاح وأخبرني: ألم يجرِ إنقاذي من حطام السفينة «مورو»؟

وتغير وجه «دويل» فجأة... امتقع لونه وتقدم فوضع يده على رُسغي ـ ثم سالني في هدوء: ماذا تعرف عن «جانيت هارفورد»؟

ـ بل أخبرني أنت ـ أولاً ـ عما تعرفه عنها!

وشرع السيد «دويل» يتأملني وهناً كمن يستجمع ما يود قوله ثم اقتعد الأريكة قبل أن يقول:

ولم لا؟ أنا «وجانيت هارفورد» خطيبان ـ قابلتها في لندن منذ عام على أن عائلتها ـ وهي إحدى عوائل «ديفونشير» الثرية قد عارضت ذلك الزواج ولذا فإننا قد قررنا ـ أو قل أننا الآن بصدد ذلك ـ وفي اليوم الذي ركبت وإياك هذه السفينة عبرت «جانيت» وخادمتها الزنجية بجانبنا كيما تبحرا على متن إحدى السفن: «مورو» على وجه التحديد. لقد رَفضَتْ أن تصحبني على متن هذه السفينة خشية أن تلفت الأنظار وتثير الشكوك وأخشى ما أخشاه أن يطول عطل سفينتا فتصل هي إلى نيويورك قبلنا فلا تدري المسكينة أين تذهب!

وبقيت جاثماً دون حراك في سريري... مشدوهاً... مصعوقاً حائراً... بالكاد أتنفس على أنه بدا جلياً أن الموضوع كان شيِّقا في نظر «دويل» إذ إنه استطرد قائلاً:

إنها ـ بالمناسبة ـ ابنة لعائلة «هارفورد» بالتبني. لقد لقيت أمها حتفها إثر سقوطها عن ظهر جواد وقضى أبوها نحبه حزناً عليها ولما لم يتقدم أحد للمطالبة بالطفلة تبنتها تلك العائلة وترعرعت الفتاة معتقدة أنها ابنةٌ حقيقيةٌ لهم.

ما هذا الكتاب الذي بين يديك يا «دويل»؟ سألته.

أوه إنه كتاب: «تأملات دينكر». وهو كتاب في الغرابة آية. كان لدى «جانيت» نسختان منه فأعطتني واحداً!

ـ أتريد أن تلقي عليه نظرة؟.

ودون أن يسمع جواباً رمى به إليّ فوقع مفتوحاً وعلى إحدى الصفحات المكشوفة كانت ثمة فقرة عُلِّمت بالقلم ـ وقرأت تلك الفقرة فكدت من هول المفاجأة أفقد وعيي! كانت نفس العبارة التي لمحت سبابة «جانيت» تشير إليها حول خفايا الروح ودعوى استنساخ الأرواح!.

كان لها... أقصد... إن لها ذائقةً مميزة في القراءة ـ كبحت جماح عواطفي وروّضت هياج روحي كيما أستطيع أن أقول له ذلك.

ـ نعم! ـ قال «دويل» وقد يكون في مقدورك الآن فضلاً إفادتي عن سر معرفتك اسمها واسم السفينة التي أقلّتها!

ـ لقد تحدثت أثناء نومك عن ذلك! قلت. بعد أسبوع جرى سحب باخرتنا إلى ميناء «نيويورك» وأما ما كان من أمر «مورو» فإن أحداً لم يسمع عنها خبراً بعد ذلك قطّ!.

النملة والجندب

للكاتب الإنجليزي: سَمَرْسِتْ مُومْ

عندما كنت فتىً صغيراً كان عليَّ أن أحفظ ـ عن ظهر قلب ـ بعض أساطير «لافونتين» الخيالية تلك التي تحمل في طياتها مغزى تعليمياً معيناً يجمع بين التثقيف والإمتاع... كل درس منها كان يفسر لي بعناية فأجد في الأسطورة مرتعاً للأحلام ومنبعاً للوعي والإلهام. ومن بين تلك كانت حكاية «النملة والجندب» والتي ينصب مغزاها في بحيرة لفت انتباه الناشئة إلى أهمية الجد والعمل وسلبيات الاستهتار والطيش والتهور.

في هذه الحكاية المثيرة للإعجاب ـ وأستميح القارئ عذراً في ايراد مجملها كونها معروفة لدى الجميع تقريباً ـ تعمل النملة بجد واجتهاد طيلة فصل الصيف... جامعة قوت شتائها فيما يظل الجندب متأرجحاً على حد إحدى النباتات... شادياً بأعذب الألحان... غير عابئ ـ لسوء الحظ ـ بما ينتظره من ألم الجوع في مستقبل زمانه... وذُكاء تسكب عليه من صبابات عسجدها جداول دفء وألق وحبور.

ويجيء الشتاء فتسعد النملة بما قدمت لغد، أما مستودع الجندب فخالي الوفاض تعوي الريح في طياته وتصفر في جنباته!

ويهرع المسكين إلى النملة يستجديها ما يقيم به أوده فتجيبه:

ـ وماذا كنت طوال الصيف تفعل؟

فيجيبها في براءة: ـ كنت أغني ليل نهار!

فترد عليه في حنق: ـ اذهب إذاً فارقص! ـ

وكنت لا أمر بنملة ـ منذ أن سمعت بتلك الحكاية ـ دون أن أسحقها بقدمي لا لميل إلى المشاكسة والشر كامن، وإنما لقصور إدراك الطفل في ذاتي ـ آن ذاك ـ عن استيعاب المعنى الخفي المستتر خلف السطور بمعزل عن وليد بصيرتي. لقد اكتشفت لاحقاً أن طابع الإنسانية يغلب على تلك الحكاية، وأنها رمز للتعقل والحكم الصائب على الأمور قاطبة. لم أستطع إيقاف انسكاب جزئيات ذلك في تيار فكري حينما لمحت منذ بضعة أيام صديقي «جورج رمزي» يتناول غداءه وحيداً في أحد المطاعم. لم أرَ في حياتي ملامح كئيبة متجهمة كصفحة وجهه آنذاك... محدقاً في الفضاء... في أعماق اللاشيء كان كما لو أن متاعب الدنيا طرّاً كانت تجثم على عاتقه فينوء بثقلها منكباه... وتناذر حزني وأسفي على ما كان يحتمل في ذاته من هموم أدركت أن مصدرها كان لاشك أخاه سيئ الحظ «توم».

دنوت منه فأرحت على ظهره راحة يدي:

ـ كيف حالك؟ سألته.

لست في أزهى حالات روحي المعنوية! أجاب.

أهو «توم» ثانية!

وما أجاب، ترك العنان لتنهيدة حرّى... كيما تفارق صدره الضيق حرجاً كأنَّما هو يصعَّدُ في السماء!على أنه قال بعد لأي:

أجل.. هو «توم» ثانيةً!

لماذا لا تنفض منه يديك. لقد تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أنه حالة ميئوس منها فماذا تنتظر؟ ما تركت من أجله شيئاً ما فعلته!

ووصلت إلى قناعة مؤداها أنه لابد أن يكون في كل عائلة شخص تافه... ضال عن جادة البقية، وأن «توم» كان دون ريب عالة وعلة عائلة «الرمزي». تلك الأسرة الشريفة التي نما «توم» بين ظهرانيها فما شك أحد بأنه سينشأ في بوتقة الاحترام ذاتها فيمارس عملاً شريفاً وذاك ما كان ـ بادئ ذي بدء ـ.

استهل حياته كأحسن ما يكون الاستهلال ودخل مجال التجارة ثم تزوج فرزق بابنين، إلا أنه قرر فجأة أنه لم يكن يصلح للزواج! أراد أن يتمتع بمباهج الحياة أن يتحلل مما كان يقيد حركته من مسؤوليات جسام ـ كما صورها له خياله ـ ولم يستمع لناصح بل ركب رأسه وأسرج جواد هواه وترك له العنان... ترك زوجته ووظيفته. وكان لديه حفنة من مال أنفقه متنقلاً بين بعض العواصم الأوربية على مدار عامين، وكانت الأقاويل الفاضحة تطرق أسماع عائلته فينزوون جراءها خزياً وألماً والصدمات الصاعقة تترى فتزعزع كيانهم فلا يملكون لها رداً. وكانوا يتساءلون: هو الآن يرتع في ظلالٍ وارفات من السعادة ولكن ما عساه يفعل حينما ينضب ما لديه من مال؟ على أنهم علموا أنه كان يقترض من رفاقه... كان له سحر لايقاوم... جذاباً كان... وفرض حضوره المتميز هيمنته على صحبه فما كان بوسعهم أن يردوا له طلباً... ما قابلت في حياتي شخصاً يصعب رفض طلبه قرضاً «كتوم». وأصبح له من جراء ذلك دخل ثابت تدره الاستدانة عليه... ولم يجد صعوبة في اتخام رصيده من الصداقات بمزيد من الرفاق كل يوم... قلت إن سحره لايقاوم، وكان يردد بغباء دائماً بأن المال الذي ينفق على ضروريات الحياة كان مملاً ممجوجاً، وبأن خير النشب هو ما أنفق على الكماليات ومتع الحياة! وكان يلجأ إلى أخيه «جورج» فيما يتعلق بالأمر الثاني. وكم من مرة وقع المسكين في شرك عذب حديث «توم» وما قطعه من عهود ومواثيق كاذبة في أنه ما تقدم بطلب مال منه إلا لكي يبدأ من جديد فيدشن مشروعاً ينطلق منه لتأمين لقمة عيشه على أنه خصص تلك المبالغ الكبيرة التي منحه إياها لشراء سيارة وحلي ثمينة. وعندما أيقن «جورج» بألا فائدة ترجى منه غسل يديه منه، على أن «توم» شرع في ابتزازه بامتهان حرَفٍ لاتليق بمقام عائلتهم واعداً بتركها إما أغناه بالمال عنها... فظل يدفع له منه ماشاء.

وأوشك «توم» مرة على دخول السجن فكاد «جورج» يفقد صوابه... وشعر بأن شقيقه قد تجاوز حدود المعقول رغم أنه كان على يقين من أنه لم يكن ليتجاوز الخط... الفاصل بين المباح والمحرم قانوناً؛ بين الممنوع والمرخص به، ولذا فقد

تنامى غضبه وتناذرت دهشته عليه حينما سمع بأنه قد احتال على أحدهم وأن الضحية قد رفع عليه دعوى قد تجعله رهين القضبان أمداً. «لن أسمح لهذا الـ«كرنشو» بأن يدفع بأخي إلى السجن!» ـ قال المسكين مناجياً نفسه قبل أن يهب من فوره فيصلح ذات البين ويرأب الصدع بخمسمائة جنيه دفعها للمتضرر عدّاً ونقداً. لم أر في حياتي (جورج) غاضباً كما رأيته حين علم بأن (توم) و(كرنشو) قد اتجها إلى «مونت كارلو» فور تسلّم المال حيث أمضيا على شواطئها الخلابة شهراً كاملاً.

وعلى امتداد عشرين عاماً ظل «توم» يُبْحِرُ في محيطات السعادة والشهرة يصاحب الحسان، ويرتدي أفخم الأزياء، ويتناول طعامه في أرقى المطاعم وأغلاها... كان من يراه يخاله ابن ست وثلاثين رغم تجاوزه الرابعة والثلاثين. كان طيب المعشر ودوداً لبقاً تنعم النظر إليه فيجذبك... تشدك صحبته رغم أنك تعلم علم اليقين أنه لايملك شروى نقير! أما ما أفسح له في الأفئدة مكان الصدارة فكانت جراءته المذهلة، وروحه المعنوية العالية... مرحاً كان دوماً سعيداً ينضح بالبشر محياه... ويشع منه ذلك السحر الغامض الرهيب، ما أحسست يوماً بثقل احتياجاته وطلباته الدائمة... وتلك الإتاوات التي كان يفرضها بانتظام عليّ فأستجيب لها باسماً راضياً حتى لكأنما كان يعطيني الذي هو طالبه!.

ما أقرضته خمسين جنيهاً يوماً دون أن يعتريني شعور بأنني المستدين!

كان «توم رمزي» معروفاً لدى الجميع... ولم يكن بوسعك أن تستحسن سيرته ولا أن تمنع نفسك من الوقوع في شراك حسن صحبته وجميل معشره في الوقت ذاته.

ورغم أن ـ الفقير إلى الله ـ «جورج» لم يكن يكبر أخاه المشؤوم بأكثر من عام فقد كان يبدو كشيخ في الستين وعلى امتداد ربع قرن ما تمتع بأكثر من أسبوعيْ إجازة في السنة. تراه في مكتبه منذ التاسعة والنصف فإذا هو ملازم له لايفارقه قبل السادسة مساءً وكان أميناً مجداً لاتتردد في الاعتماد عليه إما دعت الحاجة، أما زوجته الطيبة فكان مخلصاً لها في السر والعلن وما فاقه أحد في

المثالية والأبوة الحانية تجاه بناته الأربع يتفيأن في دوح محبته ورقته وحنانه وارف الظلال.

وكان قد عزم على ادّخار ثلث دخله كيما يتقاعد في الخامسة والخمسين فيقطن بيتاً في أقاصى الريف... ويظل يزرع حديقته الصغيرة ويلعب «الجولف» تلك كانت أقصى أمانيه... بريئة كانت حياته براءة الأطفال... نقية لايكدر صفوها مكدر أو تجترحها جريرة تستوجب الندم... وكان سعيداً بتقدمه في السن إذ إن «توم» كان يتقدم فيه كذلك ومقشة العمر لاتبقي على أحد من الناس أو تذر. وفرك «جورج» راحتيه ثم قال لي:

لقد كانت سفينة حياة أخي تبحر في اليم حينما كان شاباً وسيماً لكنه أصغر مني بسنة واحدة، وسيصبح عمره بعد أربع سنوات خمسين عاماً عندها لن تكون الحياة سهلة ميسرة بالنسبة له... أما أنا فسيكون لدي ـ حينما أشارف على الخمسين ـ ثلاثين ألف جنيه. لقد ظللت أردد طوال ربع قرن من الزمان أن الأمر سينتهي بـ«توم» إلى «الدرك الأسفل»... ولسوف نرى ما يكون من شأنه آنذاك سيتعلم «توم» ساعتها أي منقلب سينقلب وما إذا كانت حياة الدعة والراحة خيراً من الجد والعمل!

يالك من مسكين يا «جورج» قلت متعاطفاً معه في قرارة ذاتي وظللت أسائل نفسي ـ جالساً بمحاذاته ـ عما فعله «توم» الآن إذ إنه بدا جلياً أن «جورج» كان في قمة الغضب! ترى ماذا اجترح ذلك الشقي ليثير حفيظة أخيه إلى هذا الحد؟ سألت نفسي وإشفاقي على الشقيق الأكبر بتناذر خفي على الأصغر.

ـ أتعلم ما الذي حدث الآن؟ سالني «جورج» وكنت أتوقع الأسوأ متسائلاً عما إذا كان «توم» قد وقع أخيراً في قبضة العدالة. وبدا جلياً أن الاضطراب كان يبعثر الكلمات على شفتيه:

ـ ليس بوسعك أن تنكر جدي وإجتهادي وحرصي على إعطاء العمل ما يستحقه من الاهتمام و التفاني ـ كنت أميناً مخلصاً... صريحاً... نزيهاً... وبعد

حقبة من العطاء المثمر والاقتصاد في الإنفاق كنت أعتزم التقاعد على دخل يكفيني وعائلتي... ذاك ما خططت له... أما أديت واجبي خير أداء؟

ـ أجل! أجبته.

ـ وليس بوسع المرء كذلك أن ينكر أن «توم» كان عابثاً لاهياً طوال حياته... أنه كان وغداً لا ينطوي سجل سيرته إلا على صفحات من الخزي... وأن أفضل مكان له ليس سوى السجن يقوّم فيه ما اعوجّ. ألست محقاً؟.

ـ بلى... ما جاوزت الحقيقة. أجبته متعاطفاً... على أن وجهه احمرّ فجأةً وهو يقول مستطرداً:

ـ لقد ارتبط قبل عدة اسابيع بسيدة تكبره بما يخولها لأن تكون له أمًّا! ولقد توفيت الآن تاركةً له كل ما تملك! نصف مليون جنيه ويخت وبيت في لندن، إضافة إلى آخر في الريف!

وضرب «جورج رمزي» المنضدة بقبضته فجأة:

ـ هذا ليس عدلاً! ليس عدلاً أقول لك... تبّاً له!

وما تمالكت نفسي... غرقت في نوبة عميقة من الضحك وأنا أتأمل وجه «جورج» الغاضب... وتأرجح الكرسي حتى كدت أقع أرضاً! ولم يسامحني «جورج» على ذلك أبداً أما «توم» فكان كثيراً ما يدعوني إلى ولائم فخمة في منزله الراقي بحيّ «ميّ فير» وإذا كان يستدين مني بعض المبالغ التافهة أحياناً فما مرد ذلك لسوى جبروت العادة... وعلى أي حال فإن ما كان يقترضه مني ـ بين الفينة والفينة ـ لم يكن يتجاوز جنيهاً إنجليزياً ملكياً واحداً.

سبق صحفي

للكاتب الأمريكي: جيمس تي ـ فاريل James t. farrel

شقّت قلب الازدحام المروري سيارة كبيرة لتوزيع أعداد صحيفة «شيكاغو كوستشنر» وانطلقت هادرة لاتلوي على شيء ميممة شمالاً صوب جسر شارع «كلارك»... وزلزلت الشارع نافثة غاز أول أكسيد الكربون من عادمها المهترئ... فيما أطلق قاطعها المفتوح فواصل في منظومة الضوضاء المصمة جرحت أديم الفضاء بوقعها الذي لايطاق.

كانت تلك هي فاتحة شاحنات التوزيع. ووقف «دينيس مكديرموت» عامل التوزيع المتسلط على حافة ذيلها متعلقاً بحبل قوي.

كان وسيماً... قوياً... ثملاً برحيق الشباب ولذة المنصب الجديد... تبدى ذلك كله عبر تكشيرة خيلاء يقابل بها كل من صادفه... ولم لا وهو يمتطي صهوة شاحنة مهيبة فيما يمتطي رفاقه من موزعي الصحف الأخرى عربات تجرها الخيول!

واهتزت مفاصل السيارة وأزَّت وهي تعبر الجسر الوعر فيما كان «دينيس» يسترجع صفحاتٍ من أيام صباه السالفة تلك التي مرت وتولت وسوف لن تعود...لن!

نشأ في شمال المدينة وتربى في شوارعها... قبل أن يلتحق بعمل في إحدى دور العبادة... وكان منسوبو تلك الدار يرمقونه بدهشة مقنَّعة لايجرؤون على إظهارها... وعجبوا كيف أن فتى ذكياً يعمل بدار للدين لايكف عن المناكفة واختلاق الشجار مع الناس.

وكان ذلك قبيل طرده من المدرسة للمرة الثالثة والأخيرة. وكان والده من طائفة المهاجرين الآيرلنديين وعاملاً غير مؤهل عيّن على وظيفة متواضعة بمساعدة من أحد أصدقائه، فخفضت من أسهمه لدى أهل حارته فيما يختص بالتركيبة السياسية التي اشتهر بها الإيرلنديون.

وأنَّى حلّ «دينيس» أو ارتحل... كان يجد أمامه طوائف من المتسكعين الأشرار... تحتضنهم منعطفات وزوايا الحي فنشأ على ذلك واعتادت نفسه على التوغل في بؤرة الشر واستجلاء أسرارها ومكنوناتها... وتشبع بعادات رفاق السوء وتقاليعهم... بل أنه تجاوز ذلك حتى فاقهم تفقهاً فيها وتبحراً، فكان يقود طائفة أشقيائه في غارات مفاجئة على عابري السبيل ممن تلفظهم حانات الحي فلا يشعرون بما حولهم أو يدرون.

ولأن «دينيس» كان يتحلى بخصال ذميمة عدة كان أقلها التهور وسرعة الغضب وتقلب المزاج فقد خوّل له ذلك كله تسنُّم مراتب عليا في عالم الجريمة والعنف فعيّن بديلاً للمضربين عن العمل وعضواً في سلك الحروب المشتعلة بين أصحاب سيارات الأجرة قبل أن يلفت انتباه جريدة «شيكاغو كوستشنر» لتعينه موزع صحف لديها ويخوض بذلك معارك ضارية مع موزعي الصحف الأخرى.

وقبض عليه مرتين بتهمة مهاجمة الأبرياء بقصد السرقة، على أن الدوق «أو كونيل» وكان قد عين على منصب النائب العام تدخل مرتين لإطلاق سراحه.

وكان «دينيس» يقف بأنفةٍ وغطرسة وخيلاء على ذيل الشاحنة ليظل يوزع الصحف في أرجاء ومنعطفات الحي العتيقة... وفي الأمكنة التي اعتاد أن يقف فيها ـ زمناً مضى وتولى ـ كيما ينادي على الصحف. وكما كان كثير من موزعي الصحف سالفاً يحتالون عليه بإعطائه نسخاً أقل عدداً من المطلوب مع استيفاء الثمن كاملاً منه، فقد امتهن هو النهج ذاته ـ مع من كانوا في مستواه العلمي ـ من الباعة الصغار المساكين كيما يعبوا بدورهم من كأس المعاناة ليدفعوا الفرق رغم ضآلة مكاسبهم، وإذاً فقد أخضعهم إلى تجربته المهنية المريرة ذاتها.

وأطبق يده على الحبل الذي يستند إليه حينما انحنت الشاحنة فجأة عند إحدى المنعطفات قبل أن تتوقف بمحاذاة ركن لبيع الصحف ليقذف «دينيس» إلى الباعة بحزمة تحوي خمساً وأربعين نسخة من الجريدة:

ـ كم نسخةً تحوي؟

سأله الصبي المكلف ببيعها وملامحه تنطق بملاحم حزينةً من إرهاق وبؤس... وثقب كبير يتوسط موضع الركبة في شرّابه الأيسر.

ـ العدد المطلوب! بها خمسون نسخة! رد «دينيس» بصوته الغاضب المزمجر... المهدد المتوعد كالعادة!

ـ ما وصلنا الليلة الماضية سوى خمسة وأربعين ـ عددتها بنفسي!

قال الصبي بتحدٍّ راعش تعوزه الثقة.

ـ خمسون! قلت لك!

ـ حسناً... لكنني عددتها بنفسي ـ ردَّ الصبي ـ بصوت إلى الأنين أقرب. وفرك «دينيس» أذن الصبي اليسرى بإصبعين قويتين وأعاد السؤال عما وصله من نسخ!

ـ لقد عددتها... رد الصبي بنبراتٍ متكسرة!.

وعاجله «دينيس» بضربة قوية من قفا يده على فمه قائلاً له بأن نسخ الأمس كانت خمسين ثم قفز إلى الشاحنة بخفة تاركاً الفتى يعدّ النسخ الجديدة ودموع حارة تهمي على خديه ونشيج حادّ يهز كيانه.

ـ كيف تسير الأمور يا «ووب»؟ سأل دينيس «روكو مارتيني» في المحطة التالية.

ـ بخير أيها الإيرلندي ـ رد «روكو» غامزاً بعينه.

وفيما كان الأخير يفتح رزمة الصحف سارع «دينيس» بالقول أنه وأحد أصدقائه قد اعتزما سرقة أحد المنازل يوم السبت المقبل وإنهم بحاجة إلى شخص ثالث ليقوم بالحراسة وعرض «دينيس» أن يتولى «روكو» تلك المهمة مقابل ربع الغنيمة. ولما وافق «روكو» اتفقا على موعد يلتقيان فيه لبحث التفاصيل برمتها.

بعد توقفين ما حدث فيهما شيء يذكر، اتجهت الشاحنة إلى ركن موقف عنده صبيان يتشاجران، وقفز «دينيس» فوقف على مقربةٍ منهما... واضعاً يديه على جنبيه في سخرية لاذعة. ولاحظ أن أحد الصبيين كان يحمل رزمة من صحف الـ «شيكاغو كوستشنر».

ـ ما المسألة؟ هاه!.

هذا «الولد» يحاول أن يتدخل في عملي! رد الصبي الآخر... والذي كان يعمل بائعاً لصحف «شيكاغو كوستشنر».

وألقى «دينيس» نظرة مزلزلةً على المتطفل ذي الوجه المغطى بالنمش فيما تراجع الأخير بضع خطوات مضطربة.

واستعان الصبي الأول بـ «دينيس».

ـ هذا المكان يخصني! أليس كذلك يا «دينيس»؟.

ـ هذه بلد الحرية ـ رد الصبي الآخر وسأبيع صحفي في المكان الذي يحلو لي!.

ـ فتلك هي المسألة إذاً؟! قال «دينيس» بحدة قبل أن يلتقط صحف المسكين فيبعثرها... ومدّ الصبي يده لالتقاطها فلوى «دينيس» ذراعه وضربه في ظهره محذراً إياه... آمراً تعيس الحظ بعدم مزاولة مهنة بيع الصحف في ذلك المكان... ثم عمد إلى صحفه فمزقها وطلب من الصبي التابع لصحيفته أن يخبره في الحال إذا ما عاد الصعلوك إلى البيع في ذلك الموضع بالذات!.

واتجهت الشاحنة «بدينيس» بعد ذلك إلى ركن البائع «إيليس القزم» لم يكن يحبه... فقد كان يضع صحف «الكوستشنر» في الزاوية الخلفية من رف بيع الجرائد... وأمر «دينيس» سائقه بالالتفاف حول الموقع فيما نزل بخفة وسار الهوينى إلى حيث يقف البائع:

ـ أما حذرتك من وضع صحفنا في الخلف؟!

ـ أجل... ـ قال الصبي ـ بيد أن «موقز» كان هنا أيضاً وأمرني بوضع صحفهم في الواجهة الأمامية!

ـ فعل ذلك؟

أجل!

ـ وماذا قلت لك؟

ـ لا أفهم ما يمنعكم من ترك صبي مثلي في حال سبيله!

ـ لاتفهم... هاه؟ قال «دينيس» وقد لمح في عيني «إيليس» نظرة لم تعجبه ـ أعد صحفنا إلى مقدمة الرف!

ـ لكي يعود «موقز» فيذيقني الأمرين ـ.

ـ غيّرها قلت لك!.

ولم يرضخ «إيليس» له! ما انصاع للأوامر... فابتدره «دينيس» بصفعة احمرّ لها خدّه... وضع المسكين يده على موضع الصفعة المتوهج قبل أن يتراجع قليلاً فيخرج من جيبه مطواةً لوّح بها في تكتيكٍ دفاعي بحت طالباً من «دينيس» أن يدعه وشأنه. على أنه ما تركه في حال سبيله تقدم صوبه، فيما كان المذعور يقلّب مطواته في حركات هوائية وفجأة جرحت سكين الجيب رسغ «دينيس» فما كان منه وقد عيل صبره وتناذر غضبه إلا أن أخرج موس حلاقة من جيبه وعندما هاجمه الصبي ثانية مدافعاً عن نفسه... تقدم «دينيس» نحوه فجرحه بعنف في

حلقه محدثاً شقاً غائراً امتد من إحدى أذنيه إلى الأخرى تقريباً... وسقط الولد على الأرض... ورأسه يكاد ينفصل عن جسده والدماء تغطي أرضية الممر. وتلفت «دينيس» حوله مطمئناً إلى أن أحداً لم ير ما حدث... وكان على يقين من أن الصبي كان يصارع سكرات الموت فسارع بالقفز إلى مؤخرة شاحنة التوزيع وكرّ راجعاً إلى مكتب صحيفة «الكوستشنر» حيث قابل محرر الفترة المسائية «كيلي مالوي» ذاك الذي تدرج في سلم الصحافة سريعاً وهو بعد في الثلاثين لما يزل.

وكان «مالوي» هذا عنيفاً في تخاطبه رغم أن وجهه الأنثوي كان يوحي بالرقة وقد عين في منصبه خلال مقايضة أريد بها دفع عجلة التوزيع الذي كان «دينيس» أفضل موظفيه.

وعندما أكد له «دينيس» بأن أحداً لم يشهد الموقعة... تنفس «مالوي» الصعداء قبل أن يفرك يديه معلناً أن تلك الحادثة تستحق ملحقاً خاصاً... واستحال كتلة من الطاقة وهو يهم بالشروع في إصدار ذلك.

بعد برهة... كان «دينيس» يمتطي شاحنة التوزيع ثانيةً حاملاً ملحقاً توسطته هذه العبارة:

مقتل بائع صحف!

ولايزال القاتل حراً طليقاً!

مقتل صبي من الشمال خلال مشاجرة مشتبه بها بين عصابات الحي.

في ذلك الوقت... كانت صحيفة «الكوستشنر» تقود حملة عشوائية جريئة ضد العنف فيما حملت المقالة الافتتاحية عبارات محمومة... مستعرة مطالبةً رجال الأمن بتطبيق القانون وخفض معدلات الجريمة!

القناص

للكاتب الأمريكي: ليام أو. فلارتي

تبخّر غسق شهر «يونيو» الطويل وذاب في كبد الليل وبدت مدينة «دبلن» وقد احتجبت داخل أردية كثيفة من دامس الظلمة... إلا من شعاعاتٍ واهنة يسكبها القمر لجيناً مشعاً ينساب بين طيات السحب بين الفينة والأخرى... لتصب في الأروقة والطرقات كشعاعات الفجر الأولى تنعكس في صمت وذبول فوق صفحة نهر «ليفي». ولعلعت البنادق في المنطقة المحيطة بمدخل «الساحات الأربع» المحاصرة فيما أقضّت مهجع المدينة برمتها أصوات الرشاشات المتفرقة تئزّ بين الحين والحين كنباح كلاب مسعورة يأتي رجعها مؤلماً مخيفاً... من آخر المدى. كانت ثمة حرب أهلية تدور رحاها في إيرلندا بين الجمهوريين وجماعة حركة الأحرار الذاتية. وعلى سطح إحدى النباتات بالقرب من جسر «أو كونيل» جثم قناص جمهوري يرصد ما حوله وإلى جانبه كانت ثمة بندقية معمرة، فيما علق منظاراً على كتفيه. كانت له ملامح طالب... وجهه كان صارماً... نحيلاً ينبئ بالزهد والتنسك، لكن شعاعاً بارداً كان ينطلق من عينيه في صرامة وقسوة... تينك العينان... شد ما كانتا عميقتين معبرتين... ولا عجب فقد اعتادتا على مصافحة مرأى الموت أياماً وليال كان الرجل يقضم شطيرةً بنهم، إذ إنه لم يذق منذ صباح ذلك اليوم شيئاً، فقد كان في شغل عن ذلك. ألهته رهبة الموقف فبدا مثاراً مهتاجاً... وأنهى شطيرته فأخرج شيئاً من الشراب تناول جرعة منه وأعاد الوعاء إلى جيبه. وتوقف لوهلة متسائلاً عما إذا كان بإمكانه المجازفة بإشعال لفافة تبغ... وبدا له الأمر غاية في الخطورة إذ إن وهج الثقاب قد يلفت إليه أنظار الأعداء المتربصين به... على أنه قرر المخاطرة... وضع اللفافة بين شفتيه وأشعل عود ثقاب... وفجأة أزت رصاصة فوق رأسه فارتمى أرضاً في الحال...

لقد أبصر مصدر الرصاصة... انطلقت من الناحية الأخرى للشارع... وتدحرج على أرضية السطح حتى حاذى جدار المدخنة ثم زحف إلى أن أصبح على مستوى المتراس المقام أمامه. ولم يكن بالإمكان رؤية شيء غير خطوط الهيكل الخارجي الداكنة لأعلى المنزل المقابل في عتمة المساء . كان عدوه ممعناً في الاختباء حدّ استحالة تحديد مكانه.

في تلك اللحظة تماماً عبرت سيارة مسلحة الجسرَ، وتقدمت عبر الشارع ببطء قبل أن تتوقف على بعد خمسين قدماً منه وكان بإمكان القناص سماع لهاثها الرتيب وتعالى وجيب قلبه أكثر فأكثر... كانت إحدى سيارات العدو وخامرته رغبة في إطلاق النار عليها لكنه عدل عن ذلك بعد أن أدرك أن المدرعة محصّنة ضد الرصاص... (لن يتسنى لرصاصي اختراق الجدار الفولاذي لذلك الوحش الرمادي!) قال لنفسه في غضب مكبوت ومن منعطف إحدى الشوارع الفرعية أقبلت امرأة عجوز!

كانت ترتدي وشاحاً مهلهلاً وسارت حتى بلغت المدرعة وشرعت تتحدث مع رجل أطل من برجها قبل أن تشير إلى السطح الذي يقبع القناص فيه. فهي مخبرة إذاً. قال القناص لنفسه في كمد. وانفتحت فوهة برج المدرعة ثم... تمخضت عن رأس رجل فكتفيه وذعر القناص وهو يراه ينظر صوبه فما كان منه إلا أن رفع بندقيته وأطلق النار تجاهه وسقط الرجل على حافة برج المدرعة بعنف... وعدت المرأة في ذعر إلى الشارع الجانبي لكن القناص سدد ثانية فأرداها قتيلة! ترنحت ثم سقطت في إحدى قنوات الشارع الجانبية بعد أن أطلقت صرخة رعب تردد صداها، وفجأة أزت رصاصة من سطح العمارة المقابلة تجاه القناص الذي ألقى ببندقيته على الأرض فجأة فتدحرجت بعنف محدثة صخباً خال القناص أنه سيوقظ الموتى، وتوقَّف كيما يلتقط بندقيته لكنه لم يستطع رفعها... كانت ذراعه ميتة:

ـ يا إلهي ـ تمتم في رعب ـ لقد أصبت!.

وزحف إلى المتراس ثانية ثم تحسس بيده اليسرى موضع الألم في ذراعه اليمنى المصابة... لم يكن ثمة ألم هناك... شعور تام بالخدر فقط كما لو كانت قد بترت. وفتح القناص سكّينه بعد أن وضعها على صدر المتراس ثم قدّ كُمَّ قميصه فبصر بالثقب الذي نفذت الرصاصة عبره... ولم يكن في الناحية الثانية من ذراعه ثقب آخر فهي إذاً... قد استقرّت في عظمه... وأحدثت به شرخاً دون شك وثنى ذراعه أسفل الجرح فانثنت بمرونة، على أنه صرّ على أسنانه لشدة ما استشعر من ألم أطار صوابه وفتح علبة الضماد بسكينه فأخرج منها زجاجة المطهر وصبَّ منها على الجرح كمية لابأس بها وشرع يتأمل ذلك السائل الأحمر المرّ... ينزلق إلى مدارات الجرح الفاغر فاه في ذراعه واجتاحته نوبة من الألم مجدداً فوضع قطعة قطن فوقه ثم لفه بضماد ربط طرفيه بأسنانه وما أن أنهى ذلك حتى اتكأ على حافة المتراس وأغلق عينيه في محاولة لقهر الألم.

كان الهدوء يعمّ أرجاء الشارع أسفل منه... وألقى نظرة على المدرعة المسترخية فوق الجسر وجثة الجندي لاتزال معلقة على حافة برجها... وعلى إحدى قناتي الشارع كانت جثة المرأة قابعة لما تزل!

ومكث القناص في مخبئه طويلاً في محاولة لنيل قسط من الراحة، ورسم خطة مستقبلية لما يتحتم عمله قبل أن تنفتح أكمام الصباح عنه وهو لا يزال في مكمنه... مصاباً ثقيل الحركة، وفكر في العدوّ الجاثم أمامه في المبنى المقابل... لن يستطيع مغادرة مكانه خوفاً منه... باتت مسألة قتله ضرورة حتمية ـ قال لنفسه ـ والليل يوشك أن ينقض غزله ويرحل... على أنه لم يكن بمقدوره أن يستخدم بندقيته لهذا الغرض... ولم يكن لديه خيار سوى توظيف مسدسه كحل وحيد... ولذا فقد قدح زناد فكره مرات عدة حتى توصل إلى حل لمعضلته. وبادر إلى قبعته فخلعها بحذر... ثم وضعها على فوهة بندقيته ودفع بالبندقية عبر المتراس شيئاً فشيئاً حتى أصبحت في موضع يتيح للجاثم في المبنى المقابل رؤيتها... وفجأة انطلقت رصاصة اخترقت وسط القبعة. عندها أمال القناص

البندقية إلى الأمام فسقطت القبعة إلى أسفل الشارع تباعاً... ثم أمسك بالبندقية من منتصفها وجعل يده اليسرى تسقط دون حراك... وبعد دقائق عدة ترك البندقية تهوي إلى الشارع قبل أن يزحف على أرضية السطح ساحباً ذراعه المصابة، وما أن حاذى الزاوية المطلوبة حتى استرق النظر إلى خصمه... وأدرك أن خطته قد نجحت وبأن الحيلة قد انطلت عليه ـ إذ إنه كان قدهبّ واقفاً بين أشباح المداخن وقد ارتسمت الحدود الخارجية الداكنة لجسده منطبعة على أفق السماء الغربية، فأيقن بأنه قد قتل خصمه وابتسم القناص الجمهوري وهو يرفع مسدسه فوق حافة المتراس... كانت المسافة الفاصلة بينهما لاتزيد عن الخمسين متراً... ولم تكن مهمته سهلة في جوف ذاك الليل البهيم، والألم في ذراعه يتلظى كألف مرجل. على أنه سدد بدقة وثبات وأرعش الحماس يده... فزمّ شفتيه وجذب نفساً قوياً عبر أنفه ثم... ضغط على الزناد... وكاد الصوت يصم أذنيه فيما اهتز جسده بعنف... وما أن تلاشى دخان تلك الطلقة الهائلة حتى استرق النظر عبر الزاوية مجدداً قبل أن يطلق صرخة فرح. لقد أصاب خصمه الذي ظلّ نزع الموت يدحرجه فوق المتراس وهو يحاول تثبيت قدميه عبثاً... ليهوي في النهاية... كما لو كان في أدغال حلم سرمدي فيسقط رشاشه... مرتطماً بعمود صالون الحلاقة أسفل الشارع قبل أن يقرع صليل ارتطامه بالأرض أسماع الليل.

وواصل الجندي المحتضر سقوطه فتدحرج من علٍ، وهوى ليرتطم بأرضية الرصيف حيث ظلّ هناك... دون حراك.

وتأمل القناص عدوه وهو يهوي... لكن قشعريرة هزت جسده فجأة... ماتت شهوة المعركة داخله! واستشعر أنياب الندم تنهش دون هوادة فؤاده... وتناثرت حبات العرق على جبينه..... كان الجوع والإنهاك وأثر الرصاصة في ذراعه ومرأى ذلك الجندي يهوي أمامه ليموت ميتة بشعة... ذلك كله كان كمعول جبار شرع يحفر في أعماق كيانه بدقات رتيبة رهيبة أنّ لها جسده واصطت معها أسنانه... وشرع يهذي صاباً جام نقمته على الحرب وعلى نفسه... وعلى الكون والناس طراً.

وتأمل مسدسه ملياً... كان الدخان لايزال يتصاعد من فوهته... وأبرم في داخله عهداً قبل أن يقذف به فيرتطم بالأرض بشدة وتنطلق منه رصاصة تمر فوق رأسه ملعلعة مدوية وتعيد الصدمة إليه صوابه... وهدوء أعصابه ورباطة جأشه... فإذا هو يضحك في ابتهاج ساخراً من نفسه.

وتمتد يده إلى القارورة في جيبه فيفرغ ما بها في جوفه دفعة واحدة ويخامره شعور غامر بترك المكان واللحاق برفاقه، فيما كان الصمت يغلف أرجاء المدينة...: ـ لم يعد هناك ثمة خطر من التجوال في الشوارع...! قال في نفسه قبل أن ينحني فيلتقط مسدسه ويضعه في جيبه ثم ينزلق على الجدار هبوطاً إلى الشارع، وما أن وطئت قدماه الأرض حتى غزته رغبة شديدة في التعرف على هوية الرجل الذي قتل... تملكه فضول لايقاوم في إلقاء نظرة على ذلك القناص الآخر... ـ من أمهر الرماة هو دون ريب ـ اعترف لنفسه ـ

كائناً من كان!

وعقد العزم على المجازفة بالعودة إليه... ترى هل يعرفه؟ تساءل... قبل أن يلقي نظرةً قلقة على الناحية الأخرى من الشارع... كان القتال هناك على أشده وأزيز الرصاص يجرح فوهات البنادق المذعورة أما هنا... حيث يقف... فلا شيء سوى سكوت الموت! وعاد إلى التساؤل ثانية عمن يكون القتيل... ربما... ربما كان أحد رفاقه في الجيش قبيل الانفصال!

واستجمع شجاعته ثم انطلق كالسهم باتجاه الآخر... وفجأة مزقت الأرض حوله رشقات انطلقت من مدفع رشاش كسيل من حبات البَرَد إلا أنه نجا منها بأعجوبة وارتمى على الأرض ووجهه إليها... بجوار القناص القتيل... ومكث في وضعه لا يحرك ساكناً حتى سكت صوت الرصاص وساد هدوء ما بعد العاصفة... عندها قلب القناص الجثة وألقى على ملامحها نظرة خاطفة عرف فيها وجه أخيه!

أبداً... لن أراك

للكاتب الأمريكي: (رايّ براد بوري)

دقات خفيفة... رتيبة توالت على باب المطبخ وعندما فتحته السيدة «أوبرايان» رأت في نهاية الشرفة أفضل قاطنة لديها... السيدة «راميرز» وقد أحاط بها شرطيان... ووقفت المسكينة بينهما فبدت حبيسة... محتجزة ضئيلة الهيئة.

ـ سيدة «راميرز»... ياإلهي... مالأمر؟

هتفت «أوبرايان» ملتاعة!

وطفى الانفعال والألم والحيرة على الأخيرة... فما حارت جواباً! ما أسعفتها الكلمات إذ إن وقع الأمر كان شديداً.

وكانت المسكينة قد اكترت إحدى غرف العمارة التي تملكها السيدة «أوبريان» منذ عامين أو ينيف فما غادرتها منذ ذلك الحين... كانت قد وفدت ـ عبر حافلةٍ ـ من «مكسيكو سيتي» إلى «سان دييغو» وتوجهت بعد ذلك إلى «لوس آنجيليس» بحثاً عن لقمة العيش واهتدت إلى غرفة صغيرة نظيفة فرشت أرضيتها بالمشمع اللامع، فيما ازدانت جدرانها بالصور والمصابيح الراتعة في روض بهيج من الأزهار والرياحين الملونة التي يغص بها ورق الجدران، وكانت مالكة ذلك كله... السيدة «أوبرايان» حازمة في لين... لينة في حزم رقيقة... أنيقة فلا عجب أن أحبتها القاطنة المكسيكية المسكينة وكانت السيدة «راميرز» تعمل قبيل الحرب في أحد المصانع ولا زالت تحتفظ بذات المهنة التي درت عليها دخلاً كبيراً أودعت جلّه أحد المصارف، ومتعت نفسها بالقلة القليلة الباقية فزاد ذلك من إعجاب السيدة «أوبرايان» بها وقربها منها أكثر فأكثر.

وداخل المطبخ كانت الفطائر في الفرن على وشك النضج... لتخرج سمراء في لون بشرة السيدة «راميرز» وبخطوط كتلك التي تلوح في عينيها المجهدتين دوماً. وشعت رائحة الفطائر اللذيذة في أرجاء المطبخ الدافئ فمال الشرطيان برأسيهما ثملين بالعبق المغري. أما السيدة «راميرز» فاكتفت بالنظر إلى قدميها عازيةً السبب إليهما فيما وصلت إليه من متاعب.

ـ ماذا جرى سيدة «راميرز»؟ سألتها مالكة النُّزل.

ونظرت السيدة «راميرز» إلى طاولة الطعام الطويلة وقد تحلّق أولاد وبنات السيدة «أوبرايان» الخمسة حولها... تجوّلت عيناها فيما صف عليها من أطايب الطعام... مفرش نظيف اتكأت عليه آنية الفاكهة والحلوى، وأكواب براقة، إبريق ماء. وطفق الأولاد ينظرون إلى الشرطيين وأيديهم تمتد في هدوء إلى ما أمامهم...

ـ هنا أمضيت أروع سنيّ حياتي! ـ قالت السيدة «راميرز» فيما يشبه الحلم واستطردت بهدوء: لقد عشت هنا ثلاثين شهراً!... ونظرت إلى كفي السيدة «أوبرايان» الممتلئتين.

ـ أي أنك تقيمين هنا منذ ستة أشهر بصورة غير قانونية! قال أحد الشرطيين ـ وأوضح الأمر: إقامتها منتهية!

منذ وصول السيدة «راميرز» اشترت مذياعاً لغرفتها الصغيرة وكانت تستمتع برفع صوته حتى تتقاذف الجدران صداه ـ واشترت كذلك ساعة معصم كان مرآها ـ كلما رنت إليها ـ يبعث في ذاتها ألواناً من السعادة. وكانت إذا ما أرخى الليل سدوله تمشي الهوينى في شارع المدينة فتستعرض ما ازدانت به واجهات المحلات من ملابس وحلي، وتعمد أحياناً إلى شراء الرخيص منها.

وكانت تستقلّ «الترام» أحياناً لتظل تحدق في مسارات الليل مداراته وكهوفه البعيدة ورائحة الكهرباء تداعب خياشيمها راسمة خطوطاً لذكريات لا تنضب أو تتعب، وعيناها تطاردان لوحات الإعلانات المعلقة في الشوارع مستشعرة زلزلة العجلات. أسفل منها... والبيوت الصغيرة والفنادق تمرق أمام ناظريها بسرعة.

ولطالما ذهبت مع صويحباتها إلى دار «الأوبرا» وأمضت معهن في مطاعم المدينة أوقاتاً حلوة... عذبة لا تنسى.

وكانت المسكينة قد اشترت ـ إلى جانب ذلك كله سيارة تأخرت في دفع ثمنها فجاء البائع مغضباً وانطلق بها إلى المعرض ثانية.

ـ وها أنا قد أتيت ـ قالت السيدة «راميرز» ـ لأبلغك بأني سأترك الغرفة سيدة «أوبريان» لقد أتيت لأجمع أمتعتي وملابسي قبل أن أذهب معهما!

ـ ستعودين إلى المكسيك؟

ـ أجل! إلى «لاغوس» تحديداً وهي بلدة صغيرة شمال «مكسيكو سيتي»

ـ شد ما أنا آسفة سيدة «راميرز»!

ـ لقد أعددت متاعي! قالت السيدة «راميرز» وعيناها ترمشان بعصبية ويداها تتقدمانها في يأس وإحباط!.

ولم يضع الشرطيان الحديد في يديها! ما كان ثمة داعياً لذلك.

ـ إليك بالمفاتيح سيدة «أوبرايان» لقد أعددت حقيبتي!

ولمحت السيدة «أوبرايان» لأول وهلة حقيبة موضوعة في الشرفة باستكانةٍ خلفها.

وألقت السيدة «راميرز» نظرة وداع أخيرة على المطبخ الواسع والملاعق الفضية والصغار وهم يأكلون... والأرضية اللامعة، ثم نظرت إلى العمارة المجاورة لهم وطوابقها الثلاثة تعانق الفضاء في بهاء، ورمت ببصرها إلى الشرفات وسلالم النجاة، وعتبات البلكونات الخلفية وحبال الغسيل يميل بها النسيم يمنة ويسرة.

ـ لقد كنت من أفضل القاطنين هنا! قالت لها السيدة «أوبرايان».

ـ شكراً... شكراً سيدة «أوبرايان» ردّت بعينين مغمضتين وصوت هامس رقيق كدفق الأماني بخاطر الملتاع.

ووقفت السيدة «أوبرايان» ممسكة بالباب نصف مفتوح... ونبهها أحد أبنائها إلى أن أكلها قد برد لكنها هزت رأسها واستدارت إلى السيدة «راميرز» ثم أبحرت مع الذكريات!

استعادت في مخيلتها رجع ذكرى لأيام أمضتها في زيارة لبعض المدن المكسيكية الحدودية... تلك الأيام الحارّة، وحشرة صرارات الليل تئزّ بأصواتها السرمدية وقد زحف بعضها وسقط الآخر ميتاً... هشاً كأصابع السيجار الصغيرة في واجهات المحلات. رأت بعين ذاكرتها القنوات تحمل مياه النهر إلى الحقول... والطرق الترابية الموحلة وجذوع الأشجار المحروقة، وتذكرت المدن الهادئة والأطعمة الدسمة الحارة، والخيول المنهكة... تذكرت مرأى الأرانب البرية العطشى.

وعاد إليها مشهد الجبال الشاهقة والوديان المغبرة، وتلك الشواطئ التي تمتد إلى مئات الأميال في صمت لا يتخلله سوى تكسّر الأمواج على الرمال... حيث لا سيارات أو مباني... لا شيء ألبتة!.

ـ أنا آسفة... سيدة «راميرز» قالت مجدداً!.

ـ لاأريد أن أعود سيدة «أوبرايان» ـ قالت بضعف ـ أود أن أبقى هنا... أعشق هذا المكان! لقد عملت وكسبت المال وتحسنت صحتي كثيراً... أبدو بصحة جيدة أليس كذلك؟.

لاأريد أن أعود!

ـ شدما أنا آسفة سيدة «راميرز» تمنيت أن يكون بوسعي عمل شيء.

ـ سيدة «أوبرايان» صرخت السيدة «راميرز» فجأة والدموع تتشبث بأجفانها السفلى ثم مدت يدها فاحتضنت كف السيدة «أوبرايان» وهزتها بحرارة مبقيةً إياها بين كفيها ـ سيدة «أوبرايان» أبداً لن أراك... لن أراك أبداً!

وابتسم الشرطيان لمرأى ذلك لكن السيدة «راميرز» لم تلحظ ذلك... فتوقفا عن الابتسام فجأة.

ـ الوداع سيدة «أوبرايان» كنت دائماً طيبة معي... آه... الوداع! أبداً لن أراك!

وانتظر رجلا الأمن إلى أن حملت المسكينة حقيبتها ومضت وساقاها لاتكادان تحملانها. قبل أن يتبعها الشرطيان بعد أن أمالا قبعتيهما تحية للسيدة «أوبرايان». وظلت تنظر إليهم وهم يهبطون درجات الشرفة ثم أغلقت الباب في هدوء وعادت إلى كرسيها كيما تتم طعامها. سحبت كرسيها فجلست عليه وتناولت الشوكة والسكين لتقطع شريحة اللحم المشوي.

ـ أسرعي يا أمي... سوف يبرد! قال أحد أبنائها!

ووضعت قضمةً في فمها فظلت تلوكها بين أسنانها فترةً طويلة... وألقت على الباب الموصد نظرةً طويلة ثم وضعت الشوكة والسكين جانباً.

ـ ما الأمر...؟ مابك يا أمي؟ سألها أحد أبنائها!

ـ لقد تذكرت ـ قالت واضعة يدها على وجهها ـ بأني لن أرى السيدة «راميرز» ثانية أبداً ـ ...

الفراشة

للكاتب الأمريكي: جيمس هانلي

توطئة: قد يخيل لمن تصافح عيناه عنوان هذه القصة بأنها وبطلها «كاسيدي» موجهة لجيل الناشئة... وليس الأمر كذلك... هي أقصوصة ترمز إلى تجسيد المفهوم الديني بمعناه الحق... بأنه يسر لا عسر... وهي تسلط كثيراً من الضوء على المنحى الخاطئ لرجالات الدين ممن يدينون بغير الإسلام... منهاج الحب والرحمة والتعاطف والتسامح... فهم يتجردون من متع الحياة... ثم تدفعهم غرائزهم كبشر إلى الانحراف... وما قصة القس «شواجارت» عن ذلك ببعيد «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» فلك الحمد ربي أن جعلته لنا منهاجاً وعقيدة.

إنك لتكاد تلمس ذلك التقارب القدري بين حياة الفتى «كاسيدي» ويرقته، فهو يافع غض الإهاب على مدارج البلوغ، يحبو وهي خضراء توشك أن تتحول إلى فراشة.

والفتى داخل غرفته سجين لايبرحها... وهي داخل كرتون كذلك. أما الراهب فإنه يمثل أقسى آيات القمع والحرمان وهو يعاني من مركب نقص واضح يتجلى في ثورته من جراء صمت الصبي المتواصل... ويجسد سلوكه في نهاية القصة والمتمثل في سحق اليرقة رغبة في تقمص ذات الإجراء حيال الفتى... ما أقسى صمت الصمت حينما يستحيل بركاناً لا يبقي ولا يذر.

الفراشة

للكاتب الأمريكي: جيمس هانلي

أحدث رداء الراهب «تيموثي» حفيفاً غريباً ـ نوعاً ـ وهو يذرع الممر جيئةً وذهاباً. وجهه كان بلون النجيع، وبشفتين مرتعشتين وذات قلقة مضطربة شرع يعبث دون وعي بأزرة ردائه. خطواته الحائرة المغضبة وهي تدق أرض المجاز كانت تشي بكثير من الانعكاسات النفسية بعضها خُلُوٌ من المعاني، وجلّها يطرح أدلةً على ما يعتمل في فكره وذاته من قلق وفوضى وثورة مكبوتةٍ عارمة مشتعلةٍ تكاد تضيء النار بين جوانحه. ولم يكن الرائي بحاجة إلى جهد مضاعف لاستقراء ذلك وسبر غوره! كان يتمتم بين الفينة والفينة بعبارات غاضبةٍ فيما كانت نظراته الحادة ـ في تجاويف ذلك الخضم الحسي المتأجج ـ تتسلل إلى باب خشبي ثابت صلب يفضي إلى إحدى غرف ذلك الممر المعتم العتيق. لم يكن لأفكاره نظام أو هيئة... بدا مندهشاً حد الذهول ولم يكن ليجد تأويلاً منطقياً لما قام به الفتى الذي كلما ذكر اسمه «كاسيدي» اندفع الدم إلى جبهته في فورة عمياء راعشة. وكان صمت الفتى وسكونه العميق هو ما يلهب فؤاده بالغضب فيمور في تجاويف أوردته كالأسيد. ـ تباً لتلك السكينة والهدوء!

ـ قال الراهب لنفسه والكمد لما يزل يرفعه ويخفضه على أتون نار ليس تخمد. لابد وأن الفتى خُلُوٌ من الضمير! ـ قال لنفسه ثانيةً! وتوقف فجأة فألقى على الباب الرهيب نظرة... أعمل الفكر بعدها فتبدت له الغرفة التي يفضي إليها وقد غرقت في ظلام دامس لا يلبث أن يغمرها، وأرهف السمع فما تسللت إلى أذنيه أدنى حركة... لربما خلد الفتى إلى نوم عميق!... وربما كان لا يزال مستيقظاً! من يدري! قد يكون الآن جاثماً خلف الباب يستمع... متلذذاً بالمنى...

ثملاً بأمنيات الانعتاق من شرك سجنه... كيما يغادر غرفته فيحضن الدنيا بكل.. ما فيها من سعادة وألق ونشوةٍ لفتى يافع مثله... ياللخيال الغرّ الممعن في التفاؤل! وندت عن الراهب ضحكة ساخرة قصيرة وهو يستعرض تلك الآمال العراض تجوب فكر الصبي فلا تبرح مراكبها شطآن فكره. وانحسر شبح الابتسامة عن شفتيه وهو يؤكد لنفسه بأن الفتى لن يبرح غرفته حتى يقدم تفسيراً منطقياً لعدم حضوره القداس؛ ولم يكن ما أرّق الراهب خرقهُ للأوامر التي كلف بها وشقه لعصا الطاعة... ما ألهب غضبه كان ذاك الصمت الطويل... ذاك السكون الرهيب يواجهه به كلما طالبه بتقديم تفسير منطقي يبرر ما أقدم عليه. لكن الصغير لم يكن يملك سوى الصمت والإطراق والإبحار في غياهب السكون وتلك اللامبالاة القاتلة! ولم يكن كل ذلك وليد براءة كلا لم يكن ـ قال الراهب في نفسه ـ إذ إن تصرفاته وردة فعله كانت تشي بعكس ذلك تماماً، ذاك الصبي... كان عنيداً كباب فولاذي منيع! وأعمل الراهب فكره: كيف لي أن أعالجه فأفتحه؟

واستأنف ذرع الممر غادياً... رائحاً لدقائق خمس ثم توقف أمام الباب ثانية قبل أن يطرقه بشدة منادياً أن:

ـ أأنت هناك يا «كاسيدي»؟

وما أتاه جواب: تباً لك! قال ثانيةً.

وفكر... ربما كان يغطّ الآن في نوم عميق ـ على أنه ارتأى أنه ليس من حق الفتى أن ينام، فأخرج مفتاحاً من جيبه أداره في القفل قبل أن يفتح الباب فيلج إلى غرفة الغلام... وبهدوء... عاد الباب خلفه إلى وضعية الإقفال!

ورفع الفتى الذي كان جالساً على حافة السرير رأسه إلى الراهب «تيموثي» إلا أن معنى خفيفاً تحذيرياً في عين الأخير جعله يطرق على استحياء... ونظره يزحف على أرضية الغرفة في انتظار وقوع المحظور!

ـ حسناً «كاسيدي» ـ قال الراهب «تيموثي» ـ هل عدت إلى صوابك وثاب رشدك إليك أم ليس بعد؟

وانتفخت أوداجه وبرزت أوردة عنقه حتى حاكت انتفاخ الثعابين المستعرة بلهيب الرمضاء... كان يستمطر إجابة من الغلام... أي إجابة أو استجابة تكسر طوق الحاجز النفسي الذي يوشك أن يخنق أنفاسه.

ـ أجبني! قلت لك! ـ صرخ به ـ أجبني أيها الشرير الوضيع... أيها الـ... وخانته الكلمات! ما نبس عقب ذلك ببنت شفة! طفق يحدج المتهم بنظرات ثاقبة وسحب ـ بعد وهلة ـ كرسياً فجلس قبالة الغلام.

ـ أكرر ما قلته لك... لم تقدم تفسيراً يبرر ما أقدمت عليه من تصرف طائش ـ انظر إلي... اسمع أيهذا الصغير الـ... تخلفت يوم أمس عن حضور القداس، أنت وذلك الوغد المسمى «بايرن» من سمح لك بذلك؟ أين ذهبتما ولماذا؟ هلا أجبت؟ لماذا لم تطلب إذناً بذلك رغم أني لم أكن لأسمح لك؟ ما بالك وصاحبك السيئ؟ لماذا تختلفان عن الآخرين؟ أجبني ألم تسمع ما قلته لك! ستظل رهن الحبس هنا حتى تقدم تفسيراً يبرر ما أقدمت عليه... أصغ إلي... صمتك هذا... ضع حداً له وإلا... لن أصبر على ذلك... أتسمعني...

على أني سأحل عقدة لسانك أتسمعني قلت لك؟! للمرة الأخيرة أقول لك: لماذا تخلفت عن حضور القداس؟ ورفع «كاسيدي» ذو الخمسة عشر ربيعاً رأسه صوب الراهب تحركت شفتاه على أنه ما نبس بحرف. وعندما صفعه رجل الدين قال ببطء: لقد أخبرتك بالأمس أيها الراهب (تيموثي).

ـ فأنت مصمم على المضي قدماً فيما اعتزمت! حسناً. سوف تظل هنا إذاً ـ سنأتيك بالطعام على أنك لن تعبر هذا الباب حتى تفتح فاك هذا! وأمسك بالفتى من منكبيه فجأة فهزه بعنف قبل أن يصيح به:

ليس من حقك أن تفعل ذلك... سوف تعلل ما أقدمت عليه من عمل مشين وسوف تعتذر عما بدر منك أتفهم؟ ليس من اللائق أن تغيب في غياهب الصمت هكذا أتسمعني؟!

قال ذلك ثم تعالى وقع خطاه مغادراً المكان.

وابتسم «كاسيدي» وهو يستمع إلى صوت غلق الباب والمفتاح يدور في ثقبه جارحاً أديم السكون.

وأوى «كاسيدي» إلى فراشه وعندما أفاق كان عسجد الشمس يمور في الغرفة بضياء ساحر أخّاذ... حبّب إلى السجين الصغير عذوبة الحرية في الخارج... في اقتحام أسوار زنزانته الصغيرة والانطلاق إلى ذلك العالم النابض بالنشوة والمرح والألق... اشتاق إلى الخروج شوق العنادل للشدو، إلى التحرر من تلك الخطى الرتيبة تتجه صوب غرفته... إلى الهرب من ذلك المحيا المكفهر تعكس صفحته آيات الغضب والهزيمة وقال لنفسه بأنه لم يكن ينوي الإضرار بأحد... بأنه ما تأبط شراً لقد اتجه إلى الأسيجة والأدغال مع «بيرن» فأذهلهما ما شاهداه من حياة فطرية غريبة واستغرقهما ذلك فغابا في لجج من الانسجام والتعمق فيه إلى حد لم يسمعا معه رنين الجرس. وهاهو الآن يرسف في أغلال سجن انفرادي لأنه لم يستطع أن يقدم تبريراً يوضح ما حدث: ـ لكني قد شرحت له الأمر! قد فعلت.

وأخرج من جيبه كرتوناً صغيراً ثُقبت جوانبه فرفع غطاءه وما إن فعل حتى تسللت منه يرقةَ فراشة تسلقت إصبعه. وشرع «كاسيدي» يرمق تحركاتها الحذرة المتزنة وخفض رأسه فحدق فيها أكثر؛ بالروعة الاخضرار! همس لنفسه ـ ستغدو فراشةً جميلةً بعد يوم واحد. ما أبدع صنع الخالق! ـ وبرقّةٍ مرر إصبعه عليها... ولاحت الشمس خلف أستار السحاب فسكبت صبابة التبر في أرجاء الغرفة وسرعان ما غرقت اليرقة في شلال من الضياء.

ـ أظن أني سأدعوك «زفير»! قال «كاسيدي» مخاطباً الحشرة قبل أن يبتسم بنشوة اكتساب إلفٍ جديد.

كان يحتفظ بها في علبة الورق المقوى الصغيرة تلك ليومين... فتغمر السعادة أعطاف روحه كلما تذكر أنها هناك... قريبة منه... أنْسته قسوة الراهب «تيموثي» وأشياء مؤلمة كثيرة... في قرارة نفسه كان ثمة اقتناع باقتران السعادة بوجودها معه... تلك اليرقة الخضراء، ولو أنها كانت تفهم لغة البشر لشرح لها لماذا يصرّ الراهب «تيموثي» على إبقائه سجيناً... رهن الاعتقال... لربما فهمت تلك الخضراء اللزجة ما يعانيه فأشفقت عليه... ربما كانت ترمقه الآن بنظرات عطف وتفهّم لما لاقاه وما يعاني منه! من يدري! قال لنفسه.

ـ أوهـ! وندت عنه آهة خوف فيما سقطت العلبة من يده وهو يستمع إلى وقع خطوات قادمة على أرضية الممر.

بعد وهلةٍ فتح الباب وولج الراهب «تيموثي» عبره إلى داخل الغرفة:

حسناً «كاسيدي»؟ ـ قال: أترى ثاب إليك رشدك؟ على أن الفتى تصنع الغفلة... ظهره كان صوبه فيما سقط شعاع الشمس على وجهه وهو يضع اليرقة برفق على طحيلبٍ بقاع «الكرتون» وربت على ظهرها للمرة الأخيرة قبل أن يحكم الغطاء فوقها.

ـ «كاسيدي» ـ صرخ الراهب بصوتٍ شادى هزيم الرعد ـ ماذا تخبئ؟.

ـ ماذا تخبئ؟.

ـ «لا شيء... أقصد... أيها الراهب إنها...».

ـ ماذا... فأنت إذاً تهدر وقتك على هذا النسق؟ ألا تخجل؟ أفلا تشعر بالذنب؟!

ـ الذنب؟... إنها لا تعدو كونها يرقة صغيرة... أيها الراهب «تيموثي». ولئن كان صمت الفتى سمّاً فإن ماكشف الصبي النقاب عنه كان أسوأ بمراحل وما تمالك نفسه! شدّ بعنف أذن الفتى:

ـ أهذا كل ما بوسعك عمله للتكفير عما قمت به ـ لتطهير وإراحة ضميرك مما علق به من شوائب... أهذا كل مابوسعك تقديمه لتبرير ما أقدمت عليه أيها الآبق الأثيم؟ أعطني إياها في الحال.

ـ لكنها مجرد يرقةٍ صغيرة خضراء ستغدو فراشة في القريب العاجل... إنها خضراء صغيرة وهي تتسلق إصبعي كما لو كانت تعرفني... أرجوك أيها الراهب... أنا... أثناء فترة حبسي الانفرادي هنا كانت لي نعم الرفيق المواسي... لقد... سكبت في ذاتي ألواناً من السعادة والألفة... لقد...

ـ كيف تواتيك الجرأة؟

وخطف الكرتون منه بعنف فألقى باليرقة على الأرض وشرعت ـ الفقيرة إلى الله بعد أن لامست البرودة المحيطة بها ـ في التمدد والزحف ببطء:

ـ ليس من حقك التغيب عن القداس... كما وأنه ليس لك أن تستشعر سعادة من أي نوع! أتسمعني!

وبحركة سريعة من قدمه الثقيلة داس اليرقة بعنف فسحقها بكل الحقد الكامن في ذاته!

ورفع «كاسيدي» إلى الراهب نظراتٍ هلعة مذعورة قبل أن ينخرط في بكاء عميق!

الشراب

للكاتب الأمريكي: جون كولير John Collier

بدا «آلان أوستن» وهو يرتقي درجات سلم معتم ذي صرير في أحد الأحياء العتيقة... متوتراً مذعوراً كقطة مطاردة وما أن وصل إلى الطابق المنشود حتى أجهد عينيه في محاولة لقراءة الاسم المذكور له وسط تموجات كثيفة من ظلمة غلّفت أرجاء الدور برمته... وعثر بعد لأيٍ على ضالته فتنفس الصعداء.

واستجمع شتات شجاعته... دفع بالباب ـ كما أمر ـ فوجد نفسه في غرفة صغيرة ما بها من الأثاث سوى منضدة مطبخ... وكرسي هزاز وآخر عادي! وعلى أحد الجدران التي بهت لونها كانت مجموعة من الأرفف في مجملها تقريباً درزن زجاجات وبرطمانات وعلى الكرسي الهزاز جلس رجل مسن يطالع صحيفةً... ودون أن ينبس «آلان» ببنت شفة ناوله الكرت الذي كان يحمله:

ـ تفضل بالجلوس سيد «أوستن» ـ قال له العجوز في أدب جمّ ـ

تسرني معرفتك.

ـ أصحيح أن لديك ـ سأله «آلان» ـ خليطاً معيناً له تأثيرات غير عادية؟

ـ سيدي العزيز ـ رد المسن ـ ليس لي في التجارة باع طويل أنا، لا أتعامل في المسهلات ومحاليل التسنين، على أنّ لِما أتاجر فيه تأثيراً حيوياً ولا أظن أن شيئاً من منتجاتي يمكن أن يندرج تحت مسمى «عادي».

ـ حسناً.. حقيقة الأمر أني... قال «آلان» على أن الرجل قاطعه قائلاً وهو يتناول من أعلى الرف زجاجة معينة:

ـ هذا مثلاً سائل عديم اللون والطعم ولا يمكن تمييزه إما وضع في مشروب ما... كما وأن آثاره يا عزيزي لا تبدو أثناء التشريح.

ـ أتعني أن تقول بأنه سمّ؟ سأله آلان في رعب!

ـ سمه «منظف قفازات» إن رغبت! قال العجوز دون اكتراث ـ قد تكون له كذلك خاصية تنظيف القفازات ما جربت ذلك آنفاً... من يدري... وإن شئت صديقي فسمّه «منظف الحياة»... ما أشدّ مطابقة ذلك للواقع إذ إن كثيراً من الأنفس بحاجة إلى تنظيف أحياناً.

ـ لا أريد أياً من ذلك ـ قال «آلان».

ـ ربما كان له ذات الفائدة... ـ قال العجوز ـ أتعرف كم يساوي؟

إنني أبيع الملعقة منه ـ وهو مقدار كافٍ تماماً ـ بخمسة آلاف دولار لا ينقص بنساً.

ـ أرجو أن لا تكون خلطاتك كلها بذات الدرجة من الغلاء ـ قال «آلان» بتخوف ظاهر!.

ـ كلا يا عزيزي ـ أبداً ـ قال المسن ـ لن يجدي نفعاً بيع كل نوع من أنواع الشراب ـ كإكسير الحب مثلاً ـ بالسعر ذاته إن من يطلبون «شراب الحب» وغالبيتهم من الشباب الغض الإهاب لايملكون غير الباب وإن جاوزت قاماتهم هامات السحاب أملاً، ولو لم يكونوا كذلك لما احتاجوا إلى ذلك الإكسير أصلاً.

ـ سعيد بسماع ذلك ـ رد «آلان».

ـ أنا أتعامل في هذا السياق يا بني كالتالي:

ارضِ زبوناً بسلعة ما وسيعود لشراء سلعة أخرى إبّان احتياجه إياها ومهما ارتفعت قيمتها فسيعود لاشك فور تجمع المبلغ لديه ـ

ـ إذاً... ـ قال «آلان» ـ فأنت تبيع شراب المحبة.

ـ لو أنني لم أبع إكسير الحب ـ قال العجوز بكل حكمة السنين ـ وهو يتناول زجاجة أخرى ـ لما ذكرت الشراب الآخر لك... حينما تكون في وضع ملزم... يحتاج الزبون فيه إليك حقاً فإنه يكون بإمكانه حينئذ... أن يتصرف ضمن إطار من الثقة بالآخرين وأن يأتمنهم على أسراره.

ـ وهذا المشروب... إنه ليس مجرد... مجرد ـ قال «آلان».

ـ أوه كلا... ! ـ قال المسن ـ مفعوله دائم وأكيد... إنه يتعدى حدود النزوة العادية وإن كانت ضمن ذلك... أجل هي كذلك بكل دفئها وعمقها وحميميتها واندفاعها... وإصرارها وديمومتها!.

ـ عجباً! قال «آلان» وقد بدت على وجهه سيماء الدهشة وتوسطت عينيه نظرة علمية استكشافية تحليلية ـ غاية في الامتاع هذا الأمر برمته!.

ـ نعم... على أنه ينبغي أن تلحظ الناحية الروحية في خضم ذلك الزخم من دفق العواطف والاستجابة الفورية!

ـ بالتأكيد! قال «آلان»:

ـ إذ إن اللامبالاة ـ قال العجوز ـ ستغدو ولعاً وإخلاصاً، أما ما كانت تلقاك به من ازدراء فسيغدو ولهاً وتعلقاً.

اسقها جرعة صغيرة منه ـ وهو كما قلت لك غير مرئي إما مزجته مع العصائر أو الحساء ـ وستدهشك النتيجة... مهما كانت طائشة مستهترة فإن ذلك كله سيتلاشى ليحل محله هيام... تبديه لك ولن تطلب شيئاً إلا أن تبقى بقربك... أنت وحدك زوجاً لها.

ـ يصعب علي تصديق ذلك ـ قال «آلان» ـ إنها مغرمة بالحفلات.

ـ سوف تزهد فيها ـ قال المسن ـ وستغدو مصدر قلق لها وخشية أن تلمح حسناء هناك يخفق لها قلبك.

ـ تعني أنها ستغار عليّ؟ ـ صاح «آلان» في نشوة جذلى!.

ـ نعم سترغب أن تصبح كل شيء بالنسبة لك.

ـ وإنها لكذلك! على أن المؤلم أنها لاتأبه بذلك!.

ـ ستفعل عندما تذوق شيئاً من إكسير الحب هذا ـ ستصبح أنت وحدك بؤرة اهتمامها.

ـ رائع ـ صرخ «آلان»!.

ـ ستعتريها رغبة عارمة في معرفة كل ما تقوم به... وكل ما مر بك في يومك... وسترغب في معرفة كل دقيقة وجليلة عنك... لماذا ابتسمت فجأة... لم أنت حزين؟ و...

ـ فذاك لعمري هو الحب ـ صاح «آلان» مجدداً!

أجل... لسوف تعتني بك غاية، فتحاذر أن يمسَّك وهن أو نصب أو جوع، وإذا ما تأخرت ساعةً فإن الهلع سيمزقها شر ممزق، إذ إنها ستتصور بأنك قد أصبت بمكروه أو أن سيرانةً قد اختطفتك!.

ـ من الصعب جداً أن أتخيل زوجتي «دايانا» وقد أضحت ذلك المخلوق المثالي! علق «آلان» ونشوة انتظار الآتي تحلق به في عوالم من نور ونار وشك ويقين... والسعادة تهدهده كأم رؤوم.

ـ سوف لن تجهد خيالك فيما يختص بذلك ـ قال العجوز ـ ولأن «السيرانات» يطفن حولنا دائماً فلا تقلق إن هفوت إلى إحداهن قليلاً ذات يوم ـ لأن فتاة أحلامك ستغفر لك في نهاية الأمر... صحيح أن ذلك سيحدث في فؤادها جرحاً غائراً لكنها ستسامحك في نهاية المطاف إذ إن الحب العفيف يصنع المعجزات يا بني!.

ـ لن يحدث ذلك أبداً... أبداً! قال «آلان» بحماس.

ـ بالطبع لن يحدث ـ قال المسن ـ على أنه إذا ما وقع المحظور يوماً فلن تطلب الطلاق.. كلا! ولسوف تحملك ـ ما حييت ـ على أكف الراحة.

ـ وكم تريد ثمناً لذلك الشراب العجيب؟.

ـ ثمنه ليس غالياً ـ قال العجوز ـ «كمنظف القفازات أو الحياة».

كما يحلو لي أن أسميه كلا... قيمة ذلك الشراب هي خمسة آلاف دولار لاتنقص بنساً... ولن يتأتى شراء ذلك إلا لمن هو أكبر منك سناً إلى حدٍّ يخول له ارتكاب ذلك ـ على المرء أن يدخر طويلاً كيما يتمكن من جمع المبلغ اللازم لتلك المهمة.

ـ وماذا عن شراب الحب الشريف؟ مفتاح الدخول إلى عالم الزواج.

آه... ذاك ـ قال العجوز فاتحاً أحد أدراج طاولة المطبخ، مستخرجاً قارورة صغيرة ـ قيمتها دولار واحد فقط.

ـ لن أستطيع أبداً أن أفيك حقك من الشكر والامتنان! قال «آلان» وهو يتأمله في حبور فيما شرع المسن في سكب شيء من الشراب في القارورة.

ـ سياستي هي تطويق الأعناق بالجميل حتى إذا ما دارت رحى الأيام عاد المشتري إليّ لابتياع أشياء أخرى... أغلى بكثير! تفضل ستدهشك فعاليته!

ـ لك جم الشكر مجدداً... ـ إلى اللقاء.

وشيعه المسن بنظرات ذات مغزى وهو يقول:

ـ رافقتك السلامة.

تضحية صحفية

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O.Henry

يتمتع رئيس مجلة «هارتستون» بكثير من الذكاء ويتفرد بأسلوب ابتكره فيما يختص بجمع مادة المجلة ـ وهو لايضرب سياجاً من السرية ـ في حقيقة الأمر ـ حول أسلوبه هذا بل أنه يطلعك ـ بمحض إرادته ـ عليه ـ وهو متكئ على درج مكتبه المحفور من خشب «الماهوغاني» مبتسماً في شيء من الدعة الممزوجة بالطيبة... ناقراً ركبته ـ هوناً ـ بنظارته ذات الإطار المذهب.

ـ إن المجلة ـ سيقول ـ لاتوظف طاقماً من القراء، بل أننا نتحصل على استبيان لمادتها الخام مما يصلنا من أفكار مختلفة من القراء على تنوع ثقافاتهم ومشاربهم!

تلك هي فكرة رئيس التحرير وهو ما دأب على تطبيقه دوماً.

حالما ترد المواضيع إلى المجلة يحشو المدير بها كل جيب في بزته الأنيقة، ثم يطلب تعليقاً على ذلك من الناس. يقوم بتوزيعها على موظفي المكتب... الحارس والمستخدم وعامل المصعد والمراسلين وصبي القهوة وبائع الصحف الذي يشتري المسائية منه والبقال وقاطع التذاكر مختتماً ذلك بطباخه وخادمته. أولئك هم المحلفون... وهم من يدلون بالحكم النهائي على ما يصل إلى المجلة من مشاركات... أما إذا وصل إلى منزله وثمة أوراق في جيبه لما تزل فتكون من نصيب زوجته بعد أن يخلد إلى النوم صغيرهما.

بعد أيام عدة يجمع رئيس التحرير ما تفتقت أخيلة العامة عنه من حكم شامل، وقد حققت طريقته تلك نجاحاً لاحد له وسجل التوزيع أرقاماً قياسية، شملت كذلك ما تصدره المؤسسة من كتب، لإسهامات عامة الناس فيها قصب

السبق ـ وقد تتسرب بعض المواد من المجلة عمداً ـ طبقاً لما يتشدق به بعض ثرثاريها ـ فتنشرها مؤسسات أخرى لتلاقي بدورها نجاحاً منقطع النظير. هناك مثلاً تلك المقالة التي تحمل عنوان «ازدهار وانهيار سيلاس لاثام» والتي لم تلق إطراء من عامل المصعد وغيرها كثير! على أن المجلة كانت شديدة التمسك بسيادتها ونظرياتها المرتكزة على الآراء المستنبطة من كل عضو في هيئة التحرير، بما في ذلك موظفة الاختزال في مكتب رئيس التحرير وغيرها ممن وضعوا نصب أعينهم ذاك الأمل اليانع المتجدد المتمثل في الفوز برئاسة التحرير إما جاد الزمان يوماً وابتسمت الأقدار.

تلك السيادة العريقة للمجلة كانت مألوفة لدى الكاتب «آلن سلايتون» حينما ألف روايته القصيرة «المحبة هي كل شيء» إذ إنه طفق يدور بها على مؤسسات النشر ردحاً من الزمن أتاح له معرفة الكثير عن محرريها، ولم يقتصر إدراكه على الإلمام بسياسة رئيس تحرير مجلة «هارتستونز» فيما يختص باجتلاء آراء العامة حول ما يصله من مادة... بل تعداه إلى معرفة أن موظفة الاختزال الآنسة «بفكين» كانت صاحبة الشأن فيما يختص بقصص العاطفة.

وكان لرئيس التحرير عادة غريبة أخرى، تمثلت في حجب اسم الكاتب إبان توزيع المادة على القراء لاستطلاع آرائهم خشية أن تؤثر شهرة الاسم على حيادية ما يصل إليه من مقالات وتقارير تختص بذلك.

وكانت رواية «سلايتون» القصيرة «المحبة هي كل شيء» شغل المؤلف الشاغل، بذل فيها قصارى جهده وثمرة كدّه... ومنحها ستة أشهر من العمل الإبداعي المتواصل... كانت قصة هوى محضة مزجت بشذى العاطفة وحرقة الوجد، فجاءت شعراً منثوراً عزفته قيثارة القلب في ديوان الحب فسمت فوق الماديات إلى رحابة الروحانيات واستحقت جائزة الإبداع المتميزة ولا عجب، فقد كانت طموحات «سلايتون» الأدبية فوق حدود المحال مما حدا به إلى تكريس حياته

لذلك والتضحية بما عداه لأجله... بل أنه قد تجاوز ذلك إلى الحد الذي كان سيوافق معه على بتر يده أو الخضوع لمشرط الزائدة الدودية نظير نشر إحدى أعماله على صفحات «الهارتستونز»!.

أنهى «سلايتون» قصة «المحبة هي كل شيء» فأخذها إلى المجلة بنفسه وكانت تتوسط مبنى ضخماً يتولى أمره ـ باطنياً ـ فراش مفوّه، وما أن دفع «سلايتون»، الباب متوجهاً إلى المصعد حتى فوجئ بفرّامة بطاطس تطير تجاهه لترتطم بالباب فتحطم زجاجه، تبعها وبالسرعة ذاتها فرّاش المجلة وهو رجل قد اكتنز لحماً وطبق شحماً فيما بدت عليه جلافة وحدة طبع لاتخطئها العين... كان مذعوراً... تقطّع البدانة والخوف وسرعة الجري أنفاسه وتبعت تلك القذائف امرأة سمينة مقطبة الجبين مكشرة الأنياب وزلت قدم الفراش فسقط على الأرض دفعة واحدة مطلقاً أنيناً ينبض باليأس وخيبة الأمل... ولوعة الغارق في مهمه الظمأ يخال السراب ماء حتى إذا جاءه ما وجده شيئاً، وقفزت المرأة فوقه فجرّت شعره ثم توقفت بعد إذ وقع بصرها على الزائر الغريب فانسحبت عبر باب جانبي وبقية من خجل توجب هدنة طارئة وأما المغلوب على أمره ـ زوجها ـ فقد انتفض واقفاً يلملم أشلاء كبريائه الجريحة.

تلك الحياة الزوجية! قال لـ «سلايتون» في دعابة كليمة ـ وتلك هي المرأة التي لطالما سهرت الليالي أفكر فيها ـ يبدو أن الفرّامة قد أضرّت بقبعتك! شد ما أنا آسف... اسمع لاتدع أحداً يعلم بما حدث... فأنا لا أود أن أفقد وظيفتي.

واستقل «سلايتون» المصعد في نهاية الردهة متجهاً إلى مكاتب مجلة «الهارتستونز» حيث قدمها لرئيس تحريرها والذي وعده بدوره أن يطلعه على متاحية نشرها من عدمه في نهاية الأسبوع.

وفيما كان «سلايتون» يستقل المصعد خارجاً خطرت له فكرة رأى فيها مفتاح الفوز... وما تمالك نفسه إذ تبدّت ذاته له عبقرية السبك، خلاّقة بديعة في الاحتيال للأمور ووضعها في نصابها مبدعة في اقتناص الفرص والظفر بها... وفي الليلة ذاتها شرع في تنفيذ ما اختمر بباله مرتئياً في ذلك وسيلة مضمونة لنشر عمله الإبداعي في مجلته الأثيرة تلك.

كانت موظفة الاختزال الآنسة «بفكين» تقطن في المبنى ذاته وهي تميل إلى النحافة... والتقدم في العمر... واهنة متحفظة... عاطفية المشاعر وكان هو قد تعرف عليها في وقت سابق. فأما خطة الكاتب الجريئة بما فيها من تضحية فكانت كالتالي: كان على علم باعتماد رئيس التحرير عليها فيما يختص بانتقاء قصص العاطفة والرومانس، وكان ذوقها يمثل انعكاساً للمعدل العام لذائقة النساء آنذاك واللاتي كن يعشقن ذاك النوع من الروايات. أما الفكرة الرئيسة لرواية «المحبة هي كل شيء» فكانت تنبع من فرضية الحب العفيف الرامي إلى الزواج من أول نظرة وارتأى أن يجرب ذلك مع الآنسة «بفكين» ـ وذاك كان واقع الأمر محور فكرته الجريئة ـ أن ينقش في ذاتها نظريته تلك فترسخ في أعماقها... لتنبهر بدورها بقصته فتوصي رئيس التحرير بنشرها!

فكر «سلايتون» بذلك ووطد العزم على تنفيذه، وفي تلك الليلة دعاها لمشاهدة أحد العروض المسرحية على أنه لم يتوقف عند ذلك بل اتخذ إجراءً كان له بمثابة نقطة التحول في مسار حياته. أجل... أقدم ليلة الخميس على الزواج منها... وتلك كانت قمة الشجاعة والنبل فانضم بذلك إلى قائمة مشاهير الأدب ممن قدموا تضحيات سجلها التاريخ في سفر الخلود.... وفي سبيل الأدب يهون كل شيء ـ قال في نفسه ـ!

في صبيحة يوم الجمعة استأذنت السيدة «سلايتون» زوجها في الذهاب إلى المجلة لتسليم أوراق كان رئيس التحرير قد عهد إليها بقراءتها واستصدار حكم بنشرها من عدمه لتقدم استقالتها بعد ذلك:

ـ هناك...آ... أهناك قصة معينة بين ما تزمعين إعادته... شدت انتباهك... وحازت على إعجابك؟ سألها «سلايتون» ودقات قلبه كأكفٍّ مسعورة على دفوف الوجل.

ـ أجل ـ ردت ـ ثمة رواية قصيرة قرأتها فأمتعتني غاية ولا أحسب أن الزمن يجود بمثلها لاحقاً! كانت أقرب ما يكون إلى الواقع ـ في واقع الأمر.

ذلك المساء هرع «سلايتون» إلى مقر المجلة بعد إذ أحس بدنو الفرج وأن روايته قد باتت قاب قوسين إلى المجد أو أقرب، ولقي صبي المكتب خارجه فداعب فؤاده أمل في قرب المباهاة بنجاحه الأدبي وبزوغ فجر عبقريته الفكرية فهي على مرأى من الجميع، وسأل الصبي عن روايته فأحضر له مظروفاً كبيراً:

ـ لقد طلب مني رئيس التحرير أن أبلغك أسفه واعتذاره عن نشر روايتك. فهي ـ كما قال ـ ليست بحوزتنا!

ـ هل... هل باستطاعتك ـ تساءل «سلايتون» مصعوقاً ـ أن تخبرني ما إذا سلمت الآنسة بف... زو... أقصد الآنسة «بفكين» أتعلم ما إذا كانت قد سلّمت هذا الصباح رواية طلب رئيس التحرير منها أن تقرأها؟

ـ أجل... بالتأكيد ـ لقد سلمتها ـ قال الصبي مفتعلاً التعقل والحكمة ـ لقد سمعت رئيس التحرير يقول أنها كانت معجبة بها غاية ـ مرتئية أنها من الطراز الأول قيمة وجمالاً أما اسم الرواية فكان: «انتصار فتاة عاملة»!

هيه ـ استطرد الصبي ـ اسمك «سلايتون» أليس كذلك ـ المعذرة فقد حصل لبس ذلك اليوم لقد طلب رئيس التحرير مني توزيع بعض الأعمال الأدبية فوقعت في خطأ طفيف... أعطيت الفراش الأوراق التي كان من المفروض أن أدفع بها إلى الآنسة «بفكين» والعكس صحيح ـ لابأس بذلك... كما أظن... إنه ليس بالخطب الجلل.

عند ذلك أبصر «سلايتون» المظروف الذي يحمل اسم روايته «المحبة هي كل شيء» وقد خربش الفراش عليه بقطعة فحم عبارة «صدقت والله».

سيمونز... ذاك البهيميّ

للكاتب البريطاني: آرثر موريسون Arthur Morrison

يعد «موريسون» أحد القلة من كتاب جيله المنتمين إلى مدرسة التسعينيات ممن تلاقي أعمالهم رواجاً حتى يومنا هذا. وقد اشتهر «موريسون» بمجموعته القصصية القصيرة «حكايا الدروب الحقيرة» والتي اخترنا منها قصتنا هذه فيما تعكس المجموعة برمتها نمطية تلك الحياة الوضيعة في منطقة الـ «وست إند» بلندن.

ـ القصة:

كان ما قام به «سيمونز» من تصرف إزاء زوجته ـ ولا يزال ـ مثار حيرة واندهاش الحيّ بكامله، إذ كانت الجارات طرًّا يرين فيه مثال الزوج الحُلُم لزوجةٍ واعيةً مقدرة. وهي لم تكن لتتوانى عن خدمته والسهر على راحته ورعاية كافة أموره حدًّا تجاوز ما كان يُنتظر منها ويتوقّع، فما زاد على أن كافأها على كل ذلك بذاك التصرف الموغل في الغرابة والإدهاش... لا ريب وأنه قد فقد صوابه!.

قبل أن تقترن «بسيمونز» كانت زوجةً للسيد «فورد» الذي قضى نحبه برأس البحر مع من كانوا معه على متن العبّارة ولم يعثر لهم على أثر، ومضى مخلّفاً إياها دون أبناء تماماً كما كانت حالها... مع «سيمونر». فأما الأخير فقد كان من حسن طالعه أن قّيض الله له زوجة مخلصة تقوم على كل شؤونه وهو النجار المتواضع في كل شيء؛ في طموحاته ونظرته للحياة... في آماله وتطلعاته ومعيشته التي لا يعلم غير الله ما كانت ستؤول إليه لو لم يقيض الله له زوجة مثلها... والسيد «سيمونز» كان رجلاً هادئاً مسالماً بوجه طفولي وعوارض شحيحة متدلية. ولم تكن له مساوئ... حتى أنّه قد هجر غليونه بُعيد زواجه بعد أن طعّمت بعله حياته بالعديد من الفضائل، وظل يحافظ على طقوس العبادة ثم

يعود إلى بيته فينهمك في مساعدة زوجته في شؤون المنزل ويرافقها أيام السبت... لحمل أكياس التسوق، ولو عرجنا على السيدة «سيمونز» لرأينا تحليها بخصال لا تعدّ أو تُحدّ... كانت مدبّرة منزل رائعة.. تقسّم مرتب زوجها المتفاوت بين ستة وثلاثين وثمانية وثلاثين شلناً على متطلّبات المنزل بدقةٍ وحكمة، ولم يكن ليحزر أبداً ما كانت تفعله بالفائض من ذلك ومقدار ما ادخرته، أما حبها للنظافة ففاق التصور. كانت تقابل «سيمونز» لدى الباب بعد عودته من عمله كل يوم فتناوله خفّ المنزل، ويظل المسكين يتأرجح يمنةً ويسرة في خضمّ استبدال الحذاء على الأرض الباردة وهي باردة؛ لأن زوجته تكون قد فرغت للتو وجارتها من شطف الممرات... وقد اعتادت على تذكير زوجها «بتنظيف نفسه» بعد انتهاء عمله كل يوم حتى إذا ما ضمّته جنيات منزلهما اللامع ما بدر منه ما يشوّه تلك النظافة الجمة. أما لو أحدث بقعة دون قصد هنا أو هناك فإن حرمه المصون تظل تكرر على مسامعه تلك الذكرى الأليمة! كم أنت مهمل... ألا تراعي شعوري؟ ما تفتأ بعيد ذلك تردّد وكانت تصحبه ـ بدايةً ـ عند شراء ملابسه: أنتم حمقى معشر الرجال ومن السهل على أصحاب المتاجر خداعكم ـ وعثرت بعد ذلك مصادفة على متجر صغير لبيع المستعمل فدأبت على شراء ملابسه منه ثم عدلت عن ذلك حين قررت صنع ثيابه بنفسها فهي تعمد إلى بدلته القديمة فتقصها جاعلةً منها... بزّة أخرى ذات طراز حديث... وكانت أول بدلة من هذا النوع قد أنجزت يوم الإثنين، وقبل أن يلتقط أنفاس الدهشة كان قد أُلبس إياها فغادر بيته مأخوذاً وسار وهو في أغلال الانبهار لمّا يزل. ولم تكن كما توقع... ما وجد راحة فيها... بنطال ضيّق عند المقدمة وساق مسترسل عند الكعبين وغابة من الكسرات، وجد نفسه غارقاً فيها إما جلس. أما القميص فلم يكن بأحسن حالاً... ياقة خانقة وأكتاف معطف تتماوج حول الكتفين كخضمٍّ مضطرب... واستثار ذلك دعابة رفاقه بعد إذ وجدوا فيه مادة للضحك زاد فيها إصرار زوجته على التوغل في عالم الابتكار الحداثي في عالم التفصيل!

وباءت محاولات «سيمونز» لإقناعها بالتوقف عن خياطة ملابسه بالفشل. حاول أن يجعلها تدرك أن ما تخيطه لا يسر العين أو الخاطر... أن ذلك يستنزف الكثير من جهدها ووقتها دون طائل... أن هناك خياطاً رائعا في الجوار وبإمكانهما... على إنها قاطعته:

ـ كم أنت للود حافظ...! تمارس الكذب نهاراً جهاراً دون أن تأبه بعواطفي... أستطيع أن أقرأك ككتاب مفتوح «سيمونز» أفني أيام عمري في عمل مضنٍ بغية توفير شيء من المال وهذا ما أجده مقابل ذلك! تعلم جيداً أنه باستطاعتي الاسترخاء على سريري طوال اليوم كما تفعل الكثيرات... ذاك ما قد أفعل! وأغلق «سيمونز» باب النقاش في هذا الأمر برمته فلم يعد يتطرق البتة إليه... حتى... حين تقرر جزّ شعره إما طال! ودام على حاله تلك أعواماً عديدة، حتى أطلت أمسية صيف سعيدة ذات مرة حين حملت السيدة «سيمونز» سلة التسوق وغادرت البيت، وعمد إلى عدة الشاي فمسحها وأعادها إلى مكانها ثم طفق ينظر إلى بنطال جديد كانت قد أنهت خياطته له للتو وعلقته على المشجب.. تأمله فإذا هو قصير الساقين واسع الخصر غاية في الحداثة الباعثة على السخرية... كان أسوأ مما سبق له ارتداؤه واستيقظ في داخله صوت ثائر احتج على ذلك كله... على أنه تجاهله بعد أن أحس بما لزوجته من فضائل ليس أقلها محاولة تكوين اكتفاء ذاتي فيما يختص بصنع ملابسه... على أن ذاك الصوت الداخلي لم يلبث أن علا مذكّراً إياه بما ستؤول الحال إليه حين يراه صحبه مرتدياً ذاك البنطال العجيب:

ـ ألق به في سلة القمامة ـ هتف الصوت به ـ فذاك هو مكانه!.

على أن موجة خجل داهمته ثانية ممزوجة بشيء من تأنيب الضمير فعمد إلى نفسه يؤدبها بإعادة تنظيف أواني الشاي تارة أخرى! واتجه إلى الغرفة الخلفية محاولاً أن يسري عن نفسه بالنظر إلى الشارع فها له أن رأى السور مفتوحاً! ـ لا بد وأن طفل الجيران قد تركه ناسياً ـ قال لنفسه ـ لن تسمح زوجتي بتركه

مفتوحاً أبداً! زلة لا تغتفر ـ وهبط الدرج كيما يغلقه قبل عودة زوجته فلاحت منه إبان ذلك نظرة إلى الشارع. ثمة رجل كان يتسكع على الرصيف محدقاً في بابهم بفضول عجيب، بوجه لوحته الشمس ويدين مغمدتين في جيبي بنطال أزرق وقد اعتمر قبعة بحارةٍ مكللة بالصوف ولما رأى السيد «سيمونز» خطا نحوه ثم سأله:

ـ السيدة «فورد» خارج البيت إذا... أليس كذلك ثم تابع:

ـ السيدة «فورد» سالفاً أما الآن فهي السيدة «سيمونز» أليس كذلك؟ ـ ماذا؟ قال «سيمونز» بعد إذ تأمل الوافد الغريب قرابة ثوانٍ خمس!

كان الغريب قد طرح سؤاله مصحوباً بنظرة ازدراء ما فهمها «سيمونز» ولا هي راقت له.

ـ كلا ـ رد سيمونز ـ هي غير موجودة راهناً!

ـ لست زوجها إذاً أم أني مخطئ.

ـ بلى أنا هو.

وأخرج الغريب غليونه من فمه ثم رسم على شفيته ابتسامة هادئةً طويلة:

ـ سبحان الله... إنك من الصنف الذي يروق لها.

قال ذلك ثم ابتسم مجدداً، على أنه سارع بوضع قدمه بين درفتي الباب الذي رأى أن «سيمونز» كان على وشك إغلاقه موكلاً إلى يده مهمة دعم قدمه حين أسندها إلى زجاج البّوابة!

ـ لم العجلة يا صديقي ـ قال ـ جئت لأتحدث معك قليلاً حديث رجل لرجل وقطب فجأة جبينه بشدة!

ـ وزايل «تومي سيمونز» كل شعور بالراحة على أنه لم يستطع إغلاق الباب فصاح بالطارئ:

ـ ماذا تريد؟ أنا لا أعرفك.

ـ فاسمح لي إذاً بالحديث كيما أعرفك بنفسي، ومسَّ قبعته بأطراف أصابعه عربون تواضع وحسن نيّة.

ـ أنا «بوب فورد» ولقد كُتبتْ لي النجاة من غرق عبّارة منذ خمس سنوات ـ وقد أتيت لأرى زوجتي!

إبّان حديث الغريب كان فك «سيمونز» السفلي يمارس عملية تهدل مستمر. وما أن انتهى الرجل من حديثه حتى خلّل بيديه شعر رأسه ثم أجال بصره بين عمود الإنارة وأرضية الشارع وعاد ليحدق في الغريب... ما ساعفته الكلمات فمارس خرساً مؤقّتاً:

ـ جئت لأرى زوجتي ـ علينا أن نسوّي الأمر بيننا رجل لرجل! وأغلق «سيمونز» ببطء فاه ثم قاد الرجل إلى منزله في الطابق العلوي برتابة آليّة وأصابعه بين طيات شعره لمّا تزل. وجالت بخاطره مجريات الأمور تباعاً ثم... فاجأه ذاك الصوت الكامن... الصادر من أعماقه: فلنفترض أن هذا الرجل كان زوجها السابق... فهل ستكون تلك قاصمة الظهر بالنسبة لك. وفكر في بناطيله... في عدة الشاي في النوافذ التي طالما كلّف بتنظيفها بالملاعق والسكاكين... فكر في ذلك كله تفكيراً عميقاً ـ وعلى عتبة الباب جذب «فورد» ذراعه ثم سأله: كم من الزمن تبقّى على عودتها؟

ـ ساعة تقريباً ـ رد «سيمونز» معيداً في خاطره السؤال ذاته قبل أن يفتح الباب:

ـ آه... ـ قال «فورد» ـ أنت غارقٌ في النعيم ـ ذاك الأثاث كان لكلينا ـ أصارحك في حديث رجل لرجلْ. وجلس نافخاً دخان غليونه على إحدى الأرائك:

ـ هاأنذا إذاً هنا... السيد «فورد» ذاك الذي راح ضحية غرق عبارةٍ مؤلم... غير أني لا أزال حيًّا أُرزق!.

ووجه طرف غليونه إلى معطف «سيمونز» ثم تابع حديثه:

ـ لا زلت ـ بمشيئة الله ـ حيًّا أرزق كيف؟ سأقول لك؛ قيّض المولى لنا سفينة ألمانية انتشلنا طاقمها إلى بّر الأمان ـ لقد سعيتُ في مناكبها عدة سنوات ثم عدت لأرى زوجتي.

ـ إنها... إنها لا تقبل أن يدخّن أحد هنا ـ قال «سيمونز» بشكل عشوائي.

ـ إنها بالتأكيد لا تقبل ذلك ـ رد «فورد» مخرجاً غليونه من فمه وتابع ـ أعرف «آنر» ولكن قل لي كيف تجدها؟ أتكلّفك بتنظيف النوافذ؟

ـ حسناً ـ رد «سيمونز» معترفاً ـ أمدُّ لها يد العون أحياناً.

ـ والسكاكين... وعدة الشاي أعرف لِمَ ـ قال الزائر الثقيل ـ قبل أن ينهض فينحني ملقياً نظرة على رأس «سيمونز»... كما توقعت فهي تحلق شعرك كذلك ـ وشرع يتأمل زوج زوجته وقد احمر وجهه خجلاً، ثم رفع إحدى ساقي البنطال المعلق خلف الباب وتابع: ـ أراهن إنها من خاطه لك ـ طريقتها المميزة ذاتها... يا إلهي إنه أسوأ من هذا الذي ترتديه الآن...! وعلا بداخله مجدداً ذاك الصوت الشرير:

ـ لربما اضطر هذا الوافد إلى ارتدائه لو استرد زوجته. وعاد الغريب إلى إلقاء الكلام جزافاً:

ـ إنها هي... لم تتغير صوب الأحسن أبداً يالك من مسكين! وقتها أحس «سيمونز» بأنه يتدخل فيما لا يعنيه كثيراً ـ إنها كما هو واضح زوجته قبل أن يقترن هو بها ولا ريب أن جحا أولى بلحم ثوره ـ هتف به ذاك الصوت الباطني تارة أخرى!

ـ حسنا ـ قال «فورد» فجأة ـ الوقت كالسيف... لا أريد أن أقسو عليك يا رفيقي على أنه من العدل أن أدافع عن حقوقي... لكن بما أنك شاب طيب تبدو ملامح الخير جلية على قسماتك... وبما أنك تعيش حياة زوجية سعيدة لا تكدر صفوها شائبة فسوف أسوّي تلك الجناية المرتكبة بحقي بشكل لن تضطر معه إلى دفع الكثير، سأكون جواداً معك يا صديقي... حسناً سأطلب مبلغاً معقولاً... رجلاً لرجل... لن أرضى بأقل من خمسة جنيهات.

ولم تكن بحوزة «سيمونز» خمسة جنيهات ـ بل أنه لم يكن يملك خمسة قروش وجاهر للتو بذلك، ثم زاد على ذلك بأن قال:

ـ كما أني لا أرتضي لنفسي أن أقف بين رجل وزوجته... لن يكون ذلك سهلاً علي... على أنّ من الواجب أن أُحقّ الحق!

ـ كلا ـ رد «فورد» بسرعة ـ ممسكاً بذراع «سيمونز» ـ لا تفعل ذلك سأسهل الأمر عليك: قبلت بثلاثة جنيهات ـ هيا منتهى العدل أليس كذلك ـ سأقبل ذلك على مضض مقابل مغادرة هذا المكان إلى الأبد حيث تزأر العواصف في أعالي البحار ـ ثلاثة فقط وسوف لن تراني بعدها... أهناك ما هو أكثر عدلاً من ذلك؟

ـ بالطبع بل أن ذلك قد فاق العدل حدًّا وجاوزه إلى درجة النبل، على أني لن أسمح لنفسي أبداً أن أبتز رجلاً طيب القلب مثلك ـ إنها زوجتك سيد «فورد» ولن أفرّق بينكما... اقبل اعتذاري... من حقك أن تستردها... وأنا من يجدر به أن يرحل ـ قال «سيمونز» ذلك ثم خطا صوب الباب:

ـ توقف! قال «فورد» حائلاً بينه وبين الوصول إلى الباب:

ـ لا تكن أحمقاً... انظر إلى ما ستؤول إليه حالك إما اندفعت مخلفاً وراءك مسكناً طيباً وزوجة تعنى بك ـ يا للهول... حسناً... قبلت بجنيهين... اجعله جنيهاً واحداً... صفقة رجل لرجل... وسأرحل. وضج المنزل بهزيم طرق مزدوج على الباب الأمامي... أن يُطرق الباب في منطقة «الوست اند» مرتين فذاك أن يعني أن المرادهم أصحاب الدور العلوي:

ـ من الطارق؟ تساءل «فورد» بذعر.

ـ سأرى الباب. قال «سيمونز» منطلقاً لا يلوي على شيء. وسمعه «فورد» يفتح الباب... أما هو فذهب يستشرف الأمر عبر النافذة... وحينما أطلّ بصُرَ بقبعةٍ سرعان ما غيبها الجدار قبل أن يطرق أسماعه صوت أنثوي مألوف علا متسائلاً:

ـ حسناً أين تزمع الذهاب دون قبعة؟.

ـ «آنر» عزيزتي ثمة شخص في البيت تهمه رؤيتك ـ جاءه رد «سيمونز» الذي ولى مسرعاً حتى تلاشى طيفه بين طيات المساء. وبقفزات ثلاث بلغ «فورد» منبسط الدّرج حيث كانت زوجته تحدق كالمأخوذة في مسار «سيمونز» أما هو فتوارى داخل غرفة خلفية فتح نافذة فيها قافزاً عبرها إلى الفناء الخلفي وغيبته تجاويف الطريق فما بَصُرَ مخلوق به وهذا بالضبط: ـ هَجْرُ «سيمونز» لزوجته نهاراً جهاراً دونما سبب أقصد ـ هو مثار دهشة الحي بكامله.

كيف اغتنى جدي

للكاتب الهولندي: إلسرا زانتيف

كان ذا روح مرحة عذبة... جدي أقصد... على أنه فيما يبدو كان في بعض شؤونه حينما احتاج ذكاؤه إلى الرعاية لينمو ويتطور كبقية خلق الله. ولا زلت أتساءل حتى اليوم كيف استطاعت جدتي الاعتماد عليه كمصدر رزق لتنشئة أسرة!

كنا جميعاً نسكن في بيت واحد... بضعةٌ من عجاف هزل... ولم تكن هناك أي محاولة من الكبار لإقناعنا بالأكل وترغيبنا فيه... بل أنني شخصيًّا كنت أتناول ما يتيسّر من الغداء مع أمي قبل أن ألتحق بجدتي في الدور العلوي فألتهم وجبة أخرى أتوجه بعدها إلى عمتي «بيرثا» ـ وهي تقطن عنا غير بعيد ـ فأشاركهم في القضاء على ما يتهيّأ.

ولم أعرف طعم التفاح الناضج إلا بعد أن بلغت الخامسة عشر والتحقت بسلك التمهن لدى أحد التجار، إذ إن التفاح في قريتنا لم يكن ليحلم بأن يترك حتى ينضج... وكنا نخرج ألسنتنا لشدة حموضته على أن ذلك التفاح كان ألذ ما ذقت في حياتي.

ولم أشعر بالشبع والارتياح في طفولتي إلا مرةً واحدة فقط حينما نسيت عمتي «بيرثا» قفل باب المستَودع فتسللت إليه وازدردت اثنتين وعشرين قطعة من الكعك المقلي «الدونتْ» ولم تغفر لي عائلتي ذلك أبداً فكانوا كلما التم شملنا ـ بعد تلك الواقعة بسنوات ـ يصرخون إما رأوني: انتبهوا إلى الكعيكات!

عطفاً على كل ما سبق فيما يختص بما كنا عليه من حاله مادية لا تسر صديقاً أو عدوًّا فإن للمرء أن يتخيل انطباعنا ذات يومٍ مشرق جميل حينما ابتسم الحظ لجدي فوقع اصطدام للقطار الذي كان يقلّه!

ولو أن ذلك قد حدث لك ونجوت فإنك تكون قد بلغت أعتاب الغنى؛ إذ إن شركة السكة الحديد كانت ستعوضك بسخاء. ولذا فإن ركاب القطار المحظوظين قاطبةً كانوا على دراية بما يتحتم عمله، وهكذا فقد تساقطوا على الأرض وهم يئنّون ويتلوون كمارد قطع رأسه في انتظار عمال الإنقاذ ليهرعوا إليهم بالزحّافات والنقالات... إلاّ جدّي!. كانت شهيته أفضل من شهياتنا جميعاً... ولم يحدث وأن تخلّف عن إحدى الوجبات قطّ في حياته فلماذا يبدأ الآن في ذلك! كلاّ... ليس بسبب حادث قطار تافه أبداً سيدي! ذلك لن يكون! ولذا فإن جدي قد اقتطع لنفسه غصناً قوياً جعل منه متكأً وعاد إلى البيت راجلاً في رحلة استغرقت ثلاث ساعات. ووصلت أخبار حادثة القطار ـ إبان ذلك إلى قريتنا على أن ما أراح الأفئدة وأحلّ الطمأنينة محل الفزع أن البرقية التي وصلت كانت قد ذيِّلت بـ «ولا خسائر في الأرواح».

لن أستطيع أبداً أن أصور تلك الانطباعات الحائرة المذعورة التي ارتسمت على محيا جدتي وهي ترى زوجها يدخل مترنحاً وقد تعفّرت بالتراب ملابسه وبدا عليه شيء من التعب وإن كان يبتسم في براءة وحبور؛ إذ إنه قد وصل في موعد العشاء تماماً! لمحت ـ أول ما لمحت ـ تعابير الارتياح على قسمات جدتي لرؤية بعلها وقد عاد سالماً معافى، على أن مشاعر الغضب قد مازجت ذلك ـ بعد ذلك ـ ليظل الانطباع النهائي الطاغي... فقد أيقنت المسكينة بأن جدّي قد أضاع فرصته الوحيدة للدخول في عداد الأثرياء، ولذا فقد تحولّت في ثوان إلى إعصار هادر. وقبل أن يعي جدي ما حصل وجد نفسه في سريره وقد انفصل عنه بنطاله ولم تجدِ توسلاته المتكررة نفعاً فقد كان سيل زوجته قد بلغ الزّبى ـ وتتابعت الأحداث سراعاً ألقت جدتي على رأسه فوطة رطبة فيما هرولت أمي باحثة عن الدواء الوحيد لدينا! زيت الخروع!.

وتعالى صراخ جدي في رعب وحاول الاختباء داخل الأغطية الكثيفة، لكن أمي سارعت بإغلاق أنفه وصب زيت الخروع الرهيب في فمه وشعرتُ بالشفقة عليه... يا للرجل المسكين إن ما كان يحتاج إليه حقاً هو عشاؤه ولكن ما الذي بوسعه أو سواه عمله حينما تزمع زوجته وابنته أمراً!

ما أن تحقق لهما ذلك حتى بعثتا في طلب الطبيب فهرع أحد الأطفال يدعوه على عجل! ولما أجرى له فحصاً شاملاً وأوشك على إزجاء عبارات التهنئة على ما يتمتع به من صحة ممتازة... بادرت أمي من فورها إلى اتخاذ موقعها في ساحة الوغى! بدأت أول ما بدأت بفرد قامتها... أربعة أقدام وعشر بوصات، وأوضحت له بنبراتٍ حازمة جادة بأن جدي قد تعرض إلى صدمة عنيفة وارتجاج في مخه ـ إن كان ثمة مخ هناك ـ جراء الحادث، وإلا فكيف يفسّر الطبيب سبب تخلي جدي عن أثمن فرصة قد تمر بإنسان لترفعه إلى أعتاب ذوي الأملاك والأطيان... ثم... لا يأبه بذلك فالغنى والفقر لديه صنوان!

وألقى الطبيب على أمي نظرةً فاحصة... وما أن قرأ معاني الإصرار الذي لا يتحول حتى أيقن ـ بحكم علمه المسبق بخصالها أن لا بد مما ليس منه بد. فما كان منه سوى الإذعان لأمرها، وقبول ما أبدته من تشخيص للحالة قبل أن يغادر المكان.

وتلا ذلك أوان الانتظار. بذلت جدتي وأمي غاية جهدهما في سبيل إبقاء جدي في سريره، وأعادتا على مسامعه ما يجب أن يتفوه به وما لا يجب حين يفد مسؤولو سكة الحديد. فما كان من العبد لله إلا أن هزَّ رأسه في هدوء... واستسلام ووعد بأن يتعاون في هذا السّياق.

ولكن هل حاولت يوماً إرغام سمكة على البقاء في السرير؟ تملص جدي منهما أكثر من مرة. وعندما أخفيتا بنطاله رشى أحد الصغار فجلبه إليه وغادر سريره... على أنه ما أن فعل حتى سمع جلبة الجمع المنتظر خارج البيت، فأطل من النافذة يستجلي الخبر ولمح رجال التحقيق في حادثة القطار وخلفهم وقف أهل القرية طرًّا يترقبون ما سيؤول إليه الأمر. وسارع أهل المنزل بإلباس جدّي حلته كاملةً وكذا حذاءه ثم دفنوه في كمٍّ من الأغطية حتى ذقنه... وكانت الستائر مسدلة وجو الغرفة الدامس يعبق برائحة زيت الخروع حين سمح للمحققين بالدخول.

وبدا للوهلة الأولى أن جدي كان قد نسي التعليمات المكررة برمّتها، إذ إنه رحّب بالقوم بحرارة مهنئاً إياهم على ما يتمتعون به من حسن مظهر، ثم شرع في حديث مرح طويل عن الطقس والمحاصيل. وعندما تسنى لطبيب شركة السكة الحديد ـ بعد جهد ـ أن يسأله عن موضع إصابته أشارت أمي في ذعر إلى رأسها.

ـ حسناً! رد جدي بابتسامة هادئة وديعة:

ـ لا أعتقد أنني أشكو من إصابة لا يمكن لمائة ألف جنيه علاجها! وأغمي على أمي في الحال... سقطت على الأرض من فورها فيما بعثت جدتي عدداً من صرخات الهلع قبل أن تعدو خارج الغرفة. أما مأمورو التعويضات فقد غرقوا في ضحك عميق. وبعد أن تمالكوا أنفسهم وعاد إلى أمي وعيها دفعوا لجدي مبلغ خمسة آلاف جنيه ليصبح بذلك أغنى أهل القرية. على أنه وحتى اليوم الذي غادر فيه عالم الأحياء لم يستطع معرفة السبب الذي جعلهم يدفعون له ذلك المال.

بنت الفلاح

للكاتب الأمريكي: ويليام سارويان william saroyan

طالما رددت جدتي ـ رحمها الله ـ القول المأثور لعمر بن الخطاب رضي الله عنه «أرى الرجل فيعجبني فإذا قيل لي لا عمل له سقط من عيني». واستناداً إلى ذلك كانت ـ طيب الله ثراها ـ ترى أن على الإنسان أن يتعلم صنعةً تقيه مذلة الفقر والعوز.

كانت تتأملني بكل حكمة السنين ودفق التجارب وتقول:

يجدر بك إتقان مهنة! أي صنعة كانت يا بني... تعلّم كيف تصنع شيئاً من الطين أو الفخار أو الخشب أو الحديد أو القماش، ذاك مطلب أساسي. هل بإمكانك صنع طاولة بسيطة أو كرسي أو طبق أو سجادة... أو حتى إناء قهوة؟ ونظرت إليّ بغضب ـ فكأنما ألهب ما قالت فؤادها وأثار حفيظتها فإذا هي تسألني: أليس بمقدورك عمل شيء؟ أي شيء!

ورمقتني بذات النظرة الحانقة قبل أن تردف:

ـ أعلم أنه يفترض أن تكون كاتباً ـ وإنك لكذلك فأنت تدخن من السجائر ما يدفعك إلى التوهم أن بإمكانك أن تكون شيئاً... أي شيء إن أجواء المنزل تعجّ بما تنفثه من سموم ينبغي... أن تتقن صنعة ملموسة لا محسوسة... شيئاً يمكن للرائي أن يمسه بيديه ذاك هو الأصل في كل شيء.

قالت جدتي ذلك ثم شرعت تقصّ عليّ حكاية قديمة وقعت أحداثها في بلاد فارس:

عاش في بلاد الفرس في غابر الزمان ملك عظيم ولم يكن له سوى ولد واحد شاءت إرادة الله أن يقع في غرام ابنة أحد الفلاحين. وعالج الشاب لوعات المحبين فترة فما استطاع إخفاء ما انطوت ضلوعه عليه من هوى جارف... وَوَجْدٍ

عن الرشد صارف واضطر أخيراً إلى مصارحة أبيه الملك:

ـ سيدي... لقد أحببت ابنة فلاح وكم أتمنى لو وافقت على زواجي منها!.

وفكر الحاكم مليًّا ثم قال:

تعلم مكانة أبيك كحاكم لهذه البلاد... وتدرك كذلك أنك وريثي الوحيد... وعندما أموت فستخلفني في الملك فهل يجوز أن تكون زوجة الملك القادم ابنة لفلاح بسيط؟!

وانشق صدر صريع الغرام... عن تنهيدة حرّى ثم قال:

ـ لست أدري يا أبي لكني على ثقة من شيء واحد... لقد ملكت علي تلك الفتاة حواسي، وشغفتني حباً... وإنني أعتزم أن أتخذها حليلة لتصبح بذلك ملكة لقلبي وموطني على حدٍّ سواء.

وأدرك الأب الحاني أن ابنه مصمم على ما قال... أدرك أنه لا سلطة لمحب على قلبه فوافق على مضض:

ـ سأبعث إذاً إلى والدها برسول! قال الملك.

واستدعى الرسول فأمره أن يتوجه إلى منزل الفلاّح فيبلغه برغبة ابنه في الاقتران بابنته، وما أن أتاهم ونقل إليهم ما حمِّل حتى سألته الفتاة:

ـ وما عمله؟ وتعجب الحاجب فرد في بدهية:

ـ إنه... إنه ابن الملك!

وأجابت: ـ إن كان يرغب أن أكون زوجة له فلا بد أن يتقن صنعة مّا. وعاد الرسول مشدوهاً فاغراً فاه، فأطلع الملك على ما قالته ابنة الفلاح. وعرض الملك الأمر برمته على ابنه... أفاده بردّ الفتاة وسأله عما إذا كان لا يزال راغباً في إتمام ذاك القِران المشروط، يومها أجاب الفتى بالموافقة وزاد على ذلك بأن قال بأنه ينوي تعلم مهنة نسج حُصُرِ القش بألوان وتصاميم شتى.

بعد أيام ثلاثة أتقن الشاب تلك الصنعة... وعاد الرسول إلى بيت الفلاح ثانيةً ليبلغهم بما تم عارضاً عليهم نماذج مما صنعه الأمير.

عندها أعلنت الفتاة موافقتها على الاقتران به، فتزوجها والسعادة تحلق به في أجواء ساحرة خلابة ما وطئتها مشاعر مخلوق قط...

وذات يوم ـ قالت جدتي ـ كان الأمير يسير في بعض شوارع المدينة وشعر بجوع شديد فلمح مطعماً أنيقاً نظيفاً بارداً دخله دفعاً لغائلة الجوع ورغبة في الابتراد... واتخذ مكانه فيه.. وكان ذلك المطعم ـ لسوء حظ الأمير ـ ملجأً للصوص والمجرمين الذين لم يتوانوا عن اختطافه وإيداعه قبواً مظلماً في باطن الأرض اعتادوا أن يضعوا فيه كبار رجالات البلد.

ذلك القبو ـ قالت جدتي مؤطرةً الحدث بدرامية مثيرة ـ كان مجمعاً لمشاهير المدينة وقد دأب قطاع الطرق أولئك ـ وكانوا عتاةً جبارين ـ على جعل البدناء منهم طعاماً لضعفاء البنية متخذين من ذلك دعابةً ولهواً يتندّرون به.

وكان ابن الملك ـ لحسن الحظ ـ نحيفاً مجهول الهوية لديهم... وذلك ما أبقاه ـ بعد مشيئة الله ـ حياً

وذات يوم... قال لأولئك العتاة أنه يجيد صناعة حصر القش وإنهم قد يستفيدون مما ينسجه ببيعه في سوق المدينة بأثمان مجزية، فما كان منهم إلا أن أحضروا له كثيراً من القش وأمروه بأن يبادر إلى نسج الحصر من فوره، وبعد أيام ثلاثة كان قد نسج ثلاثة حصر رائعة ونادى كبيرهم فقال له:

ـ أرى أن تبعثوا بها إلى قصر الحاكم وأنا على ثقة بأنه سيدفع لكم مبلغاً كبيراً لقاء كل حصير ـ مائة قطعة ذهبية على الأقل.

وحُملت تلك المنسوجات إلى القصر وما أن وقع نظر الملك عليها حتى أدرك أنها من صنع فلذة كبده، فما كان منه إلا أن حملها إلى ابنة الفلاح وأخبرها بأن ابنه المفقود هو من صاغها. وسارعت الزوجة الملتاعة بالنظر إلى تلك الحصر...

رمت إليها نظرات فاحصة مدققة فقرأت بين الثنايا الخفية للنقوش الملونة كل شيء! قرأت الرسائل التي جعلها زوجها في تجاويف الرسوم، فأخبرت الملك عاجلاً، فما كان منه ـ تابعت جدتي رحمها الله ـ إلا أن بعث بسرية من الجنود إلى القبو الموبوء فقتلوا جميع من كانوا فيه من قطاع الطرق والسفاحين وأنقذوا من كان به من المحتجزين. وهكذا عاد الأمير إلى أبيه الحاكم سليماً من الأذى وضمته وزوجته الشابة الذكية جنباتُ القصر ثانيةً، تلك التي ما أن رآها حتى ضمها إلى صدره وقبلها معيداً إليها ـ بعد الله ـ الفضل في نجاته وبقائه على قيد الحياة.

ولم يكن الملك أقل سعادة بنجاة ابنه وكان ممتناً لابنة الفلاح غاية.

ـ والآن ـ قالت جدتي ـ بعد أن روت لي ذلك ـ أرأيت أهمية تعلم مهنة شريفة لأي إنسان كائناً من كان؟

ـ بالطبع! قلت مبتسماً! ولسوف أشرع في صنع كرسي أو رف كتب حالما أدّخر مبلغاً يمكّنني من شراء عدة النجارة!

الأجنبي

للكاتب الأمريكي: فرانسيس ستيغملر

كنت سأعود إلى المنزل سيراً على الأقدام حينما خرجت من دار السينما، إلا أن المطر المنهمر من كبد السماء شلالات عاتية قد حرم عليّ ذلك. شقتي كانت قريبة والطريق إليها كان سهلاً ميسّراً، إذ كنت سأصل إلى نهاية الطريق الرئيس فأجتاز شارعين صغيرين لأستدير يمنةً إمّا حاذيت الثالث ويُكْنَى بـ «رو دي غرينيل» على أن الرياح الماطرة قد سارت بما لا تشتهي السفن، فلم يكن أمامي خيار سوى العودة في سيارة أجرة. وهكذا فقد أومأت لإحداها ولم تمض ثانيةً حتى أدركت ـ ويا لسوء ما أدركت ـ بأن سائقها العجوز ذا الوجه الأحمر كان يمر بإحدى حالات النرفزة وسوء الطبع.

ـ كلا كلا... صرخت حينما لاحظت أنه كان على وشك الانعطاف عند أول شارع «رو سانت دومينيك»! ـ وتابعت:

ـ بعد شارعين تفعل!

وتمتم بكلمات لم أفهمها ثم انحرف بعنف عائداً إلى الطريق الرئيسي ثانية على إنه... وبعد هنيهة... انعطف عند الشارع الثاني «رو لاكاسيس».

ـ كلا كلا! صرخت ثانية! أقطن في الشارع التالي... الشارع التالي من فضلك «رو دي غرينيل»!

عند ذلك استدار نحوي وسلقني بنظرة حادة كاد قلبي لها ينخلع، ثم أطلق العنان للسيارة كيما تنهب الأرض غير عابئ بتجاوز الشارع الذي أسكن فيه. وأحسست وأنا أرقبه والسيارة تطوي الأرض بنا في عدوٍ محموم صوب اللاشيء... بأن ذلك العجوز الأحمق سوف... لن يتوقف أبداً.

ـ لكن... تجاوزت الشارع المطلوب! ـ صحت به ـ كان عليك أن تنعطف يميناً حيث أشرت ـ من فضلك خذ اليمين وتوجه بي صوب منزل ٣٦ «رو دي غرينيل».

ومُلئت رعباً حينما ندّ عن الشيخ الغاضب صوت هو أشبه بالزمجرة... بزئير أُسود أفريقية جائعة ضارية، قبل أن ينعطف بالسيارة بحدة اشتكت الإطارات منها كيما يعود إلى رأس الشارع الذي أقطن فيه ليوقف السيارة فجأة ويصيح بي:

ـ اخرج!... صوته كان مجلجلاً وهو يلقي إليّ بأمره الكريم ووجنتاه تصطبغان بلون الأرجوان... أججّهما الغضب ونفاد الصبر دون ريب ـ غادر سيارتي على الفور... لن آخذك إلى أيّ مكان آخر على الإطلاق!... تعاملت معي كما لو كنتُ مغفلا! مرات ثلاث أهنتني ثلاث مرات... سيارتي ليست مخصصة للأجانب ـ انزل قلت لك!.

ـ في هذا الزخم المنثال من غربال السماء... في هذا الجو المطير؟ صحت به في سخط ـ محال! لن أفعل! لم أُهنك على الإطلاق! تدرك تماماً أني ما زدت على أن رجوتك دون جدوى ـ أن تأخذني إلى منزلي... فهلا تكرمت بذلك... لسوف أعطيك «إكرامية» ينشرح لها فؤادك إن فعلت ـ قلت بودّ وروح أخوية ـ وسنفترق كأفضل ما يكون الرفاق.

وبالكاد تركني أكمل:

ـ انزل فوراً قلت لك ـ أهنتني بما فيه الكفاية وسوف تنزل في الحال! ورميت صوب الشلال المنهمر نظرة جريحة ثم قلت:

ـ لا يمكن أن أنزل ـ محال أن أفعل ذلك! وغشيه ـ فجأة ـ هدوء ما قبل العاصفة:

ـ إما أن تغادر مركبتي ـ قال بنبرات ثابتة يؤطرها صوت أجشّ ـ أو أتجه بك صوب دائرة الشرطة حيث أطالب ببدل إهانة! اختر ما تريد!

ـ في ظل أجواء طارئة كهذه ـ أجبت ـ لا خيار لي سوى انتقاء الاقتراح الثاني! إلى دائرة الشرطة حتماً.

وإلى هناك ذهبنا. ولم تكن الدائرة تبعد سوى أبواب قليلةٍ عن مقر سكني وكانت مألوفة لدي، إذ إني كنت أتردد عليها في السابق لأغراض أخرى لا تمت إلى الشجار بِصلِة. وولجت والسائق غرفة مسؤول الأمن كتفاً بكتف، وكان الضابط جالساً في مقعده لا ينازعه في سُلطته أحد، وما أن وقع بصره عليّ حتى حيّاني كرفيق قديم:

ـ طاب مساؤك يا أستاذ ـ قال منادياً إيّاي باسمي هل يمكنني أن أساعدك؟ ما هي حاجتك؟

على أن العجوز الذي لم يحظ من الضابط بأكثر من هزة رأس ما ترك لي مجالاً للرد:

ـ بل إن الحاجة لي ـ صرخ فجأة ـ أرغب في رفع دعوى ضد هذا الأجنبي لقد عاملني كما لو كنت أبلهاً ثلاث مرات ـ أهانني ثلاث مرات... أطلب تحقيق العدالة سيدي، أن يأخذ العدل مجراه.

وحملق ضابط الشرطة فيه... وجهه خلواً من التعابير كان، وأحسست بأنه كان يحاول ـ مثلي ـ تحديد وضعية الرجل العجوز... والتفت عقب ذلك إليّ فرجاني، بلطف أن أتكرّم فأدلي بشهادتي، وامتشق قلماً ثم فتح كتاباً كبيراً خالياً من الكتابة، وفيما كنت أروي ما حدث كانت يده الرشيقة المشعرة تكتب كل شيء، كيف أني أعطيت السائق العنوان... الانحرافين الخاطئين، كلمات التذمر التي تمتم بها... تخطيه شارع سكناي... تصرفاته اللامسؤولة، غضبه الذي لا مبرر له ـ إنذاره لي، وكان الضابط إبان ذلك ينقش كلماتي بخط جميل ويتوقف عن الكتابة أحياناً كيما يرمي إلى السائق ببعض من كلمات اللوم والتأنيب فيقابلها الأخير بهمهمات وتمتمات غامضة. وأنهيت ما طلب إلي الإدلاء به، على أن الضابط استمر في الكتابة بذات الرشاقة والأناقة والتنميق، شاطباً السطر الأخير بالأسلوب ذاته ومزجياً الشكر إلى شخصي المتواضع، واستدار إلى سائق التاكسي فأخبره بأن دوره قد حان وبأن عليه الإدلاء بشهادته كذلك كيما يتسنى له البتّ في تلك المسألة الشائكة.

على أنه بدا جلياً أنه ما كان لديه ما يدلي به: «ثلاث مراث» كانت العبارة التي دأب على ترديدها بصوته الأجش الغليظ الغاضب مومئاً للضابط ومحملقا فيّ بغضب في سياق ذلك: ثلاث مرات سيدي... ثلاث مرات تعامل فيها معي كما لو كنت معتوهاً وأهانني ثلاث مرات! هذا الأجنبي... إنه أمر لا يحتمل. ورفع الضابط نظره عن الكتاب الذي دوّن كل ذلك فيه ثم قال له:

ـ ولكن ماذا عن التفاصيل التي ذكرها الأستاذ في شهادته... إن كان قد أخطأ في ذكر شيء منها فصححه ـ قال له، ملقياً إليّ بنظرة اعتذار عابرة.

ومرة أخرى جاء صوت العجوز الأجش: «ثلاث مرات»... تلك كانت كل ما بوسع متّهمي ترديده. فما كان من الضابط إلا أن وضع قلمه على المنضدة بحدّة:

ـ يبدو جلياً يا أستاذ إنك الجهة المتضررة في هذه القضية، يسرني أن أخبرك بأن على هذا السائق أن يقلّك دون مقابل حتى باب منزلك ـ هلا تكرمت فسمحت لي بالاطلاع على أوراقك الشخصية؟ إنه أسلوب متبع في مثل هذه الحالة سننتهي من كل ذلك على الفور. بطاقة الهوية إن سمحت!

وغاص قلبي فجأة كرصاصة ثقيلة إذ إني رأيت بعين عقلي منضدة غرفة مكتبي وبطاقتي ملقاة عليها بعد أن نسيت أن أضعها في جيبي؛ تلك البطاقة التي كان القانون الفرنسي يلزم الأجانب بحملها طوال مدة إقامتهم ـ وأسعفتني فكرة لاحت كبارق أمل:

ـ لقد ارتأيت عدم حملها مخافة أن تبللها الأمطار الشديدة فتطمس ما دُوِّنَ بها ـ سأبادر بإحضارها صبيحة غدٍ بإذن الله، كلي رجاء أن يتماشى ذلك مع متطلباتكم القانونية التي أدرك مدى صرامتها وأهميتها.

على أنه يبدو أني قد أتيت محرَّماً، فارتكبت وزراً لا يغتفر وزلة لا تُدمح إذ انقلب كل شيء على عقب:

كلاً لا يتماشى ذلك مع متطلباتنا! قال الضابط بحدة، وحاكى وجهه صلابة الصخر ـ صحيح أنك ستحضر البطاقة صبيحة الغد على أنه وفي ظل الظروف الراهنة فإن عليّ أن أغير ما أصدرته في هذه القضية من حكم ـ عطفاً على الوضع المتمثل في استمرار انهمار المطر فسوف يقلك هذا السائق إلى مسكنك لكنك لن تدفع له أجرة كامل الرحلة فقط بل أنك ستعوضه عن الوقت الذي أهدره معك ـ أفترضُ أيها السيد ـ قال مخاطباً السائق ـ أن العداد مفتوح؟ وهز السائق رأسه فقام الضابط من مكانه وقال دون أن يبتسم: مع السلامة إذاً يا سادة! ولا تنس إحضار البطاقة غداً.

وخرجت والسائق كما دخلنا... جنباً إلى جنب فغادرنا المركز. صحيح أني رأيت وميضاً عابراً في عيني خصمي إبان سماعه الحكم الأخير على أني ما لمحت أياً من إمارات الانتصار... ومضى في نهجه الهادئ اللامتباهي متجهاً بي إلى منزلي دون أن يتفوه ببنت شفة. على أني ما أن نفحته المبلغ كاملاً وعدّه بدقة حتى التفت إليّ فقال: لا بد وأن الأستاذ قد نسي وعده بمنحي بقشيشاً مُعْتَبِراً وبأننا سنفترق كأفضل ما يكون الرفاق!

الاختبار

للكاتبة الأمريكية: (أنجيليكا غيبس)

(قصة تسلط الضوء على دمامة التمييز العنصري)

في ظهيرة ذاك اليوم الذي أجرت «ماريان» اختبارها الثاني في قيادة السيارات، رافقتها السيدة «ايريكسون».

ـ قد يكون من المستحسن أن يكون معك من هو أسنّ منك!

قالت السيدة «إيريكسون» فيما دلفت «ماريان» إلى مقعد السائق بجانبها:

ـ ربما كان لحديث ابن عمك «بيل» في المرة السابقة أثر كبير في شعورك بالقلق والتوتر... ما كان ليتوقف عن الحديث ولو لوهلة.

ـ نعم سيدتي ـ ردت «ماريان» بصوت رقيق لا لكنةً فيه ـ قد يجدون أنه من الأفضل اصطحاب شخص أبيض!

ـ كلا... لا أعتقد أن الأمر كذلك! ردت السيدة «ايريكسون» ثم طفقت تتأمل الفتاة من طرف خفي.

كانت «ماريان» تقود السيارة في هدوء وسلاسة خلال أشجار الضواحي الظليلة... إبّان أحد أشد أيام شهر «يوليو» حرارة ولهيباً وعندما وصلتا إلى الشارع الرئيس هالهما ما يعج به من عربات اتخذت إلى الشاطئ طريقاً:

ـ أتريدين أن أتولى القيادة؟ سألتها السيدة «إيريكسون» ثم تابعت: يسرني ذلك إن كنت تشعرين بالتوتر.

على أن الفتاة هزت رأسها بالنفي. وشرعت السيدة «إيريكسون» في تأمل يديها السمراوين... البارعتين، ثم فكرت ـ للمرة الألف ـ كيف سيكون عليه حال منزلها لو لم تكن «ماريان» تعمل لديها، وكيف احتملت فيما مضى من السنين... تلك الكوكبة التي لا تنتهي من مدبرات المنزل البِيِّضْ واللاتي رأين في القيام بأعمال المنزل إهانة وتحقيراً لا يعدله سوى العناية بالأطفال.

ـ كم هي رائعة قيادتك «ماريان» ـ قالت ـ حاولي ألا تفكري فيما حدث لك في المرة السابقة يا عزيزتي ـ فانزلاق السيارة فوق منحدر في يوم ما طر قد يحدث لأمهر قائدي السيارات!

ـ أعتبر راسبةً إن ارتكبت أربعة أخطاء ـ قالت «ماريان» ـ ولا أتذكر ارتكابي تلك الأخطاء التي سجلها الممتحن ضدي.

ـ يقال أن «البقشيش» قد ينفع في مثل هذه الحالات! قالت في شيء من الشك.

ـ كلا سيدتي! ـ ردت «ماريان» ـ كان هذا سيعقد الأمور أكثر! أنا على يقين من ذلك.

عند الإشارة انعطفت السيارة يميناً إلى شارع جانبي ثم صعدت تلاً صغيراً قبل أن تتوقف بمحاذاة رصيف... خلف صف من السيارات الواقفة. لم يكن المفتشون قد وصلوا بعد:

ـ هل أحضرت الأوراق؟ سألتها السيدة «إيريكسون» وأخرجت «ماريان» الأوراق من حقيبتها ـ ترخيص القيادة ـ واستمارة السيارة ثم... شهادة ميلادها.

واستكانت الاثنتان أخيراً إلى كآبة الانتظار ورتابته.

ـ أوّاه «ماريان» سأكون سعيدة عندما توصلين الأولاد إلى مدارسهم كل يوم! سيكون هذا بديعاً.

ورفعت «ماريان» رأسها عن ثلة من المقررات المطلوبة التي كانت تقرأ فيها.

ـ ستغدو شؤون البيت مريحةً أكثر إن تحقق ذلك! أليس كذلك ـ قالت!

ـ آه «ماريان»... ليت باستطاعتي رد ولو نصف جميلك!

ـ ما هذا الذي تقولينه سيدتي؟!.

والتقت نظراتهما... تعكس حبًّا عميقاً وتقديراً متبادلاً!

وتوقفت سيارتان رسميتان عبر الشارع فنزل بخفة منهما مفتشان يرتديان ملابس عسكرية ـ واشتدت قبضة «ماريان» على المقود ـ

ـ ذاك هو الذي أسقطني في الامتحان المرة السابقة. قالت مشيرة إلى مفتش تبدو عليه مظاهر الغطرسة والخيلاء وهو يلقي بأوامره إلى أحد السائقين:

ـ آه... سيدة «إيريكسون»!

ـ ما هذا الذي تقولينه «ماريان»؟

وتبادلتا ذات النظرة مجدداً على أن الابتسامة المرسومة على شفاههما تلك المرة كانت واهنةً بعض الشيء... ثمة خيال لها كان يروح في وجل ويغدو.

ولم يكن الممتحن ذات الشخص... بل كان لطيفاً مرحاً في منتصف العمر تقريباً... ظل يوزع ابتساماتٍ واسعة وهو يمر بإصبعه عبر الأوراق المطلوبة ـ وعندما شرعت السيدة «إيريكسون» في مغادرة السيارة قال لها:

ـ يمكنك البقاء معنا إن أردت! لا مانع لدي.

وتملكتها الحيرة والتعجب لوهلة قبل أن تقول:

ـ كلا أيها المفتش قد أربك «ماريان» بمجيئي معكما... إنها ماهرة في قيادة السيارات.

ـ بالتأكيد ـ قال المفتش الممتحن ثم اتخذ مقعده بجوار الفتاة قبل أن يقول بحدة:

ـ انعطفي يساراً عند الزاوية «ماندي لو» ـ قال ناطقاً اسمها الرسميّ ـ ومن هناك... عند الرصيف كانت عينا السيدة «ايريكسون» تودعهما والسيارة تنطلق في سلاسة بهما أعلى الشارع.

وسجل المفتش بعض الملاحظات في كتاب أسود صغير ثم سألها.

ـ العمر؟

ـ سبعة وعشرون.

ـ وصلت إذاً سناً تجعلك تجرّين وراءك حفنة من الزنوج الصغار؟ هاه؟ ولم تجب!.

ـ انعطفي يساراً عند هذه الزاوية، وأوقفي السيارة بين الشاحنة وسيارة «البيويك» الخضراء.

كانت المسافة بين السيارتين قصيرة لكنها نجحت في الوقوف بينهما دون مناورات تذكر.

ـ هل قدت سيارة من قبل ـ «ماندي لو»؟

ـ نعم سيدي ـ لدي رخصة من «بنسيلفينيا»... منذ سنوات ثلاث!

ـ ولماذا ترغبين في قيادة سيارة؟

ـ كيما أقوم بإيصال أبناء السيدة التي أعمل مدبرة منزل لديها إلى مدارسهم!

ـ لا شك بأنك لا تنوين من وراء ذلك الخروج لملاقاة أحد الشباب ليلاً! سألها... ثم داهمته نوبة ضحك وهي تهز رأسها نفياً.

ـ دعيني أر ما ستفعلين! انعطفي يساراً ثم استديري في منتصف المفترق القادم. قال ذلك ثم طفق يصفّر لحن إحدى أغنياته المفضلة.

هذا اللحن يجعلك تحنين إلى مسقط رأسك! قال. وانعطفت بهما السيارة في خفة ورشاقة عائدة إلى المكان الذي جاءا منه:

ـ كلاّ فقد ولدت في «سكرانتون» «بنسيلفينيا» قالت. وتصنع الاندهاش ثم قال:

ـ لستِ إذاً من الجنوب ـ كنت أعتقد ذلك!

ـ كلا سيدي ـ قالت «ماريان».

ـ فانعطفي إذاً ناحية الشارع العام ودعينا نر مهارتك في تجاوز الكثافة المرورية.

وتبعا سرباً من السيارات حتى بلغا جسراً خرسانيًّا عالياً يتقوس فوق قضبان القطارات.

ـ اقرئي تلك اللوحة المعلقة في نهاية الجسر.

ـ تقدم بحذر ـ خَطِرٌ في الأجواء الرّطبة ـ قالت بثقة.

ـ باستطاعتك أن تقرئي بمهارة أيتها الحدوة العتيقة أين تعلمت ذلك؟

ـ نلت شهادتي الجامعية العام الماضي ـ صوتها آنذاك لم يكن ذا نبرات ثابتة.

حينما جاوزت السيارة منحنى الجسر انفجر المفتش ضاحكاً.. ضحك متواصل مجلجل أعاقة عن مواصلة إعطاء التعليمات:

ـ توقفي هنا ـ قال ماسحاً سيل دموع.. الضحك ـ ثم ابدئي ثانيةً ـ تخرجت «ماندي» من الجامعة! يا له من أمر مضحك! قال. وتوقفت السيارة عند حافة الرصيف ـ وحيدّت ناقل الحركة فجعلته في وضع «اللاتعشيق» ثم سحبت فرملة الطوارئ وانتظرت قليلاً قبل أن تعيد تعشيق السيارة. على أن قدمها انزلقت وهي ترخي فرملة الطوارئ ثانية... فتوقف المحرك فجأة.

ـ ماذا حدث يا مدبرة المنزل؟ ـ أنسيت شهادتك؟

ـ تبًّا لكِ ـ صاحت «ماريان» وأعادت تشغيل السيارة التي اهتزت فجأة. وفقد المفتش روح الدعابة والمزاج فجأةً فقال آمراً:

ـ عودي إلى نقطة الانطلاق! إن سمحت ثم وضع عشوائياً أربع علامات خطأ على ورقة التقييم الخاصة بها.

كانت السيدة «إيريكسون» بانتظارهما حيث تركاها وما أن أوقفت «ماريان» السيارة حتى قفز المفتش منها ووجهه بلون الأرجوان:

ـ ماذا حدث؟ سألته السيدة «إيريكسون» في قلق وظلت ماريان قابعة خلف المقو... محملقةً في أعماق اللاشيء واهتزت شفتها السفلي فبادرتها سيدتها:

ـ آه «ماريان»! مرة أخرى؟

وهزت المسكينة رأسها.

ـ أجل بيد أن الأمر يختلف قليلاً هذه المرة. قالت ذلك قبل أن تنزلق إلى المقعد الأيمن للسيارة في هدوء.

الدليل القاطع

للكاتب الأمريكي: (جراهام جرين)

قال تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ صدق الله العظيم

تابع الصوت المتعب... المتهدج النبرات انبعاثه... وبدا كما لو كان يقاوم مصاعب شتى وعقبات كأداء قبل أن يصافح أسماع الحضور.

ـ الرجل مريض لاريب! قال الكولونيل «كراشو» في شيء من الشفقة... والتوتر.

وعادت به الذاكرة إلى الوراء... يوم كان شابًّا يصارع جبال «الهيمالايا» تذكّر كيف كان يضطر إلى اجتذاب الأكسجين بعنف مرات عدة مع كل خطوة يخطوها صعوداً... وألقى على المنصة التي يقف عليها الخطيب نظرةً عاجلة كانت ترتفع عن الأرض خمسة أقدام... غايةً في الأناقة كانت قاعدة الموسيقى التي جمعت ذلك الحشد بمركز «المنتجع» وشرع يقارن بين صعوبة تسلق الهيمالايا... وما يتطلبه ذلك من احتياج للأكسجين... وبين ذلك الخطيب التابع هناك... أعلى المنصة... بدا جلياً أنه كان يجتذب الهواء اجتذاباً... وما أشدّ الشبه! قال في نفسه ـ ما كان ينبغي لذلك المتحدث أن يأتي في يوم بارد رطب ـ تابع مناجاة نفسه قبل أن يسكب شيئاً من الماء فيدفع به إلى المحاضر.

كانت القاعة سيئة التدفئة فيما تسللت أصابع ذلك الضباب الشتوي الأصفر متحسسةً صدوع النوافذ... كان المحاضر قد فقد كل صلة له بالحضور، تبدى ذلك واضحاً وضوح شمس الظهيرة تتوسط كبد السماء، وألقى الكولونيل نظرة عجلى... أدرك معها أن النظارة كانوا يحملقون في عشوائية غريبة عبر القاعة... أما العجائز منهم فقد كشفن عن قسوة لا تجارى في الإفصاح عما كان

يعتمل في صدورهن من ضيق وملل! على أن جمعاً من الضباط المتقاعدين قد تصنّعوا الاهتمام بما كان يقال.

كان الكولونيل «كراشو» ـ كرئيس للجمعية الروحانية المحلية ـ قد تلقى قبيل أسبوع خطاباً من المحاضر... كُتب بخط أرعشه المرض أو الهرم... حول ضرورة عقد اجتماع عاجل للجمعية ـ وكان من ضمن ما أدرج في سياق حيثيات ومسوغات ذلك هو «شرح وصفي لتجربة خارقة للعادة يتحتم عرضها وهي بعد حيّة لما تزل» رغم أن الراسل لم يكن ليحدد طبيعة تلك التجربة على الإطلاق وتركها في غياهب الغموض تمور وتضطرم.

ولم يكن الكولونيل «كراشو» ليسارع في الرّد لو لم يكن الخطاب قد ذُيّل بتوقيع من «فيليب ويفر» الرائد المتقاعد في الجيش الهندي... وقبول طلبه كان أقل ما يمكن عمله حيال زميل في المهنة... وعاد إلى مقارعة الفرضيات ثانيةً... أرعش الخط مرض أو هرم دون ديب.

وتأكداً أخيراً مصداقية الافتراض الأول حينما جمعهما لقاء المنصة تلك الليلة.

لم يكن الرائد «ويفر» قد تخطى الستين لكنه بدا طويلاً نحيفاً... شديد السمرة... برز أنفه في قبح فيما امتلأت عيناه بسيماء السخرية والازدراء... ـ إنه من تلك الفئة النادرة التي لا يستعصي عليها شيء! فكر «كراشو».

على أن أكثر ما أثار نقمة «كراشو» واستياءه هو ذلك العطر الذي كان ينثال من المنديل المتدلي من جيبه... كان عبيره قوياً متأججاً كحديقة زنابق كاملة... ورفعت السيدات أنوفهن فيما استأذن اللواء «ليد بيتر» في إشعال لفافة تبغ!.

كان يبدو جلياً أن «ويفر» قد استوعب ذلك إذ إنه ابتسم في شيء من الشفقة والاستفزاز قبل أن يقول في بطء شديد ـ أتمانع في عدم التدخين؟ أعاني من اضطرابات حلقية هذه الأيام!... وتمتم «كراشو» ببضع كلمات مفادها أن الطقس مسؤول عن كثير من التهابات الحلق السائدة وبأن «الأنفلونزا» قد أضرت بالكثيرين وتسللت إليه تلك النظرات الساخرة... المفعمة هجاءً... تأملته مليًّا قبل

أن يقول «ويفر» في صوت لم يتجاوز منتصف القاعة «فيما يختص بحالتي فأنا مصاب بالسرطان».

وفي خضم الصمت الغاضب الرهيب الذي ساد القاعة تباعاً خلفاً لما سلف من حميمية جوفاء استهل «ويفر» كلمته دون أن ينتظر تقديم «كراشو» له... بدا مستعجلاً بادئ ذي بدء... وأدرك بأن الدقائق التي تلت مُلِئتْ عوائق ومصاعب حاصرت خطبته من كل صوب صوته كان حاد النبرات يستحيل أحياناً صراخاً طويلاً حاداً تمجه أذن السامع. بدأ بإزجاء عبارات التحايا والثناء لأعضاء الجمعية على أنه أتبع ذلك بحديث بلغت معه المبالغة حدّ إيغار صدور الحاضرين عليه، وإذكاء نيران الغضب في ذواتهم ـ كان سعيداً ـ قال لهم ـ بمنحهم فرصة يستمعون فيها إليه لأن ما سيقوله قد يغير الرأي السائد عن القيم النسبية للروح والمادة ـ شيء غريب ـ يا له من غموض! فكر «كراشو» وشرع صوت «ويفر» ذو النبرات الحادة في نشر دائرةٍ معلوماتية.

ـ إن الروح لهي أقوى بكثير مما تعتقدون... ـ قال ـ وإن النشاط الفيزيولوجي للقلب والمخ والأعصاب هو عامل مساعد لها ـ كانت الروح كل شيء ـ وقال ثانية وصوته الحاد يجرح كبد السكون كصرير خفاش ملتصق بالسقف:

ـ الروح أقوى مما تتصورون كثيراً.

ووضع يده على حلقه قبل أن يحدق في زجاج النافذة بعينين نصف مغمضتين... متأملاً ذلك الضباب الغامض المتدافع الكثيف... رافعاً بصره إلى المجسم الكهربائي المعلق للكرة الأرضية... وهو يئز لشدة الحرارة وضعف الطاقة في تلك الظهيرة المعتمة:

ـ إنها خالدة...! قال لهم في وقار جاد... على أنهم شرعوا في التململ في مقاعدهم في ضجر ونفاد صبر. ولم يلبث التعب أن غشى صوته فبدا خافتاً واهن النبرات وربما كان مرد ذلك شعوره بانقطاع كل آصرة صلة بينه وجمهور النظارة. وامتشقت مسنّةٌ في آخر القاعة إبر الحياكة وشرعت في سرد كرة الصوف ثم انهمكت في حياكة قطعة ما وكلما انسكب النور على «صنارتيها» ارتد

أشباحاً راعشة متراقصةً على جدران القاعة... تماماً كروح فولاذية مشعّة!... واختفى كل أثر للسخرية من ملامح «ويفر» لوهلة فبدى بؤبؤا عينيه كما لو أنهما قد استحالا قطعاً زجاجية جوفاء!

ـ إن هذا لهو غاية في الأهمية. صاح المحاضر فيهم «سأروي لكم هذه القصة» واجتذب وعده الأكيد ذلك انتباههم برهة إلا أن استقرار إبر الحكاية في يد المسنة دون حراك لم يهدئ من اضطراب أعصابه فما كان منه إلا أن سخر منهم جمعياً:

ـ «آيات وعجائب»! ردد في غموض.

ساعتها انقطع خيط حديثه كليّةً. ومرر يده على حلقه مرات عدة ثم تلا شيئاً من أعمال شكسبير وبعض رجال الدين. وشرع صوته في الاضمحلال فاقدا في خضم ذلك كل سياق منطقي... ورغم ذلك فقد بهُر «كراشو» جرّاء مقدرته على الجمع بين المتناقضات ببراعة وذكاء. كان حديث «ويفر» كتمتمات شيخ يحول مجرى الكلام بين تارة وأخرى دون أن يتخذ نسقاً محدداً مكتفياً بالاتكاء على قاعدةٍ معينة من اللاوعي: ـ عندما كنت في «سيملا» قال «ويفر» حانياً حاجبيه كمن يتقي ارتداد وهج الشمس تعكسها ساحات الثكنات العسكرية في لمع يكاد سنا برقه يخطف الابصار...! على أنه يبدو أن الصقيع والضباب وتلك القاعة المعتمة الكئيبة قد اغتال مسار ذكرياته.

وشرع يؤكد للحضور ثانية أن الروح خالدة لا تزول بزوال الجسد وأنها تستقر في البرزخ بأمر الله.

ـ حالته تدعو للشفقة! فكر «كراشو» الذي بدا له الأمر كما لو كانت الحياة ابنا وحيداً لـ«ويفر» جاهد وهو يراه يحتضر أمامه أن يبقي على خيط اتصال معه لا تبليه يد الزمان.

ووصلت إلى «كراشو» ملاحظة من الدكتور «براون» وكان رجلاً قصيراً تبدو عليه سيماء النباهة ويجلس في الصف الثالث. فأما الملاحظة الخطية فتقول:

ـ أليس بإمكانك إيقافه؟ جليّ أن الرجل مريض جداً... ثم... أي فائدة تجنى من حديثه على أي حال؟

والتفت «كراشو» يمنة ويسرة... فأحسّ بتبخّر ما استشعر من شفقة على «ويفر» حينما بصر بعينيه تجوبان أرجاء المكان وقد ملئتا سخرية وانتقاداً لمن حوله. وزاد في غضبه ذاك المنديل الناضح بعطر مركز غمس فيه طويلاً. بدا له «ويفر» أجنبياً غريباً! ينبغي مراجعة سجله ضمن قوائم الجيش القديمة! ـ قال في نفسه!

ـ الدليل القاطع. ردد «ويفر» لاقطاً أنفاساً متعبةً لاهثة. ووضع «كراشو» ساعته على المنضدة لكن «ويفر» لم يأبه بذلك... كان يسند جسده متكئاً بيده على حافة المنضدة.

ـ سأقدم لكم ـ قال بصعوبة متنامية ـ الدليل القا... وانتهى صوته إلى سكون تام... تماماً كتوقف الإبرة في نهاية الأسطوانة، على أن الهدوء لم يدم طويلاً؛ إذ انبعث فجأة من ذلك الوجه الذي تجمدت ملامحه حتى خلا من كل تعبير، صوت هو إلى المواء الحاد أقرب فاستقطب اهتمام الحاضرين طرًا، وأتبعه بطائفة من الأصوات المبهمة الشاذة، همسات شفهية وجوقة من الألفاظ الغريبة المتنافرة، فيما كانت أصابعه تمارس الطرق على المنضدة... ذلك المزيج الصوتي الرهيب أعاد إلى الذاكرة جلسات استحضار الأرواح المحرّمة وقرع الطبول في كبد الليل... واحليلاك الدجى وتلك القاعات الداكنة المفرغة الهواء.

وجلس «ويفر» في كرسيه ثم ألقى برأسه إلى الخلف فجأة دون حراك وشرعت عجوز في الصياح بعصبية فيما شق الدكتور «براون» طريقة إليه بصعوبة وانحنى عليه مستجلياً كنه ما ألمّ به.

ورأى «كراشو» يد الطبيب المرتعشة وهي تمتد إلى جيب «ويفر» لتخرج منديله فتقذف به بعيداً... قبل أن تتسلل إلى أنفه رائحة أُخرى... غير سارّة وهمس الطبيب:

ـ اصرف الجميع إنه ميت.

كان يتحدث في حزن وكآبة يندر أن يستشعرها طبيب اعتادت عيناه مصافحة شتى أنواع الموت وقبل أن ينفّذَ «كراشو» ما طلب منه ألقى نظرة على الجسد الميت فهاله مرآه!

عبر سنين طويلة... عايش من الموت أشكالاً شتى... رأى أناساً ماتوا انتحاراً وآخرين قضوا نحبهم في ساحة الوغى... إلا أنه لم ير شيئاً كهذا. كان كجسد انتشل من البحر بعد وفاته بأمد بعيد... أما لحم الوجه فكان على وشك أن يهوي مزقاً كما تهوي الثمرة جاوزت النضج أدهراً. ولذا فإنه لم يستغرب كثيراً حينما همس الطبيب في ذهول:

ـ «يبدو أن الرجل قد مات منذ أسبوع»!.

أما ما ظل يحتل المساحة الأكبر من تفكير «كراشو» فهو إصرار «ويفر» على ترديد عبارة «الدليل القاطع»... لقد كان يحاول إثبات حقيقة مؤادها أن الروح تخلد بعد فناء الجسد فهل تأتى له ذلك؟!!

التلغراف البشري

للكاتب البولندي: Boleslav Prus

بينما كانت الكونتيسة «X» في زيارة لدار الأيتام استرعى انتباهها مشهد غير مألوف. بصرت بأربعة من الصبية وقد انهمكوا في عراك حاد استخدمت فيه القبضات والأقدام.

ـ كفوا عن ذلك أيها الأولاد! أيعقل ذلك... تتشاجرون؟

ـ صاحت بهم السيدة وقد صدمها ما تمسرح أمامها من فصل غير عادي ـ ستحرمون بسبب ذلك ـ من كعكة الزنجبيل، هيا إلى الزاوية وليرفع كل منكم إحدى قدميه ووجهه إلى الحائط!

ـ لقد خطف من يدي رواية «روبنسون كروسو»! قال أحدهم مبرراً غضبه.

ـ كاذب بل هو من قام بذلك! رد آخر.

ـ أرأيتِ كيف يبدل الحقائق ـ لقد أخذها بدوره مني سيدتي! احتج ثالث.

وشرحت مسؤولة الميتم الموضوع للكونتيسة فبينت لها أنها ورغم الرقابة الصارمة فإن كثيراً من الأحداث المشابهة لذلك تقع بين آن وآخر، أما السبب في ذلك فعائد إلى كَلَفِ الأطفال بالقراءة وعدم تمكن الدار من توفير كتب لهم.

وأحست الكونتيسة بدفق حسي غريب ينداح في شراييها ليغزو فؤادها... شعور ما خالجها قبل ذلك قط. وشغل التفكير في ذلك جل وقتها على أنها جهدت في محاولة لنسيان الأمر برمته. وظل في طي النسيان حتى كانت مدعوةً يوماً إلى بيت كبير المستشارين حيث يُتَطَرَّق غالباً إلى بعض القضايا الإنسانية ذات الطابع الخيريّ فروت ما حدث في ذلك الميتم من شجار وما قدمته مسؤولة الدار تبعاً لذلك من تبرير.

وكان كبير المستشارين يصغي باهتمام إليها حتى بلغت حيّز التبرير فإذا بذات الدفق الحسي الغريب الذي غشاها يعانق أفياء روحه، ولأنه كان يتمتع بفكر غزير وقدرة على التحليل بارعة فقد اقترح المبادرة إلى موافاة دار الأيتام تلك بمجموعة من الكتب. تلك الليلة كان ضيفاً على السيد «نـ» وهذا الأخير هو من المهتمين بتقديم الخدمات الإنسانية إلى محتاجيها وما أن عرض الأمر عليه حتى لقي ترحيباً بفكرة إمداد دار الأيتام بعدد من الكتب:

ـ ولا أسهل! قال السيد ـ «نـ» سأبادر من الغد بزيارة لصحيفة «الناقل» فأدرج إعلاناً حول حاجة الملجأ إلى كتب! وكان عند وعده. هرع السيد «ز» صبيحة الغد إلى مكتب الجريدة ثملاً بنشوة العمل التطوعي الخيري فرجاهم وضع إعلان عام بالتبرع لتلك الدار البائسة بما تجود به أريحية فاعلي الخير من كتب وكان وصوله في وقت مناسب إذ إن الجريدة كانت بحاجة إلى ذلك الإعلان المتضمن سطوراً تذكي العاطفة وتؤجج مشاعر القراء وجلس المراسل الصحفي فامتشق قلماً واستدنى ورقةً دَوَّن عليها:

مجموعة أطفال في كنف الرعاية الاجتماعية يشكون من حاجةٍ ملحة إلى كتب! إنهم في عمر الزهور تذكروا لوعتهم وحرمانهم... وتلك الأرواح الظامئة إلى سلسبيل المعرفة! كتب ذلك ثم شرع يصفّر في سعادة ورضى متّخذاً إلى أحد المقاهي طريقه.

بعد ذلك ببضعة أيام... كنت في زيارة لتلك الجريدة مع صديقي مدرس الفيزياء حينما لمحت أمام باب مكتب التحرير المغلق رجلاً مهلهل الثياب متواضع الحال... كانت يداه في اتساخ أيدي منظفي المداخن، وإلى جانبه بنيّة صغيرة هزيلة رثة الملابس، بين يديها لفافة كتب قديمة.

ورفع الرجل المهزول قبعته فأجاب عن سؤالي فيما يختص بغرض الزيارة:

لقد أحضرنا سيدي تلك الكتب التي أعلنتم عن حاجة أولئك الأطفال المساكين ذوي الأرواح الظمأى إليها.

وانحنت طفلته البائسة بقدر ما أتاحت لها الأنيميا المعشَّشة في ذرات دمائها فتناولت الكتب منها وناولتها بدوري صبي المكتب ما اسمك سيدي؟ سألت فاعل الخير.

ـ لكن ما حاجتك إلى معرفة ذلك سيدي؟ أجاب وسُحُبُ الحيرة والإحراج تخيّم على صفحة وجهه البائس اليائس.

ـ يتحتم أن ندرج اسم المتبرع!

ـ ليس هذا بذي أهمية تذكر ـ أرجوك سيدي ـ لست سوى عامل بسيط في مصنع للقبعات ـ ليس ذلك ضروريًا. وذهب تتبعه ابنته الناحلة المسكينة.

ولست أدري لم خطرت لي فكرة إرسال البرقيات بطريقة جديدة... قد يكون وجود صديقي مدرس الفيزياء هو ما ولّد ذلك الخاطر. لاح الميتم ببالي كمحطة التلغراف الرئيسة، فيما بدا العامل في مصنع القبعات كمحطة الاستقبال وحالما يعطى الأول إشارة انتبه! ـ يردّ الثاني في الحال...، يطلب أحدهم فيلبي الآخر. فأما نحن ـ البقية أقصد ـ فأعمدة التلغراف.

قضيه عِرقيّة

للكاتب الأمريكي: إرنست هيكوكس Earnest Haycox

حينما استقرّ «فرانك ايزابيل» في منطقة التلال الصفراء خريف ١٨٦٩ كانت أقرب بلدة تبعد مسيرة أربعة أيام للراكب شمالاً، أما أقرب جار أبيض فكان على بعد سبعين ميلاً «بوادي الرقصتين» ورغم أن المنطقة كانت محظورة على الهنود الحمر إلا أن سير المرء منفرداً في المنطقة كان يشكل خطراً على الحياة لمّا يزل!

على أن ذلك لم يكن بذي أهمية «لإيزبيل» الفتيّ ذي العزيمة الصلبة والإرادة الذاتية القوية إذ إنه قد نشأ في ذلك الجزء الفقير من ولاية «ميزوري» والذي مزقته النزاعات إلى حد يبلغ الطفل معه مبلغ الرجولة حالما يصبح قادراً على حمل البندقية. ورغم أنه كان متوسط الطول حليق الذقن دوماً الا أن خطاً رماديا كان يرسم حدود استدارة فكيه، فأماّ الأرض فخصبة وفيرة المياه، يانعة الأعشاب وهذا في الواقع هو ما حدا به إلى القدوم أصلاً.

على أن اكتفاءه الذاتي هذا قد أعاقه عن التفكير في ذلك الجوع الآخر الذي قد يعصف برجل وحيد. ولما لم يكن هناك ثمة أمل في اقترانه بفتاة بيضاء فقد اضطر إلى التوجه إلى المحمية واختيار حليلة له كانت فتاة هندية دفع لوالدها مهراً قوامه حصان ودجاجات سبع وبدا جليا نجاح الصفقة فقد كانت نظيفة سريعة يقظة... بعينين كبيرتين تطلان من وجه ناعم مستدير... على أن ضآله المهر المدفوع قد جرحت كبرياءها نوعاً، وظلت تتألم بصمت حيناً من الدهر بيد أنها تذكرت أن من اختارها وهي الهندية الحمراء كان رجلاً أبيض فآسى ذلك جراح قلبها الكسير ورتق ثقوب اللوعة في صميم كبريائها الأبيّة، فإذا هي تندمج في حياتها الجديدة داخل كوخ فرانك الخشبي متحملةً بصمت وطأة الليالي الثقيلة المملّة.

ووجد فيها أكثر مما كان يتوقعه في فتاة هندية... فطنة، وسرعة في استشراف كنه ما قد يراوده من أفكار... وومضات خاطفة من مفارقات تبعث على الابتسام، ولمحات لودٍّ وليدٍ قبل أن يطل عليها مولودهما البكر كإشراقة فجر جديد!.

وأمطرها بوابل من الهدايا على إنه وبمرور الأيام بات يلمح ذلك الفرق في الطباع... واختلاف التقاليد التي نصت بالنسبة لها على أن الرجل رجل... له هيبته ووقاره، وأن على المرأة أن تخدمه وتجلّه ما استطاعت، على أن هناك ذاك الحدّ الفاصل بينهما والذي لا يجدر تجاوزه بأي حال من الأحوال، لكنه وهو الغربي المترعرع في بيئة مختلفة أدرك بعين القلق ذاك الصدع المتعاظم بينهما.

صدمها ـ بادئ ذي بدء ـ باقتطاعه خشب التدفئة وأعقب ذلك بسلخ غنائم الصيد وتقطيعها... صنيع رأت أنه لا يليق به كرجل... أخجلها ذلك تماماً كما آلمها اضطرارها إلى تناول الطعام على المائدة بعد إذ عاتبها مراراً كيما تعتاد ذلك... ورضخت لذلك كله على أن وجهها الطفولي ذاك كان يخفي إرادة صلبة وعزيمة جبارة ما ألجمها غير فضيلة احترام الزوج، إلا أن عادات آلاف من الأجيال الغابرة كانت مغروسة في ذاتها وكيانها لمّا تزل!

وكان هو ينفث دخان لفافته بجانب المدفأة فيظل يرقب طفله وهو يحاول السير جاهداً فيتعثر في مشيته، على أنه كان يرنو إليها وقد انفردت في إحدى الزوايا المظلمة وغابت في تفكير عميق لم يكن ليتسنى له سبر غوره أو معرفة كنهه... وكانت أيام طفولته في «ميزوري» تراوده بين الفينة والأخرى فيود لو حدثها عنها فتشاركه آماله وآلامه وذكريات عذبة غابرة، على أن جهله للغتها وعدم معرفتها للإنجليزية وأد ذلك كله فطال الصمت بينهما.

وقامت بلدة جديدة في البراري التي تبعد عنهما ستين ميلاً «بوادي الرقصتين» فسد مربّو الماشية ذاك الفراغ الرهيب في حياته.

وينظر عبر المتاريس فيرى حياة مدنية جديدة تدنو من منطقتهم. لقد وصل أبناء جلدته إليه أخيراً. على أن معظمهم شرعوا في إرسال زوجاتهم من الهنود الحمر وأطفالهم المهجنين إلى محمية الهنود ثانية تعبيراً عن اشمئزازهم وخجلهم من وصمة العار التي لحقت بهم جرّاء. زواجهم منهن... ولمح «فرانك» الرعب في عينيها مخافة أن يصيبها ما أصابهن إلا أنه وصمهم بالحمقى وبأنه لن يقدم أبداً على الاقتداء بهم فلمح إفراخ الروع في مقلتيها وعودة السكنية إلى طيات روحها.

وذلك في الواقع هو ما حدا به إلى التوجه بها إلى «وادي الرقصتين» سَرَّهُ أن تبدو معه في تلك البلدة بشعرها المجدول الكثيف وملابسها الأنيقة النظيفة دوماً... يقع شعاع الشمس عليها فتنبثق منها ألوان عدة... على أنها كانت قد غفلت عما ألفه من تقاليد إذ بينا كانا يسيران في شارع البلدة ظلت تسير خلفه كما تفعل هندية حمراء أصيلة وقد نكست رأسها رمزاً للطاعة والولاء. وكان يدرك الكيفية التي سيترجم بها أهل البلدة من بني جلدته تصرفها ذاك فاصطبغ صوته بنبرات الغضب وهو يقول لها في طريق عودتهما إلى المنزل:

ـ تسير زوجة الرجل الأبيض بمحاذاة زوجها... لا خلفه! ولمح الخوف الداكن في مقلتيها ثانيةً فلم يتسنّ له تبديده أما هي فما عادت إلى البلدة ثانيةً.

وعندما كانت المناسبات تجمعه بأهل البلدة كان يرى الفرق جليًّا بينه وبينها ويلمح بعين الشعور ذاك الخَطَّ الخفي الواهن الذي يفصله عنهم... لم يعد من البيض الخلَّص! كلا ما عاد كذلك ـ قال في حسرة لنفسه.

وذات ليلة خريفية توجه إلى البلدة لمشاهدة الرقص الأسبوعي المقام هناك فأحس بمرارة وضعه تجتمع فتشكل كتلةً ثقيلةً تجثم على صدره! وأدرك وأعين الحسان الراقصات تطوف به فداحة خطئه الذي ارتكبه بزواجه منها... والآثار الممضّة بعيدة المدى التي تمخض ذلك عنها.

وعاد إلى بيته ذلك المساء متأخراً يرنحّ الثمل خطوة وعندما استيقظ صبيحة اليوم التالي لا حظ اختفاء زوجته وطفله فلم يحرك ساكناً: قد تعود أولا تعود ـ قال في نفسه ـ ولن أستطيع في كلتا الحالتين أن أقدم أو أؤخر شيئاً. وعادت مساء اليوم الثالث متأخرة نوعاً فما نبست ببنت شفة وعندما حان وقت العشاء تناوله وحيداً على الطاولة بعد إذ افترشت ووليدها الأرض، ذاك كان قرارها ـ همس لنفسه ـ ولم يكن باح لها بمكنون ذاته وما يعتمل في فؤاده من أسى. على أنها ـ بذكائها الفطري ـ قد فطنت إلى ذلك... حدّثه عن ذلك صمتها! هو رجل أبيض وله أن يتناول على الطاولة طعامه أما هي وابنها فيختلفان عنه ولهما إذاً موضع مختلف.

على أن ذاته كانت تجيش بمشاعر تنضح بالطيبة واللطف وذاك ما كان يعينه دوماً على تطويع أعتى الأحاسيس والانفعالات وكان يعود بذاكرته إلى الخلف... حينما اقترن بزوجته... وذاك المهر الزهيد الذي دفعه لها... إلى تلك الأيام الخوالي الجميلة يوم كانت عيناها نديتين بأريج الدعابة والمرح... يومها كانت السطوة للهنود الحمر ولم تكن الهيمنة والغلبة لقومه كما هي الحال الآن ـ قال لنفسه ـ وأدرك فداحة ما أقدم عليه بزواجه من فتاة هندية... وأقّر بذلك على أنه قرر أن يتحمل نتيجة تسرعه يومذاك ـ وعاد يذكّر نفسه ثانيةً ـ بين طوفان الأفكار الذي تستوي على جوديّها ذاته ثم تعود لتموج وتضطرم تارةً أخرى ـ عاد يذكّر نفسه بأن آثار خطئه قد تعدته لتطال زوجته وابنه ذا السلالتين.

ولم يكن هناك ثمة أمل فيما يختص به وزوجته فانصبّ تفكيره على مصير ابنه... وشرعت أنواء الخواطر تطوف به ثانية بطيئةً مؤلمة. وذات ليلة شتاء زاره صديقة «جيم بينبو» لاحتساء قدح من القهوة وظلا يتحدثان عن قطعان البقر والخشب لوهلة ثم لبس الضيف قبعته وقبل أن يصل إلى الباب لمح زوجته وابنه في إحدى زوايا المنزل فالتفت إلى «فرانك» وقال له ـ ابنك ينمو بسرعة يا «فرانك» ثم غادر المكان وسمع لأوراق الأشجار حفيفاً ثم ران ثانيةً... صمت

عميق. وجلس «فرانك» ويداه ممدودتان على الطاولة ففكر فيما قاله «بينبو» قبيل ذهابه، جملته الأخيرة تلك ـ بخصوص ابنه ـ كانت تحوي حكمةً بالغة.ونهض من مكانه فأحضر كرسيًا آخر وضعه بجانب الطاولة ثم اتجه إلى ابنه ـ الجاثم مع أمه بصمت ـ في زاوية مظلمة فحمله ووضعه على الكرسي وبقي صامتاً لوهلة وامتد على الحائط ظلان لرجل واقف وطفل محني على كرسي أمام المنضدة وتكلم الأب فقال:

ـ سيأكل على هذه الطاولة من الآن فصاعداً!

أما هي فعادت القهقرى كيما تحتمي بالزاوية أكثر فأكثر كظل يتلاشى في ظلمات الليل الأجوف ثم سمع ووجهه مدارٌ صوب الناحية الأخرى بكاءها الرهيب المكتوم يشرخ جدار الصمت.

الرجل الذي كان رجلا تقريباً

للكاتب الأمريكي: (رتشارد رايث)

اندفع «ديف» بهمة عبر الحقول... منطلقاً تجاه منزله. واتجه بنظره عبر الضوء الخافت المتلاشي: ما الفائدة من الحديث مع هؤلاء الزنوج في الحقل؟ وعلى أي حال فقد كانت أمه تضع العشاء على المائدة ـ ثم إن هؤلاء السود لا يفهمون شيئاً... يوماً من الأيام سيحضر مسدساً ويتدرب على إطلاق النار، عندها لن يكون بمقدورهم مخاطبته كما لو كان غراً صغيراً، وخفف من سيره ثم تطلّع إلى الثرى: تباً لهم! لست خائفاً منهم وإن كانوا أكبر سنًّا آه... أعلم ما سأفعل، سأتجه إلى متجر «جو» الليلة فأتصفح دليل «سيرز» حيث ألقي نظرة على ما يحويه من مسدسات، ربما اشترت أمي واحداً لي لدى استلامها مستحقاتي من العجوز «هوكنز». سوف أتوسل إليها كي تمنحني شيئاً من النقود. فأنا في سنٍّ تسمح لي باقتناء مسدس. أنا في السابعة عشرة وذلك يعني أنني قد أصبحت رجلاً تقريباً. ومضى يتحسَّس أطرافه الطويلة الهشة التركيب مبتسماً: من حق المرء أن يحصل على مسدس بعد مجهود يوم شاق. ولاح له متجر «جو» فيما كان مصباح يرسل ضوءاً واهياً في الواجهة الأمامية. وصعد الدرج مسرعاً ثم أغلق الباب وراءه فسمع صوت التحامه بإطاره. وانبعثت من المكان رائحة وقود فحم وسمك «الاسقمري» وكان لا يزال محتفظاً بثقته ورباطة جأشه حتى بصر بـ«جو» السمين يدخل من الباب الخلفي عندها بدأت الشجاعة تخونه.

ـ كيف حالك يا «ديف»؟ ماذا تريد؟

ـ أهلا سيد «جو»! لم أحضر لأبتاع شيئاً... هل بمقدورك إعارتي دليل «سيرز» لوهلة؟

ـ بالطبع... أتريد أن تلقي عليه نظرة هنا؟

ـ كلا يا سيدي... سآخذه معي إلى المنزل على أن أعيده غداً لدى عودتي من الحقول.

ـ أتعتزم شراء شيء؟

ـ نعم سيدي.

ـ إذاً فوالدتك قد سمحت بأن يكون لك مالك الخاص؟

ـ بالطبع... سيد جو لقد أصبحت رجلاً كغيري، وضحك «جو» وهو يزيل بقع الزيت عن وجهه الأبيض بمنديل أحمر.

ـ وما الذي تعتزم شراءه؟

ونظر «ديف» إلى الأرض وحك رأسه وقدمه وابتسم قبل أن يرفع رأسه بخجل ليقول:

ـ سأخبرك يا سيد «جو» إن وعدت بألا تقول لأحد.

ـ أعدك!

ـ حسن... أريد أن أبتاع مسدساً.

ـ مسدس؟! ولماذا تريد مسدساً؟

ـ كي أحتفظ به!

ـ لكنك لا تعدو كونك ولداً، لست بحاجة إلى مسدس.

ـ أوه... دعني أحصل على الدليل يا سيد «جو»... سأعيده إليك!

واختفى «جو» عبر الباب الخلفي فيما غمرت البهجة فؤاد «ديف» ونظر إلى أكياس الدقيق والسكر وقد اكتظ بها المتجر... ثم تناهى إليه صوت مجيء «جو» فلوى عنقه مستطلعاً ما إذا كان قد أحضر الدليل معه... أجل إنه معه... معه!

ـ إليك... لكن تأكد من إعادته فليس لدي سواه.

ـ طبعاً سيد «جو»!

ـ لكن... إن كنت تنوي شراء مسدس فلم لا تشتريه مني؟

لدي مسدس للبيع.

ـ وهل يُطلق؟

ـ بالطبع يطلق؟!

ـ ما نوعه؟

ـ إنه قديم نوعاً ودولابه إلى الشمال. إنه مسدس كبير.

ـ وهل بداخله رصاص؟

ـ نعم إنه محشو.

ـ وهل بإمكاني أن أراه؟

ـ أين النقود؟

ـ كم تريد ثمناً له؟

ـ سأسمح لك بالحصول عليه مقابل دولارين.

ـ دولاران فقط؟!! بإمكاني شراؤه عندما أستلم راتبي.

ـ سأحتفظ به حتى تأتي.

ـ حسن سيدي. سأكون هنا لشرائه.

ومر «ديف» عبر الباب خارجاً فسمع اصطفاقة ثانية خلفه وشرع يناجي نفسه: سأحصل من أمي على بعض المال وأجيء لشرائه. دولاران فقط؟!! ووضع الدليل تحت ذراعه ثم أسرع عائداً إلى منزله.

ـ أين كنت يا ولد؟ قالت أمه حاملة صحن بازلاء ساخن.

ـ كنت أحادث بعض الصبية في الطريق.

ـ تدرك تماماً أنك يجب أن تحضر في موعد العشاء.

وجلس واضعاً الدليل على حافة الطاولة.

ـ انهض واغتسل من البئر... لست مستعدة لإطعام خنازير في منزلي.
وجذبته من كتفه فدفعته بشدة... وتعثر في أرضية الغرفة ثم عاد لأخذ الكتاب.

ـ ما هذا؟ قالت أمه.

ـ أواه... ليس إلا دليل بضاعة.

ـ ومن أين جئت به؟

ـ من «جو» صاحب المتجر.

ـ حسن! بإمكاننا الاستفادة منه!

ـ كلا يا أمي... إليّ به.

وتشبثت الأم بالكتاب فيما حملقت في ابنها: ـ

ـ كف عن ذلك! ما بك؟ هل فقدت عقلك؟!

ـ أرجوك يا أماه... إنه خاص بالسيد «جو» وقد أمرني بأن أعيده غداً!
وأعادت أمه الكتاب الثقيل إليه فاحتضنه بلهفة وعدا مسرعاً ـ موشكاً أن يتعثر في درجات السلم. وعندما غسل وجهه ويديه عاد إلى المطبخ باحثاً عن فوطة يجفف بها يديه ثم قفز إلى أحد المقاعد فصوّت الكرسي متأرجحاً، فيما جثم الكتاب على قدميه، وحالما مسح عينيه التقط الكتاب ثانية فوضعه تحت ذراعه وظلت أمه ترمقه واقفة قبل أن تقول:

ـ إن استمرت تصرفاتك الحمقاء حيال هذا الكتاب على هذا النحو فسأحرقه!

ـ كلا يا أمي! أرجوك!

ـ فاجلس إذا ولا تتحرك!

وجلس ثانية فقرب مصباح الزيت منه... وشرع يقلب صفحات الكتاب دون أن يبدي اهتماماً بالطعام على المائدة، وجاء أبوه. فأخوه الأصغر.

ـ ما هذا الشيء يا «ديف»؟ سأله أبوه.

ـ مجرد كتاب، قال دون أن يرفع رأسه.

ـ نعم... هاهي أخيراً! قال «ديف» لنفسه ـ ولمعت عيناه وهو يحدق في مسدسات زرقاء داكنة... ورفع نظره بعد أن دهمه إحساس بالذنب. كان أبوه يرقبه. وأنزل الكتاب فوضعه على ركبتيه. وبعد أن شكر الله على آلائه ونعمائه شرع يزدرد طعامه دون مضغ، على أن كوباً من اللبن سهل انزلاقه. ولم يشأ أن يذكر شيئاً عن المال في حضرة أبيه ـ سوف يسهل الأمر عندما ينفرد بأمه فيخبرها ورمق والده وجلاً من طرف خفي.

ـ لماذا لا تكف عن اللهو بكتابك وتتناول عشاءك يا ولد؟

ـ نعم سيدي.

ـ كيف أنت والعجوز «هوكنز»؟

ـ سيدي؟!

ـ ألا تسمع؟ لِمَ لا تصغي؟ قلت كيف أنت والعجوز «هوكنز»؟

ـ على أحسن حال يا أبي أنا أحرث أرضاً أكثر من أي شخص هناك.

ـ يجب أن تركز في عملك.

ـ نعم سيدي.

ـ وملأ صحنه بدبس السكر فمرر عليه رغيف ذرة وشرع يأكل ببطء. عندما غادر أبوه وأخوه المطبخ كان لا يزال ينظر إلى المسدس في الدليل... مستجمعاً أطراف أصابعه كي يفاتح أمه في الأمر. رباه... لو امتلكت هذا المسدس فقط.

إنه يكاد يحس بانسيابيته بين أصابعه... لو كان لي مثل هذا المسدس لبالغت في تلميعه والعناية به فلا يصدأ أبد الدهر ولا حتفظت به ملقّماً محشواً! أماه... وكان صوته متردداً.

ـ نعم.

ـ هل أعطاك العجوز هوكنز مرتبي؟؟

ـ نعم لكن لا يدر بخلدك أنني يمكن أن أجعلك تضيع أياً منه... إنني أحتفظ به لأشتري لكم ملابس للمدرسة هذا الشتاء. وهب فاتجه إليها والدليل مفتوح على راحتيه... كانت تدعك بعض الأطباق... حانية رأسها... ورفع الكتاب في خجل وعندما نطق كان صوته خافتاً ضعيفاً.

ـ أماه... الله وحده يعلم كم أود امتلاك واحد من هؤلاء.

ـ واحد مم؟ سألت دون أن ترفع عينيها.

ـ واحد من هؤلاء. كرر... دون أن يجرؤ على مجرد الإشارة والتفتت فرمقت الكتاب بنظرة سريعة قبل أن يرتد طرفها إليه... وقالت وقد اتسعت عيناها:

ـ هل فقدت عقلك أيها الزنجي؟!

ـ أواه... يا أمي.

ـ اغرب عن وجهي... وإياك أن تحدثني ثانية أيها الأحمق.

ـ ولكن بإمكاني ابتياع واحد بدولارين فقط.

ـ لن تفعل!... حسبما أعرف.

ـ لكنك وعدتني بشراء مسدس لي!

ـ لا تلق بالاً إلى ما وعدتك به... لست سوى ولد صغير.

ـ إن اشتريت لي واحداً فلن أطلب منك شيئاً ما حييت.

ـ قلت لك اغرب عن وجهي، لن تنفق شيئاً من هذا المال، لهذا أمرت السيد «هوكنز» بأن يدفع بمرتبك إليَّ لأني أعلم بأنه لا إدراك لديك.

ـ لكننا بحاجة إلى مسدس يا أمي... إن أبي لا يملك واحداً ولا يمكن لأحد أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث.

ـ لا تحاول استغفالي أيها الصبي: لو كان لدنيا مسدس فلن يكون معك. ووضع الكتاب فأحاط خصر أمه بذراعه.

ـ أماه... لقد عملت طوال الصيف... ولم أطلب منك شيئا... أليس كذلك؟

ـ وهذا هو ما يتحتم عليك عمله.

ـ لكني بحاجة إلى مسدس يا أمي. بإمكانك إعطائي دولارين من مرتبي... أرجوك يا أمي.. وسأعطيه لأبي... أرجوك يا أماه... أرجوك...

وعندما تكلمت... جاء صوتها رقيقاً خافتاً.

ـ لم تريد مسدساً يا «ديف»؟ لست بحاجة إليه... سوف تقع من جرائه في كثير من المشاكل... ولو علم أبوك بأنني أعطيتك مالاً كي تشتري به مسدساً فقد يصاب بنوبة.

ـ سأخفيه! إن ثمنه لا يتجاوز الدولارين.

ـ يا الهي!... ماذا حدث لك أيها الصبي!

ـ لا شيء يا أماه... أوشك أن أصبح رجلاً وأريد مسدساً.

ـ ومن سيبيعك إياه؟

ـ العجوز «جو».

ـ لا أظنه سيكلّفك دولارين فقط!

ـ بلى... دولاران لا أكثر... أرجوك يا أمي!

كانت ترص الأطباق حين تحركت يداها ببطء فيما جثم «ديف» في صمت مطبق... ثم التفتت إليه أخيراً.

ـ سأدعك تحصل على المسدس إن وعدتني بشيء.

ـ وما ذاك؟

ـ أن تحضره إليّ مباشرة ـ هل تسمع؟ سيكون لأبيك.

ـ نعم يا أماه... دعيني أذهب!

وانحنت فاستدارت قليلاً... ورفعت ذيل فستانها، فطرف جوربها قبل أن تخرج ربطة مال هزيلة.

ـ إليك! يعلم الله أنك لست بحاجة إلى مسدس وأن من يحتاجه هو أبوك ـ أحضره لي؟ هل تسمعني؟ سأدفع لك ولتكن على يقين من أنك إن لم تعطني إياه فسأجعل والدك يضربك علقة يبقى ذكرها عالقاً ببالك ما حييت!.

ـ نعم يا أمي.

وأخذ المال فجرى مسرعاً واجتاز السلم والساحة.

ـ ديف: يووووه... دييييف!

كان يسمعها لكنه لم يرد أن يتوقف. يا إلهي! تمتمت. كانت أول حركة قام بها صبيحة الغد هي استخراج المسدس من تحت وسادته! وعلى ضوء الفجر الرمادي... أمسك به. فأحس شيئاً من القوة والسلطة... وبإمكاني أن أقتل رجلاً بمسدس كهذا ـ قال لنفسه ـ أن أقتل أيًّا كان أبيض أو أسود، وإذا ما كان المرء ممسكاً بمسدس فلن يقترب منه أحد وسيلاقي كل احترام. كان مسدساً كبيراً بماسورة طويلة ومقبض ثقيل وشَرَعَ يزنه بيديه... لم يأت به إلى المنزل مباشرة كما أمرته أمه... بل مضى به إلى الحقول وجعل يشهره هنا وهناك تجاه عدو

وهمي ولكنه لم يطلق رصاصة واحدة فقد كان يخشى أن يسمع أبوه ذلك. كما أنه لم يكن متأكداً من معرفته للرماية. ولتفادي تسليم المسدس فإنه لم يعد إلى بيته إلا بعد أن تيقن أن جميع من فيه قد خلدوا إلى النوم.

وعندما تسللت أمه إلى غرفة نومه على أطراف أصابعها في وقت متأخر من تلك الليلة وأمرته بأن يسلمه إليها تمارض بادي ذي بدء ثم أخبرها بأنه قد دفنه خارجاً... وبأنه سيحضره صبيحة الغد... أما الآن فقد كان مستلقياً على سريره يقلب المسدس ذات اليمين وذات الشمال قبل أن يستخرج الرصاص ليعاينه ويعيده تارة أخرى. وانزلق من سريره بخفة فأخرج من صندوقه قطعة صوف كبيرة لفه فيها وربطه إلى فخده محشوًّا ولم يتناول إفطاراً... ورغم أن الشمس لم تكن قد أشرقت بعد فقد اتجه إلى حقل العجوز «هوكنز» حيث يعمل... ووصل إلى هناك مع انبلاج وهج النهار حيث صافح نظره مرأى البغال والمحاريث.

ـ أهذا أنت يا ديف»؟

والتفت فرأى «هوكنز» يرمقه بريبة وشك.

ـ ماذا تفعل هنا باكراً؟

لم أكن أعلم بأن الوقت كان مبكراً سيد «هوكنز» كنت أصلح لجام البغلة العجوز «جيني» لآخذها إلى الحقل.

ـ حسن. بما أنك قد بكرت بالمجيء فهلا حرثت قطعة الأرض بجانب الغابة؟

ـ سأفعل.

ـ فلتذهب إذاً!

وربط المحراث بـ»جيني« ثم مضى تجاه الحقول... أجل... ذاك ما كان يروم... في الغابة لن يتمكن أحد من سماع طلقة المسدس... وظل يسير بجانب المحراث وصوت احتكاكه بالأرض الصلبة يخدش مسامعه... والمسدس مربوط بإحكام إلى

فخذه... وعندما وصل حرث رقعتين كاملتين قبل أن يقرر إخراج المسدس وأخيراً... توقف ورمى بنظره إلى الاتجاهات الأربعة قبل أن يحلّ مسدسه ويمسك به بين راحتيه!

والتفت إلى البغلة فابتسم: ـ

ـ أتعرفين ما هذا يا «جيني» لا أظن ذلك!! لا تعدين كونك بغلة! هذا مسدس. على أي حال ويمكن أن يطلق ناراً وأيم الله! وأمسك المسدس مبعداً إياه عنها مسافة ذراع.

سترين، كيف سأطلق النار منه؟ عندما أسحب الزناد فإني لن أحتمل منك أي تصرف أحمق! أتسمعين!

كانت جيني خافضة الرأس. رافعة الأذنين... وسار «ديف» قرابة العشرين قدماً مبعداً المسدس عنه قيد ذراع ثم أدار رأسه. لست خائفاً ـ قال لنفسه ـ وأحس بالمسدس رخواً بين يديه وحركه بعنف ثم أغلق عينيه وأحكم أصبعه على الزناد بووووم! كاد الصوت يصمُّ أذنيه فيما أحس وكأن يده اليمنى قد انفصلت عن جسده، ورأى «جيني» تندفع عبر الحقل. ثم وجد نفسه جاثياً على ركبتيه، فاركاً أصابعه بشدة... وتخدرت أصابعه فوضعها في فمه لتدفئتها... وكبح جماح الألم فيما كان المسدس جاثماً تحت قدميه. لم يكن يدري ما الذي حدث؟! ووقف يحدق في المسدس كما لو كان كائناً حياً... ثم صرَّ على أسنانه قبل أن يركله.

ـ كدت تكسر يدي ـ خاطبه ـ واستدار باحثاً عن «جيني».

ـ كانت هناك بعيداً في الحقول... تهز رأسها وترفس بعنف.

ـ توقفي أيتها البغلة! وعندما حاذاها كانت ترتجف وتحدق فيه بعينيها الواسعتين البيضاويتين. فيما سقط المحراث بعيداً ثم... توقف «ديف» فجأة غير مصدق لما يراه كانت جيني تنزف... وكان جنبها الأيسر أحمر مرطباً بالدماء ودنا منها أكثر... رحماك ربي! هل أصبت هذه البغلة... وحاول أن يلمس عرفها

فاهتزت وحمحمت وأدارت رأسها بعنف ـ تجلدي الآن! عندها رأى الثقب في جنبها بين الأضلاع تماماً كان مستديراً مبللاً. قانياً فيما انبثق نبع من النجيع بمحاذاة ساقها الأمامية ـ يا إلهي لم أكن أقصد... وأصابه الذعر... كان يعرف أن عليه إيقاف الدماء وإلا نزفت «جيني» حتى الموت... لم ير دماء كثيرة كهذه في حياته... وطارد البغلة مسافة نصف ميل في محاولة للإمساك بها... ثم توقفت أخيراً وهي تتنفس بشدة وذيلها شبه مقوس وأمسك بعرفها فأعادها إلى حيث كان المحراث والمسدس ثم طأطأ فتناول قبضة من الطين حاول أن يسد بها الثقب فانتفضت وهربت منه.

ـ توقفي! توقفي الآن!

وحاول سد الثقب إلا أن الدماء كانت تندفع بغزارة... وأحس بأصابعه حارة لزجة... ففرك راحتيه بشيء من الوحل في محاولة لتجفيفها قبل أن يهبَّ ثالثة كي يسدَّ فتحة الرصاصة إلا أن «جيني» جفلت ثانية رافسة الهواء بساقيها. ووقف يائساً! كان عليه أن يفعل شيئاً وعدا إليها فراغت عنه وهاله مرأى الدم المنبعث من الجرح وقد تجمع تحت قدميها في بركة حمراء «جيني»... «جيني» ناداها واهناً. وارتجفت شفتاه! إنها تنزف حتى الموت!... ومدَّ بصره تجاه بيته... كان يود أن يعود ليجلب مدداً لكنه رأى المسدس ملقى في الوحل الرطب الأسود وفكر لوهلة... لو أنه عمل شيئاً فقد لا تواجه «جيني» الموت نزفاً! وعندما اتجه إليها هذه المرة لم تتحرك... كانت جاثمة... ونظرات ناعسة حالمة تشع من عينيها وحين مسها تحركت بعنف وانكفأت على الأرض فيما كانت ركبتاها الأماميتان غارقتين في بحيرة من الدماء. وهمس. «جيني» «جيني»... ظل عنقها ممدوداً لفترة طويلة ثم... بدأ رأسها في الانحدار شيئاً فشيئاً وعلا صدرها بعنف ثم... ماتت! وأحس «ديف» بأن معدته فارغة جداً والتقط المسدس فأمسك به بحذر بين سبابته وإبهامه ودفنه تحت جذع شجرة.. والتقط عصا وحاول أن يخفي بها آثار الدماء لكن.. أكان ذلك يجدي نفعاً؟! هاهي «جيني» ترقد وقد

فغرت فاها فيما لمعت عيناها الزجاجيتين ولم يكن بمقدوره أن يخبر «جيم هوكنز» بأنه قد قتل بغلته، إلا أنه كان يتحتم عليه أن يجد مبرراً! أجل ـ قال لنفسه ـ وسأخبره أنها كانت بعافية حتى سقطت على حد المحراث... على أن حدوث ذلك لبغل هو من الأمور النادرة جداً... وسار عبر الحقل وئيداً مطأطئ الرأس.

توارات الشمس خلف الجبال فيما كان اثنان من رجال «هوكنز» يحفرون قبراً كي يدفنوا «جيني»... أحاط جمع من الناس بـ«ديف» وكانوا بلا استثناء ـ يديمون النظر إلى البغلة النافقة.

ـ ليس بمقدوري أن أفهم كيف ماتت!

قال «جيم هوكنز» للمرة العاشرة.

ومن بين الجمع... شق أبو «ديف» وأمه وأخوه الأصغر طريقهم إلى وسط الحلقة.

ـ أين «ديف»؟ نادت أمه.

ـ هاهو! رد «جيم هوكنز».

ـ وأمسكت أمه به.

ـ ماذا حدث يا «ديف»؟ وماذا فعلت؟

ـ لا شيء!

ـ هيا... تكلم يا ولد؟! قال أبوه.

وأخذ «ديف» نفساً عميقاً. قاصاً الرواية التي كان على يقين من أن أحداً لن يصدقها ـ لقد جلبت «العجوز» «جيني» إلى هنا كي أحرث الأرض. وبعد أن قلبت رقعتين من الأرض كما ترون... ثم توقف فأشار إلى الأرض المحروثة. عندها حدث شيء مال «جيني»... لقد أخذت تتصرف بشكل غريب فتشخر تارةً... وتركل الهواء بقدميها تارة أخرى ولقد حاولت كبح جماحها فلم أفلح وبينما كان حد المحراث إلى الأعلى اتجهت نحوه وقفزت فوقه ثم بدأت تنزف. وقبل أن أتمكن من عمل شيء... كانت قد ماتت!

ـ هل سمعتم شيئاً كهذا في حياتكم؟ «سأل جيم هوكنز» كان في الجمع بيض وسود وتمتموا لبعضهم فيما دنت والدة «ديف» منه وتفرست في وجهه!

ـ قل الحقيقة يا «ديف»؟... قالت

ـ تبدو لي وكأنها ناتجة عن عيار ناري قال أحدهم.

ـ ماذا فعلت بالمسدس يا «ديف» سألته أمه.

ـ وماج الجمع دانياً أكثر فأكثر... متأملاً إياه ووضع يديه داخل جيوبه ووببطء حرك رأسه من الشمال إلى اليمين وتراجع وقد اتسعت حدقتاه ولمعتا ألماً.

ـ أكان بحوزته مسدس؟ سأل «جيم هوكنز».

ـ لقد قلت لكم إن ذلك كان نتيجة عيار ناري. قال رجل ضارباً ساقه بيده. وأمسك أبوه بكتفيه فهزهما حتى سمعت لأسنانه طقطقة!

ـ خبرني بما حدث أيها الشقي! تكلم.

ونظر «ديف» إلى ساقي «جيني» المتخشبة قبل أن يشرع في البكاء.

ـ ماذا عملت بالمسدس؟ سألته أمه.

ـ ماذا كان يعمل بالمسدس؟ سألها أبوه.

ـ هيا ولتقل الحقيقة! قال «هوكنز» لن يؤذيك أحد ودنت منه أمه.

ـ هل أطلقت النار على البغلة يا «ديف»؟

وبكى «ديف» والوجوه السوداء والبيضاء تتراقص أمامه.

ـ لم أذهب بها لأقتلها... أقسم لكم بالله... كنت فقط أحاول معرفة ما إذا كان المسدس القديم صالحاً للاستعمال.

ـ ومن أين لك به؟ سأله أبوه.

ـ تحصلت عليه من متجر «جو».

ـ ومن أين أتيت بالمال؟

ـ أعطتني إياه أمي.

ـ لقد ظل يزعجني يا «بوب» فاضطررت إلى ذلك اضطراراً على أنه وعدني بإحضاره... لقد ابتعناه لك.

ـ لكن كيف أطلقت على تلك البغلة؟

سأل «هوكنز»

ـ لم أصوب تجاهها سيد «هوكنز» لقد تحرك المسدس حينما ضغطت على الزناد وقبل أن أتمكن من معرفة ما حدث كانت «جيني» تنزف هناك.

ـ وضحك أحدهم فيما سار «جيم هوكنز» تجاه «ديف» وحدق في وجهه قبل أن يقول.

ـ يبدو أنك قد ابتعت بغلة ميتةً يا «ديف»!

ـ أقسم بالله أنني لم أذهب لأقتلها يا سيد «هوكنز»!

ـ ولكنك قتلتها!

وقتها ضحك الجمهور المحتشد برمته فيما كان كل منهم يقف على أطراف أصابعه محركين رؤوسهم هنا وهناك تحقيقاً لرؤية أفضل.

ـ حسن يا صبي! يبدو أنك قد ابتعت بغلة ميتة... ها... ها... ها.

أليس ذلك عاراً؟ هو... هو... هو «ضحك».

ووقف «ديف» منكساً رأسه... حافراً بقدميه في الوحل.

ـ لا داعي للقلق يا «بوب» قال «جيم هوكنز» مخاطباً والد «ديف».

ـ دع الصبي يعمل عندي دافعاً دولارين شهرياً.

كم تريد ثمناً لبغلتك يا «هوكنز».

وضيق جيم ما بين عينيه.

ـ خمسين دولاراً.

ـ ماذا فعلت بالمسدس؟ سأله أبوه بحدة!

ولم ينبس «ديف» ببنت شفة.

ـ أتريد أن أضربك بغصن حتى تنطق؟

ـ كلا يا سيدي.

ـ ماذا فعلت به إذاً؟

ـ ألقيت به بعيداً.

ـ أين؟

ـ في الجدول!

ـ عد الآن إلى البيت وليكن أول ما تفعله صبيحة اليوم التالي هو الذهاب إلى الجدول وإحضار المسدس.

ـ نعم سيدي.

ـ كم دفعت ثمناً له.

ـ دولارين.

ـ أعد المسدس إلى صاحبه وخذ الدولارين فادفع بهما إلى السيد «هوكنز» أتسمع؟ وتذكر بأنني سوف أحاسبك على ذلك حساباً عسيراً. والآن إلى المنزل واستدار فسار الهوينى وسمع الناس يضحكون فأحس بالدموع تسبح في عينيه فيما مار غضب جارف في صدره وازدرد ريقه ثم مشى يتعثر خطوه بالخجل والخزي.

ولم ينم «ديف» تلك الليلة... سره إخلاء مسؤوليته من قتل البغلة إلا أنه كان متألماً وكلما لاح لخياله منظر الجمع الضاحك أحس بالغضب الحارق ذاته... يغلي في أعماقه وتقلب في سريره فيما أحس بالوسادة قاسية خشنة مؤلمة.

ـ يقول أبي بأنه سيضربني ـ وتذكر ما سلف من عقاب فماج ظهره: لن أسمح له بأن يضربني بتلك الطريقة مرة أخرى.

تباً لهم جميعاً. لم يحدث أن وهبه أحد منهم شيئاً. لقد ظل يعمل ويعمل. فيعاملونه كما لو كان بغلاً ـ ثم يضربونني وصر على أسنانه غيظاً... لقد خذلني الجميع حتى أمي أفشت سري؟ حسناً بمقدوره أن يدفع لـ «هوكنز» العجوز دولارين لكن هذا يعني بيع المسدس وهو يرغب في الاحتفاظ به. خمسون دولاراً لبغلة ميتة؟!!... واستدار في فراشه محاولاً أن يعرف كيف أطلق النار... ثم أحس برغبة ملحة في أن يطلق النار ثانية وإن كان بمقدور الرجال الآخرين إطلاق النار فإنني لست أقل منهم... وأصاخ السمع. قد يكون الجميع نياماً الآن... كان البيت ساكناً والصمت مطبقاً... لا يتخلله سوى تردد أنفاس أخيه الهادئة... نعم... الآن! سيذهب بالمسدس كي يرى إن كان باستطاعته إطلاق النار منه ثانية. وتسلل من فراشه فارتدى ملابسه وخرج.

كان القمر بدراً... وعدا طوال الطريق إلى الغابة تقريباً وشرع يبحث في المكان الذي خبأ فيه المسدس. نعم! ها هو. كان يحفر كما لو كان كلباً جائعاً ينبش الأرض لاستخراج قطعة عظم وكوّر أوداجه السود قبل أن ينفخ التراب عن الزناد والماسورة. وثنى المسدس فوجد به أربع رصاصات. وتلفت حوله... كان الحقل يسبح بسكون في ضوء القمر... وأحكم قبضته حول الزناد لكنه أغمض عينيه وأدار رأسه قبل أن يضغط بأصبعه. لا يمكن أن أطلق النار بعينين مقفلتين ورأس مدار! وفتح عينيه بصعوبة ثم سحب الزناد.

بالووووووم! ـ كان متصلباً كاتماً أنفاسه، وكان المسدس لا يزال في يده تباً لقد فعلها. وأطلق ثانية بلووووووم! بلووووووم. بلووووووم! ها قد أفرغت المسدس. إن

كان في استطاعة أحد أن يطلق أعيرةً فإنه يستطيع. ووضع المسدس في جيبه ثم سار عبر الحقول. وعندما وصل أعلى التل وقف شامخاً منتصباً بفخر ولجين البدر يغمره بملاءته الفضية وطفق يرمق بيت «جيم هوكنز» الأبيض الكبير متحسساً المسدس في جيبه: رباه لو تبقت لدى رصاصة واحدة لأطلقتها تجاه هذا المنزل... كم بودي لو أخفت «جيم هوكنز» قليلاً بما يكفي لأن يدرك أن «ديف سوندرز» قد أصبح رجلاً. وعن يساره كان الطريق يميل تجاه سكة قطار «ايلينوي» المركزية وحرك رأسه مصغياً. من البعيد تناهى إلى سمعه صوت خافت: هووووووف، هووووووف! وهب واقفاً.

ـ دولاران كل شهر؟ لنر هذا يعني أن ذلك سيستغرق عامين. سحقاً. وشرع ينحدر مع الطريق تجاه سكة القطار.

ـ أجل هاهو قادم ووقف متخشباً بمحاذاة السكة، إنه يمر حول المنعطف... هلم أيها البطيء... ووضع يده على المسدس ومار شيء داخل بطنه قبل أن يزمجر القطار مروراً به وعرباته الرمادية والسوداء تقرقع بشدة وأحكم قبضته على المسدس ثم نزع يده من جيبه.

ـ أراهن أن «بيل» لا يستطيع القيام بذلك ـ ومرت العربات بجانبه... حديد يقرع حديداً سأستقلك الليلة... ساعدني يا إلهي. كان جسمه يشع حرارة وتردد لوهلة قبل أن يقفز إلى إحدى العربات فيستوي فيها راقداً. وتحسس جيبه... كان المسدس لا يزال هناك... ومن بعيد كانت القضبان تلمع تحت ضوء القمر ممتدة إلى أغوار المجهول... إلى مكان ما هناك حيث سيغدو بمقدوره أن يصبح رجلاً.

إلى سيادة الرئيس

للكاتب الباكستاني: أحمد نديم قاسمي

عندما كان نجيب منهمكاً في قراءة كتاب يحوي أحدث طرائف شيخ التهريج «شطه» بعد إذ ظفر بالمتجر الذي كاد غريمه يسبقه إليه، دخلتْ هي عليه وقتها كان يهم بإطلاق ضحكة مجلجلة أثارتها في ذاته إحدى الملحْ... أقبلت تتهادى كالمعتاد ثم تسارعت خطاها في عصبية واضحة ماسحة أنف طفلها بغلظة قبل أن تقول لنجيب.

ـ أرجوك... اكتبها اليوم إذ إني لم أذق للنوم ليلة البارحة طعماً أنا تعيسة حقاً!.

ذلك اليوم كانت تغشاه نفحة كرم... ثم أن تلك اللاجئة قد ساعدت أمه كثيراً في طحن القمح والذرة كما وأن مسحة من الجمال ـ قال في نفسه ـ لا زالت عالقة بها ولو إنها كانت أحسن حالاً لبدت غايةً في الجمال... تمتم في ذاته متأملاً الوافدة البائسة وقد خرج بذلك الانطباع الإيجابي عنها بعد إذ رنا إليها بعين الرضا غاضاً بصره عن ملابسها المتسخة وشعرها الأشعث ثم... ثم إنها كانت ترجوه لسبعة أيام خلت أن يكتب لها ذلك الخطاب... ما كلت المسكينة أو ملت وما أقعدها اليأس. واستل ورقةً عريضة كيما يكتب خطابها الذي وصفته بالهامّ ثم قال لها: ـ اجلسي! ـ

وجلست على مهد طفلها المفتول من عدة حبال غليظة ثم أمطرته بوابل من الدعوات وعبارات الشكر والامتنان قبل أن تحمل طفلها فتلقي به إلى جانبها كحزمة من أسمال بالية! وشرع الصغير في مداعبة حبال مهده بيدين قذرتين واصطبغت ملامحها بطابع الجديّة فتوترت خطوط محياها وزمّت في إحكام قبضة يدها اليمنى:

ـ وجّه الخطاب إلى رئيس الدولة!

ورفع نجيب إليها وجهاً يفيض التعجب من قسماته فيما خامره شعور بالأسف لأنه ترك كتاب الطرائف من أجل ترّهة كهذه على أن قبضة المرأة كانت أشد إحكاماً من ذي قبل بدا جفناها وكأنّ قد تلاشيا.

ومصَّ الصغير أصابع قدميه عبر حبال مهده ثم شرع في البكاء وبدأت المرأة بصفعه على قفاه ثم سحبته في عنف وقذفته في مهده مجدداً، وبدت على بطتي ساقيه المتسختين آثار قديمة لحكة دامية ـ أيها القرد ـ قالت مخاطبة طفلها ـ لماذا لم تمت هناك وبقيت ملتصقاً بي كحظي العاثر أفٌّ لك.

وزمَّ الطفل شفته السفلى منتظراً أن تراضيه أمه بقبلة على جبينه تسلمه إلى نوازع البكاء على أنها ما فعلت... التفتت إلى نجيب فأناخ الصغير إلى مركب اليأس شراعه وعاد يلهو بحبال مهده!

ـ ليكن إذاً خطك واضحاً كيما يتسنى لسيادته قراءته... وقل له أني إبان تحرير أرضنا كنت وزوجي نعمل في الدولة المعادية المجاورة لدى أحد أبناء شعبها المتعاطفين معنا. زوجي كان نادلاً، فيما أوكلت لي مهمة غسل الأطباق في ذلك البيت الكبير. كان الباري قد حبانا كل شيء وكان لنا من الأبناء ثلاثة... غاية في الحسن واكتمال الصحة. مرت وافدة يوماً بجانب السور فنظرت عبر فتحاته إلى أولادي وكانوا في حديقة البيت يلهون فقالت:

ـ لا بد وأن هؤلاء أبناء المالك أليس كذلك يا أخيّة؟! وتوقفتْ عن الإملاء برهة فحملت الصغير وقبلته ثم مسحت بقسوة ساقيه قبل أن تقول: لقد كان هو أيضاً غاية في الحسن سابقاً ـ ما كساه ذلك الاسمرار غير مخيم اللاجئين.

كان بال نجيب مشغولاً بمتجره الجديد كما وأنه كان يتعين عليه قراءة النصف الباقي من كتاب الطرائف والمُلح فتمتم مستعجلاً إياها في ضيق:

ـ هم م م م... كان لديك إذاً ثلاثة أبناء!

ورمت بالطفل في مهده ثانية غير أن قدميه الصغيرتين علقتا في الحبال فبدأ يبكي وجذبته في عنف فألقت به على الأرض وزم المسكين شفته السفلي لوهلة ثم رفعها في يأس تارة أخرى وحبا على أربع فخرج عبر الباب المفتوح. ولم تبد أمه شيئاً من الاهتمام بل أنها غرقت في لجة من أفكار، فتل الإحباط خيوطها وشرعت في قضم أظافرها.

ووضع نجيب كتاب الطرائف الذي كان قد استدناه مجدداً ثم ثنى رجله ومدها ثانية في ضيق لا مراء فيه قبل أن يقول:

ـ ماذا أكتب كذلك؟

ونفثت هلام الأظافر المقضومة ثم تابعت:

ـ اكتب بأن شيئاً مريعاً قد حدث بعد ذلك. إذ إن زوجي كان يهم بالخروج يوماً حين عاجله أحدهم ـ عند الباب ـ بطعنة نجلاء قضت عليه... وقتها كنت أرضع طفلي الذي احتضنته وعدوت به صوب أبيه الغارق في بركة من نجيع فجثوت عليه لكن بعضهم اتجه صوبي فأطلقت للريح ساقي ولجأت إلى بيت صديق لزوجي أخفاني في المطبخ فيما استمر الهرج والمرج والشجار في الخارج طويلاً، وفي المساء جاء الرجل الطبيب وفي يده مصباح وسكين وأخبرني أن الموت ينتظرني إما اكتُشِفَتْ هويتي ونصحني بأن أجمع حاجياتي فأتوجه إلى الحصن القديم تمهيداً لإعادتي إلى بلدي، وعندما عدت معه عبر الشارع المهجور الموحش إلى منزلي كانت جثة زوجي جاثمة هناك على قارعة الطريق لمّا تزل! الفرق الوحيد أنه كان آنذاك ملقى على ظهره... ودخلت مع صديق زوجي حديقة المنزل فرأيت طِفْلَيّ جثثاً هامدة وأحشاؤهما فيما بينهما نُثاراً! أما المنزل فقد نُهبت محتوياته!

ولم يستطع نجيب وأد ضحكة اعتملت في ذاته:

ـ لقد ألّفتِ نكتة ظريفة ـ قال نجيب واضعاً قلمه جانباً ـ ومصفقاً في جذل: «رأيت طفليَّ جثتين هامدتين وأحشاؤهما بينهما نثار» هذا رائع بالإمكان استظراف كل شيء... حتى الموت!

واستل قلمه ثانيةً ثم انحنى على الخطاب المبتور مراراً واصفر وجه المرأة... فيما بدا فمها الذي ففرته دهشة مريرة كفوهة بركان رهيب... على أنه لم يكن هناك أثر لدمعة واحدة في ناظريها وحملقت فيه بعينين دمرهما الحزن والأسى وطعنات الأحداث فكأنما باحت مقلتاها: ـ كنت هنا أيام التحرير... لاعجب أن أحشاء الرضع المتناثرة في نظرك نكتةٌ بارعة و... على أن نجيب تذكر المحل الذي ظفر به رغماً عن غريمه فأدار القلم بين أصابعه ثم استحثها:

ـ حسناً فقد نُهب المنزل... وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ أخذني ذلك الرجل الطيب إلى مخيم اللاجئين ـ كانت ساعتها تنثر الكلمات كمدفع رشاش ـ وبعد ثلاثة أشهر كنت على تراب بلادي ثانية مع كثير ممن عانوا كما عانيت... عندما بلغنا محطة الوصول كان علينا أن نجتاز إحدى المقابر... شيء غريب سيدي أن نمرّ إلى الحياة عبر تجاويف الموت... وخامرني إحساس بقرب حدوث شيء غامض على أنه كان عليّ أن أعيش من أجل طفلي« وتوقفت فجأة ثم نظرت حولها:

ـ أين صغيري؟ سألت نجيب... بيد أنها لم تنتظر الجواب إذ انطلقت خارجة لا تلوي على شيء.

والتقط نجيب كتاب الطرائف مجدداً فيما تعالى صوت صفعات في الخارج دخلت المرأة بعده حاملة الصغير الذي قذفت به جانباً كلفافة من أسمال بالية ـ كان يأكل الطين ـ قالت ـ هذا الـ... ابن الـ... ثم توقفت فصفعته على خده ونظر الطفل الذي كان يضع يده الصغيرة على وجهه إلى أمه وثمة تساؤل كبير يكاد يقفز من عينيه أن: أأحرم حتى من أكل الطين؟ تلك المرة ما تدلت شفته

السفلى... اكتفى بالنظر إليها بعينين دامعتين... متسائلتين أن: حتى على الطين لا أخلو من الحسد! وشرعت المرأة في البكاء بمرارة... ثم عمدت إلى الصغير فحملته وضمته إلى صدرها وقالت بنبراتٍ مرتعشة:

ـ اكتب... سجل لديك بأني لا أجد ملجأ في وطني في حجم ذلك المطبخ الذي كنت أعمل فيه... أنا... تلك المسكينة التي طاردها سوء الطالع قد عدت إلى هنا مع ثلة من أقارب لي تركوني وتفرقوا في أرجاء البلاد. حاولت أن أكسب رزقي بعرق جبيني فعملت في طحن الذرة على أن نصيبي... وكان حفنة من طحين لا تسمن أو تغني من جوع لم يكن كافياً لإطعام اثنين... ثم عهد إليّ بصيانة أحد الأضرحة لكن العامل القديم عاد فجأة فطردني شر طردة وقذف بطفلي في قبر نصف محفور رزأه الله في أقرب المقربين إليه وأدخله نار جنهم كيما يصطلي بلظاها في جحيم مقيم! ـ اخرسي ـ قال نجيب محدقاً في وجه المرأة المولولة... قبضتها كانت مشدودة لما تزل وبدت عيناها دون أجفان فيما أرجف الغضب جسدها حتى بدت كورقةٍ في مهب ريح صرصر عاتية ـ تحدثي ببطء يا لك من ثرثارة ـ لقد أضعت وقتي وشتّتِ أفكاري... ماذا تريدين أن أكتب أيضاً؟

ـ القليل سيدي ـ قل له بأني لجأت إلى العمدة لكنه كان في رحلة صيد وحاولت أن أقدم التماساً إلى كبار المسؤولين الا أني ما استطعت الاقتراب من أبوابهم ولا تتوفر لدي شجاعة كافية لممارسة التسول... ظلت أجيال سبعة من عائلتي تأكل رزقاً حلالاً من عرق الجبين فكيف لبائسة مثلي أن تلطخ سمعتها ـ ورفعت صوتها فجأة وهي تردف: ولن أزيد سيادة الرئيس على القول: إنه إما مررت بنا فلن أطلب منك شيئاً غير مثوى يأويني وصغيري مهما كان متواضعاً، لقد بذلت عصارة روحي وفلذات كبدي فداء لوطني... وليس لي بعد الله سواك بعد إذ صعقني كل من التمست مساعدته بقوله: وما عساي أن أفعل؟ إما إذا خذلتني أنت أيضاً ولم ترد على خطابي هذا فسوف أحمل صغيري وأسير حتى

أبلغ العاصمة فأستوقف سيارتك ثم أطلب منك... ـ وماذا ستطلبين منه ـ سألها نجيب بغضب بعد إذ عجز قلمه عن تدوين سيل كلماتها ـ كما لو كان هو رئيس الدولة! قبضتها كانت مشدودة إلى درجة خيل إليه معها أن الدم سينبثق جراء انغراس أظافرها بباطن الكفّ فيما برزت أوردة رقبتها وصدغيها... حدق فيها الرضيع الملتصق بصدرها بعينين بائستين غار فيهما نبع الأمل!

ـ ماذا ستطلبين منه ـ كرر نجيب السؤال واضعاً القلم على المنضدة ـ سأطلب منه ـ ردت المرأة في لهجة تآمرية ـ أن يهبني حقي من الاستقلال.

ـ لن أكتب ذلك ـ قال نجيب ملقياً بالقلم... دافعاً المنضدة بقدمه: قبل أن يرفع كتاب الطرائف تارة أخرى:

ـ ماذا جنيت كي أعرض نفسي للخطر والعقوبة معك؟ إن ما أمليتهِ كاف لاستصدار حكم بسجن مؤبد لك!

ـ ماذا؟ سألته المرأة مرخيةً قبضتها ـ كان عليك يا أخي إفادتي عن مغبة كتابة ذلك... أنى لبائسة كسيرة الفؤاد أن تعلم؟

وتقدمت صوب المنضدة فتناولت الخطاب ومزقته إرباً ثم حملت طفلها فألصقته بجنبها وهي تتمتم: كنت أظن أن بإمكاني التعبير عما يعتمل في وجداني من هم وكدر وبؤس!

ثم مضت لا تلوي على شيء.